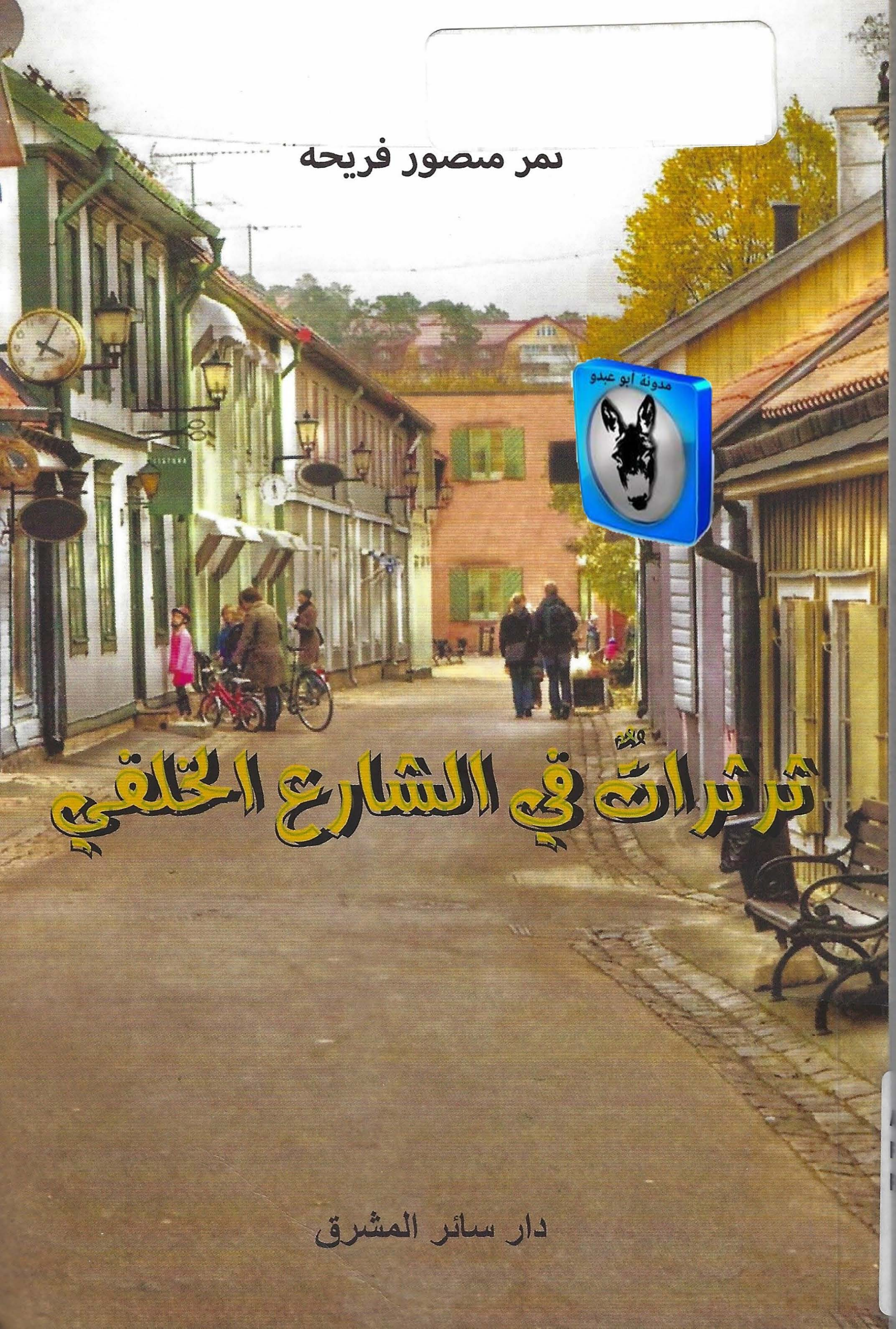
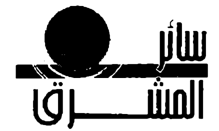

نمر منصور فريحه
مدونة ابو عبدو
ثرثرات في الشارع الخلفي
دار سائر المشرق

نمر منصور فريحه

ثرثراتٌ في الشارع الخلفي

رواية



الطبعة الأولى
٢٠١٨

© دار سائر المشرق
للنشر والتوزيع

جديدة المتن - سنتر بايلايان - الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-111-4

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecouple.com

إهداءٌ

إلى زوجتي نورما

وبناتي خلود وآسيل وغنوة

اللواتي تحمّلن فترة غيابي الطويلة عن الوطن

الشـارع الخلفـي كمـا يوحـي اسـمه، مـوازٍ للشـارع الرئيـسي في العاصمـة، والـذي أسـماه المواطنـون شـارع «الواجهـة»[1]. وقـد اشـتقّوا اللقـب «الخلفـي» مـن موقعـه خلـف البنايـات الـتي أُنشـئت حديثًـا وواجهاتهـا نحـو الشـارع الرئيـسي. وقـد سـبق وجـودُ الأول إنشـاءَ الثـاني الـذي أتى ضمـن خطـة تحديـث لبعـض مناطـق العاصمـة، فطوّرتـه الحكومـة لتجعـل منـه نموذجًـا لرؤيتهـا الاقتصاديـة والسـياحية. وقـد نبتـت عـلى جانبيـه المبـاني العاليـة والجميلـة الـتي تضـمّ مصـارف ومكاتـب لـشركاتٍ ضخمـة محلّيـة وعالميـة، وفنـادق وشـققًا مفروشـة تؤجّـر للسـيّاح أو لمـن يـزور المدينـة لأجـل عمـلٍ مـا. وفي أسـفل كلّ مبـنى تتوافـر أنـواع مختلفـة مـن مكاتـب الخدمـات والمتاجـر كتلـك الخاصـة بالثيـاب، وإلى جانبهـا متجـر للأحذيـة المسـتوردة مـن إيطاليـا، وبعـده محـل عطـور فرنسـية، وثالـث يعـرض آلات كهربائيـة يابانيـة، ثـم محـل صرافـة، ومكتـب سـفريات، يليـه مطعـم أو كافيتريـا، وبعـده علبـة ليـل...

أمـا الشـارع الخلفـي، فبقـي مهمـلًا، وكمـا كان زمـن الاحتـلال الأجنـبي للبـلاد. لقـد كان لـه «عـزّ» اسـتنادًا إلى معايـير تلـك الأيـام، فأقيمـت عـلى جانبيـه آنـذاك أبنيـة ذات ثلاثـة طوابـق، طُليـت باللـون الأصفـر، مـع واجهـاتٍ ذات أعمـدة رفيعـة تنتهـي بأقـواسٍ حـادة، مـا يعطيهـا طابعًـا خاصًـا، بينمـا طُليـت الأبـواب والشـبابيك بالأخـضر. وقـد بـدا الحـيّ وكأنـه

١- «الواجهة» كتعبيرٍ مجازي يقصد به الوجاهة والعظمة مقارنة مع شبيهٍ أقل شأنًا.

مبنى واحد متكرّر مع اختلافٍ بسيط بالحجم بحسب مساحة العقار الذي تمّ البناء عليه. وتفصل بين الأبنية زواريب ضيّقة كممرّات للمشاة عندما لم تكن السيارات متوافرة إلّا لندرةٍ من الناس. لكن ما أصبح فاصلًا ومشتركًا في الوقت ذاته، بين هذا الشارع وشقيقه «شارع الواجهة» هو الأبنية العالية والضخمة التي تمّ إنشاؤها مكان أخرى قديمة ومتواضعة، بينما بقيت الأبنية المقابلة القائمة على جانب الشارع الخلفي على حالها، لأن الحكومة اعتبرتها أبنية تراثية يجب الحفاظ على طابعها القديم.

ولأن الاكتراث بالمظاهر يطبع كثيرًا من التصرفات والقرارات في البلد، فقد تركّز الاهتمام على الشارع الذي يقصده الأغنياء والأجانب والسيّاح ورجال الأعمال، حتى إن خلفية المباني لم تكن لتحظى بالاهتمام نفسه المُعطى لواجهاتها. أما في الشارع الخلفي، فما زالت المحال التجارية على حالها كما قديمًا، إذ يوحي شكلها وهندستها وقيمتها العقارية بأنها في حيٍّ شعبي لا يرغب فيه ذوو الدخل المرتفع.

وهكذا غدت تركيبة الشارعين مختلفة حتى يمكن القول إنهما لا يمتّان بعضهما لبعض بصلة، وعلى الرغم من أن المسافة بينهما لا تتجاوز عشرات الأمتار فقط؛ فإذا سار المرء في شارع الواجهة، ثم انعطف لدقيقتين لجهة اليمين، يدرك الشارعَ الخلفي حيث يشعر كأنه ينتقل من عالمٍ إلى آخر. ومن الخطأ الظنّ أن سكانه من جنسيةٍ أخرى أو عرقٍ آخر، لكن الطابع المُعطى له هو غير ذاك المعطى «للواجهة».

ففي شارع «الواجهة» ترى الناس تمشي بسرعة، ومعظمهم يحمل «سامسونايت»، أو «لاب توب». الرجال ببزّاتهم السوداء أو الكحلية مع

ربطـة عنـق، وأناقـة مبالـغ فيهـا، بينمـا أكثريّـة النسـاء يرتديـن الكعـوب العاليـة والثيـاب الأنيقـة الـتي تطغـى عليهـا ألـوان فرِحـة، ويحملـن حقيبـة يـدٍ مـن الجلـد الفاخـر، مـع نظّـاراتٍ شمسـيّة واسـعة، وشـعرٍ مصبـوغ باللـون الأشـقر يحـاكي أحـدث صيحـات قـصّ الشـعر وتسريحاتـه وتلويناتـه حـتى ليخـال الناظـر نفسـه في إحـدى بلـدان أوروبـا الشـمالية. كمـا يشـهد الشـارع حفـلات «هوليوديـة» سـنويًا بـأن تقلّـد إحـدى الجمعيـات الفنيّـة مـا يحصـل في أمـيركا مـن توزيـع جوائـز عـلى «المبدعـين». ثـم تصـدر الصحـف في اليـوم التـالي لتفضـح «التركيبـات» الـتي حصلـت في طريقـة منـح الجوائـز، تليهـا وسـائط التواصـل الاجتماعـي بتعليقـاتٍ تؤيّـد أو تشـجب «عدالـة» لجـان التحكيـم، ويشـعر المتابـع للحظـات بـأن الخـلاف قـد دبّ بـين أعضـاء لجنـة جائـزة «نوبـل» للسـلام، لكـن لا يلبـث أن يهـدأ الجـدل ليعـود مـن جديـد في السـنة القادمـة.

أمّـا الأمـر في الشـارع الخلفـي فيختلـف حيـث يبـدو النـاس أقـلّ اهتمامًـا بمظهرهـم الخارجـي وطريقـة تنقّلهـم وكلامهـم وتعاملهـم مـع الآخريـن. فهـم ليسـوا في عجلـةٍ مـن أمرهـم، وكلّ فـردٍ ينتقـي محـلًا أو دكّانًـا أو مكتبًـا متواضعًـا، فيدخلـه عـلى مهـل، ويختفـي لوقـتٍ مـا حـتى ينجـز مـا جـاء مـن أجلـه، ثـم يتابـع جولتـه. كذلـك تنتـشر المقاهـي الـتي تقـدّم الأركيلـة والقهـوة والشـاي وشاشـة تلفـاز مفتوحـة لأربـع وعشريـن سـاعة يشـغلها السياسـيون والفنّانـون والفنّانـات، يـأسرون نسـبة مـن المواطنـين تتابـع هـذه المقابـلات الرتيبـة في معظمهـا.

وقـد يتسـاءل أيّ فـرد عمّـا هـو جامـع بـين هاتـين الفئتـين ليتقاسـما برامـج المحطّـات التلفزيونيـة طـوال الوقـت؟

مـن الصعـب الإجابـة بشـكلٍ دقيـق، ربمـا لأن وسـائل الإعـلام تفضّـل ترويـج هذيـن النموذجـين لأسـبابٍ تجاريـة. فـإذا بمقدّمـي ومقدّمـات البرامـج يقتبسـون أقـوال الفنانـات عـلى أنهـا «حِكَـمٌ» أو أقـوال مأثـورة يجـب ألّا تفـوت المشـاهد. ويوحـون لـه بنسـخ هـذه الحكـم وتوريثهـا لابنـه كي يردّدهـا لاحقًـا. فبعـد الاقتبـاس مثـلًا، تطلـب تلـك المقدِّمـة مـن المشـاهدين تحليـل هـذا القـول العميـق لإحـدى الفنانـات، والعميـق جـدًا في معنـاه بالإنكليزيـة:«It's ok». فعـلى المـرء أن يتصـوّر البعـد الفلسـفي الـذي تتضمّنـه هـذه العبـارة! لقـد بـزّت تلـك الفنانـة «شكسـبير» في تعبيرهـا هـذا! إذ لـم يخطـر في بالـه يومًـا أن يكتـب: It's ok كعبـارةٍ مسـتقلة ذات أبعـاد متعـددة. ومـن بـزّ الإثنـين في الـذكاء هـي تلـك المقدِّمـة! هـذه الحادثـة الحقيقيـة لـم تكـن ليتصوّرهـا خيـالُ روائي، لكـن تلـك المقدِّمـة أهدتهـا لـه ولبـاقي المشـاهدين واقعًـا في مسـاء كئيـب كان يبحـث خلالـه عـن برنامـج وثائقـي.

فـ«الفنّانـة» سـواء أكانـت مغنّيـة أو عارضـة أزيـاء أو «رقّاصـة»، «تتحـف» النـاس بإنجازاتهـا العالميـة، ومسـاهمتها في رفـع سـمعة البلـد الحضاريـة بواسـطة مـا لديهـا مـن «مواهـب» ومفاتـن. ولا تكتفـي بذلـك، بـل لا بـدّ أن تـشرح نظرياتهـا ومواقفهـا السياسـيّة بالرغـم مـن أنهـا لا تحسـن التمييـز بـين معـنى الديمقراطيّـة والسـلطويّة، أو بـين النظـام الملـكي والنظـام الجمهـوري. لكـن لهـا أصدقـاء في الطبقـة الحاكمـة -هـذا عـلى ذمتهـا- ومـا تقولـه تسـتند بـه إلى «مصادرهـا». والنـاس يشـاهدون ويتابعـون ويبـدون إعجابهـم بإنجـازات فناناتهـم، والزمـن يسـير متجاهـلًا إياهـم كمـا هـم يتجاهلونـه.

أما السياسيون الذين يشاركون يوميًا في البرامج، فيعيدون الكلام نفسه، ويكرّرونه في حالة من الاجترار الشفوي إلى حدّ القرف، حتى بات من السهل توَقّع ما سيقوله كلٌّ منهم قبل إطلالته المزعجة على الشاشة. وما بين إطلالتي السياسيّ والفنّانة، هناك إطلالة العرّافة. نعم، هذا المجتمع يؤمن بكشف الغيب، وفضح المستور، لذلك يطلّ عليهم من وقتٍ إلى آخر عرّافٌ أو عرّافة يتنبّأ بالمستقبل. ويبلغ الأمر أوجَه قبيل بداية السنة الجديدة حيث يتسمّر الناس أمام التلفاز لسماع ما سيحدث طوال السنة القادمة. ومن الأمثلة على تنبوءاتهم موت رجلٍ سياسي، ونظرًا لأن نصف سكان البلد يتعاطون السياسة، لا بدّ أن تصحّ النبوءة! وهذا مثالٌ آخر: عازبٌ معروف في الوسط الفني سيتزوّج. يا له من حدثٍ تاريخي! إنه يتجاوز إمكانيات العقل البشري لتصوّره أو تصديقه. هناك فنان سيأخذ إجازة من الغناء ليتزوّج!

يقصد هذه المقاهي مَنْ لديه متّسع من الوقت لتمريره بأمور مسلّية، واضعًا الدنيا ومشاغلها خلف ظهره. فيطلب فنجان قهوة وأركيلة، ويمضي ساعتين على الأقل يستمتع بـ«كركرتها» ومذاق تبغها المخلوط بنكهاتٍ كيميائية قاتلة! كذلك تتنقّل في هذا الشارع مجموعة من البائعين الجوّالين، خصوصًا الذين يجرّون عربات الخضار والفاكهة في زواريبه جالبين إنتاج الحقول إلى العاصمة، في الوقت الذي لا يُسمح لهم بالمرور في شارع الواجهة حيث منظر العربة غير سياحي، وغير حضاري، وغير مقبول!

وفي فصل الشتاء، تختفي المياه في الشارع الرئيسي بمجرد توقّف هطول المطر نظرًا لوجود قنوات تصريف المياه تحت الأرصفة، بينما تتجمّع في حفرٍ أصبحت جزءًا من كيان الشارع الآخر نظرًا لإهمال بنيته

التحتيّـة. ويشـير أصحـاب الدكاكـين والمكاتـب بامتعـاضٍ إلى هـذا التميـز بـين النـاس وممتلكاتهـم مـن شـارع إلى آخـر، لكنهـم يعرفـون في الوقـت نفسـه أن أحـدًا لـن يكـترث لمـا يقولونـه، فهـم اعتـادوا النـقّ! ومـن بيـده الحـلّ اعتـاد تجاهلهـم.

جلال الصحافي

كان جـلالٌ يسـكن في أحـد متفرعـات الشـارع الخلفـي، وحـدث أن تـوفي والـده وهـو في السـنة الأولى مـن دراسـته الجامعيّة، ثـم رحلـت والدته قبيل تخرّجـه. عاتـب القـدر عـلى هـذه «الهديّـة» الـتي خبّأهـا لـه في المناسـبتين، لكنه عـاد يعـزّي نفسـه بـأن المـوت هـو نهايـة كلّ كائـن حـيّ، أمـا التوقيـت فليـس بيـد الانسـان، بـل بمشـيئة الله.

لـم يكـن جـلال يهتـمّ بمظهـره الخارجـي كثـيرًا، بـل يـترك شـعره الأشـعث يتّجـه كيفمـا كان فـوق جبهـةٍ واسـعة حـتى ليلامـس عينيـه معظـم الأحيـان. يضـع نظـارات رقيقـة وشـفافة لا تحجـب عينيـه الهادئـين اللتـين تعكسـان شـخصية متماسـكة وقويـة. فهـو جـريء في التعبـير عـن آرائه، وينتقـد الذين يسـتعملون «لغـة الدبلوماسـية» لأنـه يسـمّيها «لغـة التـكاذب». كمـا يتمتّـع بجسـمٍ ريـاضي وحـسّ الفكاهـة، مـا جعـل العديـد مـن زملائـه وزميلاتـه يتقرّبـون منـه ويرغبـون في صداقتـه.

بقـي بضعـة أشـهر يبحـث عـن عمـلٍ في حقـل اختصاصـه في العلـوم الاقتصاديّـة، لكـن مـن دون جـدوى. فقـرّر أن يركّـز عـلى مـا كان يعتـبره «هوايـة» أيـام الدراسـة، عندمـا تطـوّع للمسـاهمة في إصـدار مجلّـة الجامعـة. إذ كان يدقّـق المقـالات الـتي يرسـلها الطلبـة، كمـا كان يكتـب في موضوعـات اقتصاديّـة واجتماعيّـة منتقـدًا التطـرّف في التفكـير، والتزلّـم للنافذيـن، واللامسـاواة بـين النـاس حيـث هنـاك طبقيّـة مغلّفـة تـزداد قـوّة

مع الوقت، وهي متشكّلة من أصحاب النفوذ السياسي والمالي. وبات أفراد المجتمع يصنَّفون بحسب ما يمتلكون من أرصدة في البنوك أو عقارات. كما تحوّلت العملة الخضراء إلى أيقونةٍ لمعظم الناس، وبات المال الوسيلة الأجدى لبلوغ أيّ هدف، وللحصول على أيّ مبتغى أو منصب في البلد!

وقد لمس جلال قساوة هذه الحال في أثناء بحثه عن عملٍ يعيل به نفسه. وعندما التقى بالمسؤول عن الصحيفة التي تقدّم بطلبٍ للعمل فيها، بالرغم من أنها كانت آخر خياراته، سمع منه كلامًا جميلًا بأنه يرحّب بالأقلام الشابّة التي تحمل همَّ الناس وقضاياهم، وخصوصًا إذا كان لدى هؤلاء الكتّاب أسلوب متميّز وخاص بهم.

كان عمله فنّيًا في جزئه الأكبر. إذ يراجع التقارير والمقالات التي تتناول الأمن الاجتماعي، والحال الاقتصادية محليًا وعالميًا، فيحذف منها ما يجده تكرارًا أو غير ذي أهمّية للقرّاء، ويركّز على الموضوعيّة المستندة إلى وقائع وحجج مقنِعة. فالقضايا التي اهتمّ بها كثيرة، وتحتاج إلى من لديه فيضٍ من الأفكار، وأسلوبٍ في التعبير بشكلٍ جذّاب، ومقاربة متينة. وكان يكتب بين الفينة والأخرى مقالة من وحي حدثٍ اقتصادي معين، ويحاول الربط من خلاله بين ما هو اقتصادي، وما هو سياسي.

كثيرٌ من المسؤولين والمتموّلين النافذين اتصلوا به مرّات ومرّات لتبرير عمل تطرّق إليه في إحدى مقالاته، أو للاحتجاج على اللغة الفظّة التي وصفهم بها، أو لتجنّب «شرّه» كما نُقل عن بعضهم. لم يكن يستوعب وقاحة من هدر أموالًا مقدَّمة من جهة دوليّة لبناء مستوصف، أو آخر حصل على دعم من مؤسّسة لتنفيذ مشروع ذي نفع عام،

وانتهى الأمر بأن «شفط» معظم المال، وعلى النفع العام السلام! كما توقّف عدّة مرّات مشدوهًا أمام وقائع عرضها عاملون في وزارات مختلفة حول الفساد المستشري، وكيف تتمّ صفقات التلزيم لأصحاب النفوذ بمبالغ خيالية تُختلس من الضرائب التي يدفعها المواطن العادي، ثم تتم مكافأة المزوّرين أو المشاركين في عملية الاختلاس!

هذه الوقائع الصادمة، والتي أصبحت عادية، جعلته يشعر كأنه المدافع المدني (مقابل العسكري) عن الوطن. الوطن الذي نشأ على محبّته، والرغبة في خدمته من خلال تخصّصه الجامعي، وطموحه بأن يقدّم جزءًا من وقته أسبوعيًا في عملٍ تطوّعي لأجله. أحلامه ورغباته نحو بلده كثيرة وكبيرة جدًا. فهو بنظره بلد الموسيقيين والنحّاتين والمفكّرين والمثقّفين، بلد السحر والجمال والخير. فكيف لمجموعةٍ من السارقين الوقحين تسيطر على قراره؟ مجموعة لا يخجل أفرادها من إشارة كثيرين إليهم بأنهم لصوص، ويرتكبون كلّ التجاوزات لمنع تطوّر البلد. فكيف يبقون في مواقعهم، والناس يلتفّون حولهم ببلاهة، مستعطفين رضاهم وطالبين دعمهم؟ هذا السؤال سيكون محور تفكير جلال لفترةٍ طويلة حيث سيقارب الخلفيّة الثقافيّة التي نشأ عليها هذا الشعب، وكيف تشرّب أفراده فكرة التبعيّة منذ صغرهم، ودور المؤسسات المجتمعيّة -خصوصًا التربويّة- في إعادة إنتاج الأجيال الخانعة والمستزلمة. كما تولّدت لديه قناعة بأن شرارة الثورة على هذا الواقع السيء ستقودها نخبة من المثقفين الذين يرفضون استمرارية هذا الوضع. ثورة بيضاء من خلال صناديق الاقتراع إذا كان هذا الشعب يريد الخروج من شرنقة التزلم والتبعية.

صبيحة أحد الأيام استدعاه مسؤول الصحيفة حيث يعمل، وطلب إليه أن يخفّف لهجته الانتقاديّة لأن بعض المسؤولين المتموّلين يدعمون الصحيفة في أزمتها الماليّة، ولا يمكن أن تقدّم فسحة على صفحاتها للتهجّم عليهم، وخصوصًا إذا كان مَنْ يطولهم في كتاباته أحدُ المحرّرين فيها! ناقش جلال هذا المسؤولَ بالموضوع، ومن وجهة نظره، الصحيفة هي لتوعية الرأي العام، وليس لتضليله. وإذا لم يقم صحافيوها بذلك، فمن يستطيع تأدية هذا الدور؟

لم يقتنع ذلك المسؤول بحجج جلال بالرغم من صحّتها. فهو لا يريد أن يعيش في عالم المثاليات ضمن مجتمع بات كلّ شيء فيه ماديًّا، والانتهازية تطغى على العلاقات بأشكالها كافة. بل شاء أن يعمل بالحكمة القائلة: إذا كنتَ ملكًا على العميان، فمن الأفضل أن تفقأ عينيك. وعندما حان موعد تجديد عقد جلال، تمّ تبليغه بأن الصحيفة استغنت عن خدماته.

عاد مساء ذلك اليوم إلى منزله وهو يتأبّط ملفات وكتبًا وأوراقًا جمعها من مكتبه، إلى جانب خيبة أمل من تجربته، لكنه لم يُضع الوقت الذي أصبح متوافرًا، بل استغلّ معظمه في الكتابة الأدبية التي كانت هوايته منذ أيام الدراسة الثانوية، وفي الوقت ذاته تابع البحث عن عمل جديد. إستكمل كتابة روايته الأولى التي نالت استحسان مَنْ قرأها، وهم قلّة قليلة نسبة إلى عدد السكان. لكن متعة الكتابة هذه تستحقّ التضحية بكلّ شيء، وتقبُّلَ الحدّ الأدنى من الرضى بالنسبة إلى عمله الأول كما اعتقدَ.

كانـت أفـكارٌ كثـيرة تتدفّـق عليـه «كسـيل مـن عـلٍ»، فبـدأ بكتابـة عملـه الثـاني بعـد أن أقنـع نفسـه أن الأول هـو بمثابـة تمهيـد كي يتعـرّف إليـه القـرّاء، والروايـة الثانيـة لا بـدّ أن تـلاقي إقبـالًا يؤمّـن لـه مـردودًا يكفيـه كي يعيـل نفسـه. وهكـذا يسـتطيع أن يمتهـن الكتابـة، فيكتـب بحرّيـة ومن دون مواربـة أو مسـايرة أي فـرد، ويحصـل عـلى مـا يكفيـه ليعيـش باطمئنـان. فالكتابـة أجمـل عمـل يقـوم بـه المـرء مـع مـا يرافـق ذلـك مـن طقـوس وأنشـطة ثانويـة: أن يسـتيقظ الكاتـب مـن النـوم وقـت يشـاء، ويتابـع كتابـة مـا لـم ينهِـه مسـاءً، ثـم يتواصـل مـع شـلّة أصدقـاء ليلقاهـم في إحـدى المقاهـي المنتـشرة عـلى أرصفـة العاصمـة، يطالعـون الصحـف اليوميـة، ويتداولـون شـؤون البلـد، ويناقشـون بعـض التيـارات الأدبيـة الآتيـة مـن الغـرب، ثـم يعـود إلى منزلـه ليتابـع قـراءة كتـاب قـد اشـتراه منـذ أيـام... أو أن يُدعـى إلى إحـدى الجامعـات للمشـاركة في نـدوة، أو تتـم مناقشـة كتابـه مـن قبـل مجموعـة مـن النقّـاد أمـام جمهـور مثقّـف... كلّ هـذه الأمـور تطبـع حيـاة الكاتـب بـشيء معنـوي جميـل، وتجعلهـا ذات قيمـة متمـيّزة طالمـا سـعى إليهـا.

راح جـلال يعيـش هـذا الجـوّ قبـل أن يصبـح معروفًـا ككاتـبٍ في بلـده والبلـدان المجـاورة. وبالرغـم مـن جمـال أسـلوبه وطريقـة عرضـه المشـوّقة لأحـداث الروايـة، فهـو مـا زال بحاجـةٍ إلى وقـت كي يتـمَّ تـداول كتبـه في المكتبـات ولـدى القـرّاء. فانكـبّ عـلى عملـه الثـاني حـتى أنهـاه في فـترةٍ قصـيرة نسـبيًا، ومـن دون أن ينـسى متابعـة الإعلانـات عـن فرصـة عمـل، لكنـه كان يغـضّ النظـر عـن أيّ فرصـة خـارج البلـد لأنـه كان يشـبّه نفسـه بالسـمكة الـتي لا تسـتطيع العيـش خـارج المـاء. و«مـاؤه» كان ذاك الحـيّ

الذي نشأ فيه، ويعرف سكانه ويتفاعل معهم، ويحمل هموم وطن يشبهه ويشبههم...

أُعجبَ صاحب دار النشر بروايته الثانية، وأخبره من خلال خبرته في هذا الحقل بأنها ناجحة كرواية، لكن خوفه من نسبة القرّاء التي تدنّت كثيرًا هذه الأيام. فسأله جلال:

- أتعتقد أن نسبتهم كانت أعلى سابقًا؟

- بالتأكيد. كانت الطبعة الأولى للكتاب الناجح تنفد خلال سنة واحدة، واليوم تستغرق ثلاث أو أربع سنوات ليتمّ توزيعها وشراؤها كلّها. لقد تحوّل اهتمام الناس في ظلّ الثورة التكنولوجية من القراءة التثقيفية إلى قراءة النكات والسخافات وأخبار الفنّانات ولاعبي كرة القدم على وسائل التواصل الاجتماعي، فضلًا عن الاستماع إلى الأغاني الهابطة فنيًا...

- ثلاث سنواتٍ لتشتري هذه الأمّة ألف نسخة من كتاب؟

- نعم سيدي. أنا في «الماركت»، وما أقوله لك هو الواقع.

- أرى الناس ينفقون المال بشكلٍ سخي على حاجاتهم اليوميّة ووسائل الترفيه، خصوصًا وسائل التواصل الاجتماعي وما شابهها...

- (مقاطعًا) على كلّ شيء باستثناء الكِتاب!

- فهل يكرهونه؟ هل يمجّون القراءة؟

- بات الناس يتجنّبون ما هو مفيد وجميل. لقد تخلّوا عن متعة القراءة لأجل متابعة أمور سطحية.

- ربما لهم ذوق آخر.

- أيًا يكن ذوقهم، تبقى القراءة كبساط الريح الذي يحملنا إلى عوالم جميلة .

- جميلٌ! كلامٌ جميل لم أسمعه من قبل. يبدو أن من يَهوون التحليق باتوا ندرة من الناس.

- لقد تآمر مجتمعنا بكلّ مكوّناته على الكتاب، حتى الذين نظنّ أنهم من أنصاره. لقد أخبرني أستاذ جامعي نشرت له كتابًا ينسجم مع مقرّر مطلوب من الطلاب، بأن أحد أو إحدى الأساتذة طلبت إليهم تصوير الكتاب بدل شرائه. هذا بالرغم من أنه أورد تنبيهًا في الصفحة الأولى يحذّر من نسخ محتواه أو تصويره. وهكذا ذهبت ثلاث سنوات في تحضير الكتاب وتأليفه في مهب الريح.

- إذا كان الأستاذ الجامعي يشجّع طلابه على مخالفة القانون والسرقة الفكرية، فابشرْ بهكذا جيل يساهم في بنائه!

- أنت تعرف أنه ما أصبح أستاذًا بكفاءته، بل بـ«الواسطة»، وتصرّفه ينسجم مع مثل هذه «الكفاءة».

- كلّ شيءٍ في هذا البلد بـ«الواسطة» التي «هشّلت» معظم مثقّفينا لأنهم رفضوا الوقوف على أبواب أصحاب السلطة الفاسدين.

- وعاد جلال إلى «اللازمة»: ثلاث سنوات لتشتري الأمّة بأكملها ألف نسخة من كتاب! ثلاث سنوات...

- هذا واقعنا يا أخي، ولا نستطيع تغييره.

- هـذا مظهـر للتقهقـر والتخلّـف. في الغـرب تجدهـم يقـرأون في القطـار والسـاحات وعـلى الأرصفـة وفي المقاهـي، ويحافظـون عـلى حـقّ الملكيّة الفكريّـة، وينظـرون إلى الكاتـب بـكلّ وقـارٍ وتقديـر.

- الكاتـب عندنـا مهمّـش. المكانـة اليـوم لمـن يغـنّي في المطاعـم، ويمثّـل في المسلسـلات المنحـدرة والمضجـرة، أو يقـدم برامـج إيحائيـة تثـير الغثيـان والقـرف...

- أتساءل أحيانًا عما ينقصنا لنرتفع بتفكيرنا وقيمنا كالغرب.

- ذاك هـو الغـرب! بينمـا الـشرق يختلـف. الـشرق هـو عكـس الغـرب، كمـا النهـار هـو عكـس الليـل، وإلاّ لكنـا وإيّاهـم مجتمعًـا واحـدًا.

- نظـرة فلسـفية مهمّـة عـلى الرغـم مـن بسـاطتها. ربمـا نكتفـي في هـذه الأمّـة بالعيـش عـلى أمجـاد المـاضي.

- لنعـد إلى موضوعنـا. سـأنشر لـك الكتـاب، وعليـك الانتظـار لتحصـل عـلى بعـض المـردود.

إستنتج جـلال بسرعـة أن وضـع كتـاب شـعر أو فلسـفة أو قصّـة لا يجـدي نفعًـا، ولا يؤمّـن لـه شراء رغيـف. هـذه معضلـة الكاتـب في وطنـه وأمّتـه. لكـن متعـة الكتابـة لا يوازيهـا أيّ شيء مـادي، إذ ليـس باسـتطاعة أيٍّ كان أن يكتـب قصّـة أو روايـة أو شـعرًا. وبإحسـاس الشـفقة عـلى واقـع الأمّـة الـتي طالمـا تصوّرهـا بأنهـا أفضـل بكثـير ممـا هـي عليـه، راح يتسـائل بوجـع:

ما يفعله أبناء هذه الأمّة؟

ألا يقرأون؟

ألا يتثقّفون؟

ألا يطّلعون على الآداب والفنون العالميّة؟

ألا يشعرون بأن شيئًا ما ينقصهم إذا جافوا الكتاب؟

ألا يقدّرون الفكر؟ ترى ما يقدّرون إذًا؟

ربما باتوا مكتفين بالتسلية بالهواتف النقّالة وبكرة القدم. نعم. إنتقل تركيزهم وفكرهم من رؤوسهم إلى أقدامهم. ليس هم فقط، بل العالم بأسره حوّل تفكيره إلى الأسفل. فقد راج منذ مدة عرض أحذية المشاهير بالمزاد. تصوّروا أن حذاءَ لاعب كرة سلّة، بيع بمئتي ألف دولار!! وحذاء أميرةٍ تداولت الصحف خيانتها لزوجها من خلال صورها مع عشّاقها، معروض في المزاد أيضًا! فأي إنجازٍ إنساني قام به هذا الحذاء أو ذاك ليستحق هذه القيمة الخيالية؟! ما هذا الدرك الذي وصل إليه العالم؟ ثم عاد إلى موضوع الكتابة مردّدًا وكأنه يهذي: مشكلتي أنني أكتب بلغة الأمّة ولأبناء الأمّة، لكن الكارثة أن هذه الأمّة لا تقرأ.

عبدالله وجملو

إن المـار في الشـارع الخلفـي، وقـرب مفـرق سـينما «الأوبـاش»، يسـمع أحيانًـا صراخًـا وأصواتًـا صاخبـة. فهـو ليـس قريبًـا من مـسرحٍ يقـدّم حفلاته بشـكلٍ متواصـل، بـل بمحـاذاة شـبّاك بيـت عبـدالله وزوجتـه جملـو في الطابـق الأرضي مـن بنايـة «حجـلان». غرفـة جلـوسٍ بجنبهـا مطبـخ صغـير، وممـر ضيـق يصـل إلى غرفـة نـوم واسـعة. شـقةٌ قديمـة تسـتوعب أسرة مـن سـتة أفـراد، وعـلى الرغـم مـن ذلـك، فهـم عـلى خـلافٍ دائـم حـين يلتقـون. يعـود الأب مـن عملـه تعبًـا ومتوتـرًا، فيبـدأ كلامـه بصـوتٍ عـالٍ، وبلهجـةٍ مـن عـدم الـرضى والغضـب، لكـن مـن دون مـبرّر لأن رجليـه بالـكاد وطأتـا عتبـة البيـت. فهـو غاضـب عـلى الدنيـا الـتي لـم تنصفـه في أمـورٍ كثـيرة، وأحـد أسـباب ذلـك يعـود إلى عـدم رزقتـه بولـد ذكـر يحمـل اسـمه واسـم العائلـة، إذ كان يلـوم زوجتـه في كلّ مـرة تلـد أنـثى، وهـو جاهـل بـأن الرجـل وليـس المـرأة هـو مـن يحمـل «الكرومـوزوم» الـذي يحـدّد جنـس المولـود! وجملـو لا تعـرف ذلـك أيضًـا، وإلّا لكانـت قـد هدمـت الدنيـا فـوق رأسـه عندمـا يعيّرهـا بأنهـا لـم تنجـب إلّا بنـات مثـل أمّهـا!

عندمـا تتصاعـد نـبرة صـوت عبـدالله، تلاقيـه جملـو بنـبرةٍ مشـابهة بعـد أن ترمـي السـيجارة الـتي تضعهـا معظـم الوقـت عـلى طـرف فمهـا لتُبقـي يديهـا طليقتـين مـن أجـل الجـلي والتنظيـف والغسـيل، فتعـدّد مـا قامـت بـه مـن أعمـالٍ مرهِقـة في منزلهـا منـذ الصبـاح حـتى عودتـه. ثـم ينطلـق هـو

مجـددًا بصـوتٍ أعـلى ليقـول مـا حـضّره قبيـل عودتـه، وتـردّ هـي بدورهـا وكأنهمـا يرتجـلان الزجـل في حفـلٍ يقتـصر عـلى بناتهمـا. وبعـد قليـل تتدخّـل تيمـا، ابنتهمـا الكـبرى، لتسـاند والدهـا بحجـة أنـه يرهـق نفسـه لأجـل العائلـة الـتي عليهـا أن تخفّـف عنـه تعبـه لا أن تزيـده، بينمـا تقـف الأصغـر منهـا، دلال، إلى جانـب أمّهـا باعتبارهـا مظلومـة لأن الـزوج، وبـدل أن يحمل لزوجتـه باقـة ورد يقدّمهـا لهـا عنـد دخولـه المـنزل، هـا هـو يجلـب يوميًـا العتـاب والـصراخ...

تيمـا في الثامنـة والعشريـن مـن عمرهـا، متوسّـطة الجمـال والقـدرة الفكريـة أيضًـا. لـم تكمـل دراسـتها لأنهـا لـم تسـتطع اجتيـاز امتحانـات «البروفيـه» الحكوميـة لثـلاث مـرّات، فقـرّرت أن تلقـي سـلاحها المـدرسي وتستسـلم للبقـاء في المـنزل، رافضـة أن تبحـث عـن عمـلٍ بسيط لا يتطلّـب كفـاءات علميـة عاليـة. أمـا دلال، فجمالهـا يكمـن في الجاذبيـة الأنثويـة الـتي تتمتّـع بهـا مـن خـلال عينيهـا النجلاويـن، و«مشـيتها» المغناجـة، ومـا وهبـه لهـا الله مـن «تضاريـس» لافتـة. وبعكـس شـقيقتها، فقـد حصلـت عـلى إجـازة جامعيـة، لكنهـا لـم تسـتطع إيجـاد عمـلٍ لأن أيّ وظيفـة في القطـاع الحكومـي أو الخـاص بحاجـة إلى «واسـطة»، وكانـت ترفـض أن تشـعر بأنهـا مدينـة طيلـة حياتهـا لمـن سـاعدها في الحصـول عـلى عمـل حـتى ولـو كانـت كفـوءة لذلـك. وكانـت كلّمـا تسـألها أمّهـا عـن اهتمامهـا بلقـاء «زوج المسـتقبل»، تـردّ بـشيءٍ مـن السـخرية بأنهـا لـن تتحـوّل إلى مهمّـة «النفـخ والطبـخ» الـتي تحسـنها نسـاء الحـيّ، أي أن تـتزوج لتنجـب أولادًا، ولتمـضي معظـم وقتهـا في تحضـير الطعـام وغسـل الثيـاب وخدمـة أفـراد أسرتهـا. لكـن جملـو غـير مقتنعـة بحجـج ابنتيهـا، إذ طالمـا حاولـت إقنـاع دلال أن تلتحـق كمتعاقـدة في أي مؤسّسـة حكوميـة بغـض النظـر عـن البـدل المـالي

المتواضـع، وتـردّد عـلى مسـمعها بـأن التعاقـد يليـه مطالبـة بالتثبيـت في العمـل، ثـم إضراب يقـود إلى التثبيـت بغـض النظـر عـن الكفـاءة. ومـن يراقـب مـا يحـدث في البلـد يكتشـف أن أصحـاب القـرار يتنافسـون عـلى تثبيـت «أتباعهـم»: «أنظـروا إلى وفـاء جارتنـا! مـا هـي كفاءاتهـا كي تُثبّـت في الـوزارة وهـي لا تحمـل إلّا شـهادة البروفيـه؟ وهـا هـي الآن مرشّـحة لرتبـة مديـر قسـم». وعندمـا كـرّرت دلال اعتراضهـا عـلى مـا تتمنّـاه أمّهـا، أجابتهـا الأخـيرة: «سـتبقين مـن دون عمـل إلى يـوم القيامـة. تذكّـري كلامـي. أنـت مثـل والـدك. لقـد طلبـتُ منـه مـرّة أن يسـجّل اسـمه في حـزبٍ سـياسي، لا يهـمّ أيّ حـزب يختـار، فيصبـح لديـه راتبـان: مـن وظيفتـه ومـن الحـزب. أجابـني بسرعـة: أفضّـل أن أبقـى فقـيرًا ولا أتحـوّل إلى خـادمٍ لزعيـم الحـزب وعائلتـه. وهـا نحـن نعيـش خبزنـا كفـاف يومنـا».

جـنى، هـي البنـت الثالثـة الـتي تفوتهـا «الحفلـة» شـبه اليوميـة بـين والديهـا لأنهـا تعمـل في أحـد محـلات بيـع الثيـاب، وتبقـى هنـاك حـتى المسـاء، وتضـع راتبهـا الأسـبوعي بتـصرّف العائلـة كجـزءٍ مـن مصاريـف البيـت اليوميـة. تصبـغ شـعرها باللـون الأشـقر بالرغـم مـن سـمرة بشرتهـا لتظهـر كبـاقي نسـاء البلـد اللـواتي أصبحـن يشـبهن بعضهـن البعـض بفضـل مصفّفـي الشـعر والمـواد الكيميائيـة التجميليـة.

أمـا الصغـرى، سـارية، فهـي أجمـل أخواتهـا. سـمراء ذات جاذبيـة واضحـة، ترتـدي الثيـاب القصـيرة والمثـيرة مـا يجعـل الشـباب يتابعونهـا بحـسرة، ويأكلونهـا بعيونهـم المشـتهية لـكلّ جـزءٍ فيهـا. فهـي تعـرف كيـف تثـير الناظريـن إليهـا بطرفـة عـين مـع ابتسـامةٍ تكشـف عـن صـفٍّ مـن حبّـات اللولـو الـتي تولـع النـار في قلـوب المتربّصـين قـرب منزلهـا، فيحاولـون الحديـث معهـا للتقـرّب منهـا، لكنهـا لا تعطـي أيًّـا منهـم مجـالًا لذلـك

مكتفيـة بـ«حرقصتهـم»، وهـذا يجعلهـا تشـعر بالفوقيّـة. فهـم عاطلـون عـن العمـل، ويمضـون معظـم النهـار يتسـكّعون في زواريـب الحـيّ. فلـمَ تضحّـي لأجـل أحدهـم وتصادقـه، وهـي تعـرف مسـبقًا بعقـم العلاقـة المسـتقبلية بينهمـا.

هـؤلاء الأخـوات يمتعضـن بعضهـن مـن بعـض لأتفـه سـبب، فتعلـو أصواتهـن بشـكلٍ ملفـت ومسـموع حـتى في الخـارج. فعنـد الصبـاح يكـون دور تيمـا الـتي تؤمـن بالسـحر، فـإذا بهـا تصنـع دميـة مـن قمـاش، ثـم تتلـو بعـض العبـارات المبهمـة الـتي تعلّمتهـا مـن إحـدى العرّافـات، وتغـرز بـين الحـين والآخـر دبّوسًـا معدنيًـا ذا رأس أحمـر أو أزرق في جسـد هـذه الدميـة الـتي تمثّـل رجـلًا تجاهلهـا، أو تسـبّب بأذيـةٍ لهـا يومًـا مـا، فتشـعر بلـذّة الانتقـام معتقـدة بأنـه يتألّـم في لحظـة الغـرز هـذه، خصوصًـا بواسـطة ذاك الدبـوس الـذي تبقيـه لنهايـة هـذا الطقـس السـادي، وتشـكّه في قلبـه! وهـذا النشـاط شـبه اليومـي كافٍ ليفجّـر الخـلاف مـع والدتهـا الـتي تريدهـا أن تسـاعدها في تدبـير شـؤون المـنزل، وليـس الاهتمـام بـ«الخرافـات السـخيفة»، متمنيّـة أن يأتيهـا «حـدا يحـكي فيهـا» لتزوّجهـا منـه فـورًا. أمـا دلال فتبقـى مسـمّرة أمـام التلفـاز معظـم الوقـت، أو تقـرأ قصّـة رومنسـية مـا يدفـع أمّهـا إلى التعليـق بسـخرية عـلى الطريقـة الـتي تمـضي بهـا أيامهـا مسـتخدمة مثـلًا بالعاميـة «أكل ومرعـى، وقلـة صنعـة».

هـذه المشـاكل شـبه اليوميّـة بـين أفـراد الأسرة أصبحـت عاديـة بالنسـبة إلى الجـيران لدرجـة أنهـم يسـتنتجون بسرعـة أن عائلـة عبـدالله غـير موجـودة في المـنزل عندمـا لا يسـمعون جلبـة الشـجار! والعجيـب أن البنـات اللـواتي يستعملن ألفاظًا وعبارات قاسية في أي مواجهة بينهنّ، أو مواجهة والديهن، يصبحـن هادئـات ولائقـات جـدًا عنـد التواصـل مـع الجـيران أو الغربـاء.

كانت جملو تهوى النقّ بدورها. وغالبًا ما تأخذ المبادرة إذا قرّر زوجها يومًا ألّا يفتعل مشكلة. إذ كانت متعتها أن تقول شيئًا ما أمامه، وتردّده، ثم تفسرّه بطريقة تستفزّه وتثير أعصابه. وقد باتت خبيرة في ذلك بعد خمسٍ وثلاثين سنة من الزواج، وأربعٍ وثلاثين سنة خبرة في طريقة استفزازه. يحاول أحيانًا أن يتذكّر الأشياء الجميلة التي حصلت في السنة الأولى واليتيمة التي استمتع بالحياة معها عند زواجهما، لكن الصور الحلوة تجفل من ذاكرته، وكأنها تتآمر مع زوجته ضدّه كي لا تكون لديه ولو ساعة واحدة من الذكريات التي تدخل السرور إلى فؤاده.

سارية التي كانت تنزعج من الجوّ المتوتّر السائد بين أفراد الأسرة، كانت تتعمّد عدم البقاء في المنزل عند عودة والدها. فقد وجدت مخرجًا لها بالادّعاء أن دوام دراستها الجامعية يبدأ الساعة الثالثة. وككلّ شابة، كانت أحلامها عالية السقف بالنسبة إلى فارس أحلامها ومستقبلها المهني، فتعرّفت عن طريق إحدى وسائل التواصل الاجتماعي إلى شابٍ وسيم، ما جعلها تميل إليه بسرعة.

بضعةُ لقاءاتٍ كانت كافية لتقرِّبَهما كثيرًا بعضهما من بعض، وباتا على علاقة حميمة. فكانت تخرج من المنزل وتتوجّه للقاء إحسان معظم الأيام، وهو يكبرها بعشر سنوات، ويعيش بمفرده في شقةٍ صغيرة استأجرها ليشعر بحريّته بعيدًا عن باقي أفراد أسرته. فعمله جيد، ودخله لا بأس به. وهناك يتحادثان، ويتبادلان مشاعر الحبّ، ويمضيان وقتًا ممتعًا. ولكن سارية ذات الخبرة البسيطة في العلاقة مع الرجل، وفي لحظة ضعف، سلّمت نفسها له حيث لم يلبث أن تخلّى عنها بعد فترةٍ عندما بدأ يشعر بالضجر من وجودها الدائم والملاصق له، خصوصًا عندما تستعمل تعابير الحب والوله، وتلمّح إلى

الخطوبـة والـزواج. وقـد سـبق لإحسـان أن هجـر فتـاة قبلهـا بعـد أن أقـام معهـا علاقـة أيضًـا. وربمـا اسـتغل غيرهمـا معتمـدًا عـلى وسـامته وقدرتـه الماديـة، ونفـذ مـن المشـكلة الـتي ورّط فيهـا أيّ فتـاة أوهمَهـا بأنـه يحبّهـا، مـن دون عقـاب...

فكّـرت سـارية بالانتحـار لأنهـا لـم تتحمّـل فكـرة «تبخُّـر» حـبّ كان ترجمـة جميلـة لحلـم مراهقتهـا، ولأنهـا فقـدت أغـلى مـا تمتلكـه الفتـاة في مجتمـعٍ محافـظ، مـا جعلهـا في موقـع «المعيـب» بالنسـبة إلى عائلتهـا وأصدقائهـا فيمـا لـو عرفـوا مـا قامـت بـه. لكنهـا قـرّرت أن تناقـش مشـكلتها مـع أسـتاذة «السوسيولوجي» (علـم الاجتمـاع) الـتي تتطـرق إلى مثـل هـذه الحـالات في محاضراتهـا.

بعـد انتهـاء إحـدى المحـاضرات، سـألت سـارية أسـتاذتها إذا كان لديهـا بعـض الوقـت لأنهـا تريـد الحديـث معهـا بشـكلٍ منفـرد. رحّبـت بهـا الأسـتاذة، وبعيـد دخولهمـا المكتـب طلبـت إليها أن تشـعر بالراحـة والحرّية بسـؤال مـا تشـاء. تلعثمـت سـارية في البدايـة، بينمـا راحـت أسـتاذتها تشـجّعها عـلى الـكلام. فأخبرتهـا مـا حصـل مـع إحسـان. وبعـد العديـد مـن الأسـئلة والأجوبـة، ركّـزت الدكتـورة عـلى كيفيـة تفكـير أهـل سـارية إذا عرفـوا بالأمـر.

- أعتقـد بأنهـم سـيصابون بصدمـة. إذ إن أهـلي محافظـون، وينتسـبون إلى إحـدى العشـائر.
- أنـت في مشـكلة كبـيرة. لقـد قمـتُ بدراسـة تصـورات العشـيرة للعلاقـات الجنسـية قبـل الـزواج، واسـتنتجت أن أفرادهـا قـد يسـاومون عـلى أي موضـوع، إلا إذا تجـاوزت فتـاة منهـا الحـدود المرسـومة لهـا.

- ما تتوقعين أن يفعلوا إذا عرفوا حقيقة ما حصل معي؟
- سيقتلونك لـ«غسل العار». هكذا يعتقدون!
- نحــن في القــرن الحــادي والعشريــن، فهــل هــذه التقاليــد الباليــة مــا زالــت ســائدة؟
- التقاليــد أقــوى مــن الزمــن. فهــي لا تعــترف بالوقــت، حــتى لــو كنــا في القرن الثـاني والعشريـن، ردة فعلهـم سـتكون قاسـية. أقـول لـك ذلـك كي لا تســتخفّي بالأمــر، فقــد تخسريــن حياتــك.
- أنـا أعيـش في المدينـة، وليـس في أماكـن عيـش العشـيرة. فكيـف لهـم أن يعطـوني هويـة لـم أشـعر بهـا يومًـا؟
- نحــن ضيّعنــا هويتنــا المجتمعيــة في هــذا البلــد. فلــو كنــا مجتمعًــا قبليًـا، لكانـت الأمـور كلّهـا واضحـة لنـا. ولوكنـا مجتمعًـا متحـررًا، لـكان وضعنــا مختلفًــا. لكننــا لســنا في هــذا ولا في ذاك!
- والآن، ما تنصحينني بفعله؟
- صارحــي أمّــك بالموضــوع. فــالأمّ حريصــة عــلى حيــاة ابنتهــا مهمــا فعلــت. فهــي لــن تســمح بتعرّضــك لــلأذى، بــل ســتجد طريقــة لمســاعدتك.

تـردّدت سـارية في إخبـار أمّهـا، لكنهـا لـم تكـن تفعـل شـيئًا في الوقـت ذاتـه. كانـت سـاهية ومرتبكـة وتائهـة. وعندمـا لاحظـت أمّهـا هـذا التغـيّر المفاجـئ في تصرفـات ابنتهـا، اسـتفاقت مـن هاجسـها المركّـز عـلى التصـدي لزوجهـا لـترى مـا يحصـل في بيتهـا، ولصغيرتهـا بشـكل خـاص. وبعـد إلحـاح، أخبرت سـارية أمَّهـا بمـا حـدث، وبأنهـا تتعـذّب، وتـرى الدنيـا مظلمـة مـن حولهـا.

وكيـف أن إحسـان قـد خدعهـا بالكلمـة السـحرية «أحبّـك» الـتي يردّدهـا في كلّ عبـارة، لتكتشـف لاحقًـا أن نيّتـه كانـت التمتّـع بجسـدها فقـط.

شـعرت الوالـدة بتقصـيرٍ نحـو ابنتهـا لأن همّهـا تركّـز عـلى أمـور تافهـة في الوقـت الـذي كان عليهـا متابعـة نمـو بناتهـا وتطـوّر حياتهـن. «الكارثـة حلّـت»، هـذا مـا ردّدت طـوال ذاك النهـار الـذي علمـت فيـه بالمشـكلة، لكـن كيـف الطريـق للخـروج منهـا؟ ذهبـت إلى اختهـا الـتي تعمـل ممرّضـة في إحـدى المستشـفيات، تعـرض عليهـا المشـكلة الـتي «لوّثـت شرف عائلتهـا»، وكيـف سـينعكس ذلـك عـلى بناتهـا الأخريـات، إذ لـن يتقـدّم أحـد لخطبتهـن إذا انتـشر خـبر مـا حـدث لأختهـن الصغـرى، إضافـة إلى مـا يمكـن أن تعاقَـب بـه سـارية. هوّنـت اختهـا عليهـا، وأخبرتهـا بـأن هنـاك وسـيلة بسـيطة ومضمونـة لـ«ضبضـة» الوضـع. وعندمـا سـألتها كيـف؟

- بترميم غشاء البكارة.

- ما تعنين بذلك؟

- لقـد تقـدّم الطـبّ، وأصبـح مـن السـهل عـلى طبيـب جـرّاح إجـراء عمليـة «ترميـم».

- أي تعود «سارية» كأنها عذراء؟

- نعم. ارسلي سارية إليّ غدًا، وأنا أكلّمها ببعض الأمور.

- أي أمور؟ ألا أستطيع أن أنقل لها ما تريدينه منها؟

- لا. دعيني أكلّمها وجهًا لوجه.

في اليـوم التـالي أتـت سـارية إلى خالتهـا حيـث تفرّغـت لهـا لبعـض الوقـت لتطمئنهـا بأنهـا لـن تكـون وحيـدة في مشـكلتها، وسـألتها إذا كانـت تشـعر

بـأيّ أعـراض مثـل الدوخـة أو القـيء أو توقّـف دورتهـا الشـهرية... فأجابتهـا بـأن هـذه الأمـور حصلـت لهـا. فصرخـت خالتهـا:

- ريتك بجهنم يا رب! شو عاملي بحالك يا حمارة؟!
- عن شو عم تحكي؟
- يمكن تكوني حامل.
- شو؟!
- مـا علموكـن بالمدرسـة أي شي عـن جسـمكن ووظايفـو حـتى تعرفـوا كيـف تتعاملـو معـو، وتعرفـو شـو عـم يصـير معكـن؟
- المدرسة علّمتنا كلّ شي، إلّا الشي اللي بنعوزو بحياتنا.

غابـت الخالـة قليـلًا لتعـود وبيدهـا «إبـرة» أو حقنـة غرزتهـا في أحـد أوردة سـارية، وأخـذت عينـة مـن دمهـا لتفحصهـا في المختـبر، وطلبـت إليهـا أن تنتظرهـا في «الكافيتريـا» ريثمـا تظهـر نتيجـة الفحـص. كادت الخالـة أن يغمـى عليهـا عندمـا وجـدت نتيجـة الاختبـار إيجابيـة، لكنهـا تمالكـت نفسـها، واتصلـت بسـارية لتـأتي إليهـا. وبادرتهـا:

- تقـول النتيجـة إنـك حامـل. إسـمعي! إذا عـرف أبـوك وأعمامـك وأولادهـم بحالتـك، سـينتهي الأمـر بهـم بقتلـك، بـل بذبحـك...
- يـا إلهـي! مـن يقتـل قريبتـه لأنهـا ارتكبـت هفـوة كهـذه، ويمكـن إصلاحهـا كمـا أخبرتـني؟
- تعرفـين أن الجميـع يربـط شرف العائلـة بغشـاء بـكارة أي فتـاة منهـا، فكيـف إذا كانـت حامـلًا؟!

- في الغرب تفقد البنت عذريتها وهي أصغر مني بكثير...
- إن الثقافة السائدة هنا تتناقض مع أيّ تشبيه أو منطق يبرّر العلاقة الجنسية قبل الزواج. إن مفهوم العذرية هو شرط لزواج الفتاة باعتبار أن أحدًا لم يحصل على شيء منها قبل زوجها. وفقدانها لعذريتها يعني تحدّي توقعات العريس، وتلويث شرف عائلة الفتاة.
- للأسف إن هذا المجتمع كما وصفته أستاذة السوسيولوجي...
- لنعد إلى موضوعنا. أنت في ورطة وعلينا إيجاد الحل!
- ماذا عليّ أن أفعل؟
- يجب أن تخضعي لعملية إجهاض قبل بلوغ الحمل ثلاثة أشهر، وبعدها عملية ترميم.
- يا إلهي! لم أكن أعرف ما أورّط نفسي به عندما تجاوبت مع رغبته.

عند المساء ذهبت فداء إلى بيت شقيقتها وأخبرتها بالتفاصيل، وما يمكن فعله. فقالت الأم:

- كيف لي أن أترك من فعل بها ذلك ينجو بفعلته. لقد «ضحك» عليها واستغلّ براءتها، ثم هجرها. «ما بكون جملو إذا خليتو يزمط بعملتو».
- اسمعي! قاربي الموضوع بهدوء. فإذا قبِلَ أن يتزوّجها، هذا أفضل حلّ حتى لو طلّقها لاحقًا. وإلا علينا إجراء عملية الإجهاض أولًا.

طلبت الأمّ إلى سارية أن تجمعها بـ«حبيبها» الذي غدر بها، فأجابتها بأنه يرفض أن يردّ على مكالماتها، فكيف إذا طلبت إليه الاجتماع بأمّها؟

لكن الأخيرة لم تستسلم، بل أخذت الرقم واتّصلت من هاتف ورقم مختلف. وعندما ردّ على المكالمة، قالت له إنها أرملة شابة، ورأته في عرس ابن عمّه وقريبتها -وكانت سارية قد أعلمتها بأن ابن عمه تزوج منذ اسبوع- وبأنه أثار إعجابها، وترغب في لقائه. فلم يتردّد في المجيء إلى المقهى الذي اقترحته للّقاء، وراحت تراقب المدخل عن بعد. وعندما شاهدته يدخل بالثياب التي أخبرها بأنه سيرتديها لتعرفه مباشرة، أسرعت وجلست إلى طاولته ليفاجَأ بأنها ليست كما وصفت نفسها، بل تبدو في الخمسينيات من عمرها، وليست الشابّة التي وعد نفسه بلقائها!

لم تضيّع الأمّ دقيقة واحدة، بل باشرت بالكلام معرِّفة بنفسها، وبأنها أتت لتحلّ «المصيبة» التي أنزلها بابنتها. وأخبرته بأن التي يرفض أن يردّ على هاتفها تحمل طفله في أحشائها، مستطردة، بأن الموضوع ينتهي إذا تزوّج بسارية. فأجابها بأنه لم يغتصب ابنتها، بل هي سلّمته نفسها، وعندما يحصل أمر كهذا في لحظة ضعف وإثارة، لا يعود أحد يفكر بما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

- لكن حصل ما لم تفكرا به، وعليك المشاركة في إيجاد مخرج للوضع.
- كيف؟!
- بأن تتزوّج سارية بأسرع ما يمكن، وقبل أن يبدأ بطنها بالظهور.
- أتزوجها! أنا لا أفكّر بذلك الآن.
- بل عليك حلّ المشكلة التي ورّطت ابنتي فيها. وإلا فإنك ستلاقي ما لم تتوقّعه. نحن نعيش تقاليد العشائر، وتعرف الباقي.

- هل ستقتلونني؟

- هكذا يقضي العُرف. قد تقتلا بسبب فعلتكما.

صمت قليلًا، وراح يحدّق في سقف المقهى، ثم قال:

- دعيـني أتكفـل بمصاريـف عمليـة إجهاضهـا لأنـني سأسـافر خـارج البـلاد، ولـم يبـقَ سـوى بضعـة أسـابيع لأحصـل عـلى «فـيزا» للهجـرة. كمـا أنـني سـأدفع لهـا تعويضًـا عـن الخطـأ الـذي حصـل، والـذي شـاركتْ فيـه، شرط ألا يعـرف أحـد بالأمـر إلاّ نحـن الثلاثـة.

- أنـا أريـد خمسـين ألـف دولارًا كي أفعـل الـلازم، وأنـت تسـافر مـن دون أيّ إشـكالية.

- تطلبــين مبلغًــا كبــيرًا لا أملكــه. لا تنــسي أن ســارية مســؤولة أيضًــا، وليســت الضحيــة كمــا تصورينهــا!

دخلـت أمّ سـارية في عمليـة مسـاومة مـع إحسـان، وانتهـت بـأن دفـع لهـا خمسـة عـشر ألـف دولار. فأجـرت مـا أرادتـه لسـارية مـن إجهـاض وترميـم، وبقـي قسـمٌ مـن المبلـغ احتفظـت بـه «للطـوارئ» كمـا أخـبرت ابنتهـا.

صلاح في العاصمة

وصل إلى الشارع الخلفي صبيحة يوم بارد فلاّح يبحث عن «المعلّم سعيد» ليساعده على التوسّط لدى أصحاب القرار في أمر يهمّه. لم يجده هناك، فانتظر أمام المبنى الذي يستأجر سعيد فيه مكتبًا للعلاقات العامة، وهو يتأفّف من الهواء والبرد القارس على الرغم من أنه يلف شالًا من الصوف حول عنقه. وبعد دقائق وصل رجل آخر لرؤية «المعلّم» أيضًا، فأخبره الفلاّح أنه بانتظاره. وتعارف الإثنان، وراحا يتبادلان الحديث عن الطقس والوصول باكرًا إلى العاصمة تجنّبًا «لعجقة السير»، وكي يستطيعا إنجاز ما أتيا لأجله ثم العودة إلى قريتيهما.

بعد ساعةٍ من الانتظار، وصل المعلّم بسيارة «مرسيدس» سوداء قديمة، لكن طلاءها الحديث حوّلها إلى قطعة فنّية يرغب هواة السيارات القديمة في اقتنائها. وهو يرتدي بذلة كحلية وربطة عنق حمراء. إنه في الخمسين من عمره، ذو شعرٍ رمادي، ووجه مستطيل تغطي جزءًا صغيرًا منه نظارات سوداء تخبّئ وراءها عينين توحيان بالقسوة. سعيد متشبّث بالمكتب كالكثيرين في هذا الشارع، لأن إيجاره «قديم»، أي زهيد لدرجة أن صاحب المبنى لم يعد يأتي ليحصّل الإيجارات من المستأجرين، لأن كلّ ما يجمعه يساوي ثمن صفيحة من

البنزين. ففضّل ترك الوضع على حاله بانتظار أن يستعيد ملكه يومًا ما بواسطة قانون عادل تتخذه الحكومة.

ركن سعيد السيارة إلى جانب المبنى في مكان أحاطه بجنزيرٍ معدني، ووضع فيه قفلًا من الصعب كسره. فمواقف السيارات قليلة لأن الأبنية والطرقات تمّ إنشاؤها قبل تدفّق السيارات إلى البلد بكميات هائلة ما جعل الطرقات والمساحات الفارغة تضيق بها. ولما اتّجه سعيد نحو المدخل تقدّم منه الفلاّح يسأله إذا كان هو «المعلّم سعيد». فأجابه: ماذا تريد منه؟

- أريد منه حلّ مشكلتي لأن الشرطة أوقفتني عن بناء بيتٍ متواضع لابني حيث لا رخصة قانونية لديّ.

- أنا سعيد. فلندخل إلى المكتب.

- وأنا صلاح.

مدّ صلاح يده مصافحًا، وبات أديمها شبيهًا بقطعةٍ خشبية جراء العمل في الحقول. هذا ما يشعر به من يصافحه، بينما هو لا ينتبه لذلك، وحتى هذا الأمر بات لا يهمّه لأن عمله في الأرض والأشجار أعطى يديه الخيّرتين صلابة مقرونة بالعطاء والكَرَم.

- كيف تبني من دون رخصة يا أستاذ صلاح؟! بادره سعيد بعد أن دخلا المكتب.

- العقار مشترك يا سيدي، والوَرَثة كُثُر، ولا يمكن القيام ب«حصل إرث» (حصر إرث) لأن معظمهم في بلاد الاغتراب، ومات الوارثون الأصليّون، وعلينا البحث عن ورثتهم... تصوّر كم سيأخذ الموضوع

مـن وقـت، وكـم سـيكلّف مـن مـال! ربمـا أكـثر مـن ثمـن الأرض وكلفـة البنـاء.

- لنختـصر الموضـوع. إذا أردت أن تكمـل البنـاء، فالموضـوع يكلّفـك ثلاثـة آلاف دولار.

- نحن فقراء يا معلم س....

- لا تكمـل! فـلا داعـي لذلـك. ليسـت هـذه المـرّة الأولى الـتي أتدخّـل لحـلّ هكـذا مشـكلة. إذا كنـت لا تريـد الدفـع، فـلا تضيّـع وقـتي.

ومن دون أن ينتظر منه جوابًا تطلّع نحو الرجل الآخر وسأله:

- وأنت يا أستاذ؟

- أنا «أبو نجيب».

- كيف أخدمك؟

- لـديّ ولـد عمـره سـبع عـشرة سـنة، ويريـد أن يسـافر ككثيريـن بطريقـةٍ غـير شرعيـة إلى أوروبـا، فأخـبرني بعـض الأصحـاب بـأن آتي إلى هنـا لتسـهيل الموضـوع...

- أنـا لا أتعاطـى بالسـفر غـير الشرعـي، وبالسـفر بشـكلٍ عـام. في المبـنى الثـاني وفي الطابـق الأول فـوق دكّان «أبـو جهـاد»، يوجـد مكتـب لتأمـين خدمات السـفر. سـتجده بمجرد أن تقرأ «الآرمـة» الموضوعة فوق الباب.

ثم التفت إلى صلاح الذي ما زال ينتظر. وقال له:

- لقد أعطيتك جوابي على طلبك. ما بالك ما زلت هنا؟

- أرجـوك أن تسـمعني. إذا دفعـت ثلاثـة آلاف دولار، لـن أسـتطيع إكمـال بنـاء الغرفتـين و»منتفعاتهمـا». إحسـب نفسـك مـكاني في هكـذا حالـة. مـاذا كنـت تفعـل؟ أَتوقِـفُ إنجـاز البنـاء؟ أو...

- (مقاطعًـا). هـذه ليسـت مشـكلتي. ويأتيـني يوميًـا عـشرات النـاس بمشـاكلهم. فلـو كان عـليّ وضـع نفـسي مـكان كلّ فـرد، وتبـنّي قضيّتـه، لكنـت أفلسـت منـذ زمـن، وأقفلـت هـذا المكتـب.

- صمت صلاح بضع ثوانٍ ثم قال لسعيد:

- سـأغيب أسـبوعين لأتدبّـر المبلـغ، لكـن هـل أنـت متأكـد أنهـم سيسـمحون لي باسـتئناف البنـاء؟

- إن الـذي أرسـلك إليّ يعـرف بأنـني أسـتطيع تجـاوز هكـذا صعوبـات. لقد كنـتَ شـاهدًا عندمـا أخـبرتُ زميلـك بأنـني لا أتعاطـى في موضوع السـفر. فالمجـال الـذي أسـتطيعه لا أتأخّـر في القيـام بـه، ولا أخـسر أيّ قضيـة أعمـل فيهـا.

إنـصرف صـلاح، وشـعورٌ غامـض ممـزوج بالغبطـة والإحبـاط يمـلأ روحـه. إذ سيسـتطيع إكمـال البنـاء، لكـن مـا يقلقـه هـو كيـف يتدبّـر المبلـغ الـذي لا يملكـه؟ وعـاد بعـد أسـبوعين حامـلًا في جيبـه المـال المطلـوب، والـذي اسـتدانه مـن عـدّة أشـخاص لأن المـصرف لا يقـدّم لـه قرضًـا إلّا مقابـل رهـن أرضـه. فقسـمٌ مـن المـال سيرشي سـعيد بـه مَـنْ بيدهـم الحـلّ والربـط في الموضـوع، ويحتفـظ بالبـاقي كـ«بـدل خدمـات المكتـب». وبعـد أن نقـده المبلـغ، انطلـق عائـدًا إلى قريتـه كي يلحـق مـا تبقّـى مـن النهـار للعمـل في الحقـل. لكـن «البـاص» الـذي اسـتقلّه والمكتـظّ بالـركاب، توقّـف فجـأة أمـام جمهـورٍ مـن النـاس الذيـن أقفلـوا الطريـق العـام بحـرق

دواليب المطّاط. وعندما استفهم السائق من بعض المتجمهرين هناك، أخبروه أنهم يريدون بناء بيوت لهم من دون ترخيص وضرائب أو تطبيق لقانون التنظيم المدني. فهذا حقّ لهم، وعلى الحكومة مساعدتهم بدل عرقلة عملية بنائهم لبيوت جديدة.

كان صلاح يستمع إلى ما ينقله السائق للركّاب بصوت عال كي يطمئنهم بأنه سيستأنف السير بعد وقت قصير، ريثما تصل وسائل الإعلام وتأخذ صورًا للمحتجّين كي يتمّ الضغط على الحكومة لتنفيذ مطلبهم. جنّ جنون صلاح، وراح يلطم يدًا بيد، ويبدي ندمه على ما فعل هذا الصباح. فسأله من يجلس إلى جانبه مستفسرًا عن نوبة الغضب والندم هذه، فأخبره بأنه دفع للتوّ مبلغًا كبيرًا استدانه ليحصل على رخصة بناء غرفتين، وهؤلاء الناس سيحصلون على ذلك مجانًا لأن الحكومة تخضع دائمًا لمن يشتمها ويتحدّاها. فنصحه السائل بالعودة إلى العاصمة لاسترجاع المبلغ.

ترجّل صلاح من «الباص» وركب سيارة أجرة كان سائقها قد قرّر العودة إلى العاصمة بعد أن ضجر من الانتظار، وذهب مباشرةً إلى مكتب المعلّم سعيد، ورفض أن ينتظر ريثما يأتي دوره، بل دخل المكتب في حالة هستيريّة وهو يردّد:

- معلم سعيد، أرجع إليّ مالي! لقد استدنته مع فائدة عالية. اليوم الحكومة ستسمح للناس بالبناء من دون رخصة. أرجوك لا «تكسفني» لأن هذا المال دَيْن.

تطلّع إليه سعيد ببرودة أعصاب وأجابه:

- هدّئ من روعك يا رجل! المال الذي سلّمتني إيّاه أرسلتُه مباشرة إلى مَنْ يجب أن يذهب إليهم، ولا يمكن استرداد قرش واحد منه. ثم من قال لك إن الحكومة ستسمح لهؤلاء الرعاع بالبناء من دون رخصة؟

- أنا من يقول ذلك. نشاهد الأخبار ونرى كيف أن الحكومة تخضع لأيّ مطلب غير قانوني. إنها تخاف من الناس إذا تحرّكوا ضدّها حتى من دون وجه حقّ. ما همّني الناس! أريد أموالي. وإذا لم تسمح الحكومة بالبناء من دون رخصة، أعود إليك لتقوم أنت بالمعاملة كما اتفقنا سابقًا.

- قلت لك لا مجال لاسترجاع أيّ قرش. هل أنا طلبت منك كي تأتي إليّ؟ أجبني!

- ...

- أنت أتيت بملء إرادتك، وأخذت تساومني على المبلغ حيث قلت لك إنه مدروس وعادل لك ولمن سيقوم بتسوية وضعك. وهؤلاء راجعوني أكثر من مرّة يسألون عن المال ليبدأوا العمل. وعندما جلبتَ المال تمّ توزيعه، كما تعلم.

عرف صلاح أن معركته خاسرة، وأن الحظّ التعيس هو حليفه، وإلّا ما كان خُلق فلاّحًا ابن فلاّح يمضي السنة بأكملها يكدح في الحقول، وبالكاد يستطيع تأمين متطلّبات عائلته، بينما التجّار يشترون منه المواسم، ويربحون في اليوم التالي قدر ما جنى هو طوال العام.

إستسلم للواقع، وغادر مكتب المعلّم «سعيد» دامع العينين. وصادفه على مدخل المبنى شاب تأثّر بمنظره، فسأله عما به، وإذا كان بإمكانه مساعدته. روى صلاح قصّته باختصار وكيف أنه خسر مبلغًا من المال استدانه، بينما أمثاله مارسوا ضغطًا على الحكومة وسيبنون من دون رخص أو إثبات ملكية، ومن دون دفع أي رسوم. وأخذ يلوم نفسه لأنه «آدمي» في بلدٍ «فالت» ومسؤولوه من دون ضمير...

صلاح البسيط والكادح يدفع مبلغًا لسماسرة المعاملات فيأخذونه لجيوبهم، وسيبقى سنتين أو ثلاث يعمل تحت أشعة الشمس الحارقة ليفي هذا المبلغ، بينما استغلّ الناس الفرصة التي قدّمتها الحكومة، وراحوا يضيفون طابقًا أو إثنين على بيوتهم القديمة، أو يبنون على قطعة أرض صغيرة، وهم في سباقٍ مع المدّة الزمنيّة التي تمّ تحديدها. كما استغلّ البعض الطلب المرتفع على البنّائين، فادّعوا أنهم بنّاؤون، واستثمروا هذه الفرصة مقابل أجر مرتفع. ومن شاء بناءً ينجزه سريعًا في ظلّ تلك الفوضى، حتى ولو لم يتمتّع بشروط السلامة!

إلى الدانمرك

دخل «أبو نجيب» مكتب السفريات، وسأل عاملة الاستقبال عمن يجب أن يتكلّم معه حول موضوع السفر إلى أوروبا. فاستوضحته إذا كان يقصد السفر غير الشرعي، فأومأ برأسه: نعم، وهو يتطلّع حوله خشية أن يعرف أحد ما يخطّط له. قالت: إنتظر هنا حتى يخرج زبون دخل للتوّ إلى مكتب الأستاذ عاصي.

بعد دقائق من الانتظار، دخل «أبو نجيب» إلى ذاك المكتب العابق برائحة الدخان، فوجد شخصًا سمينًا يجلس خلف طاولة واسعة، وبالكاد يتّسع الكرسي لجسده الضخم. يحمل بيده اليسرى سيجارًا وقد اعتلاه الرماد حتى تخاله سيقع في أيّ لحظة، وتحتل طاولتَه أوراقٌ مبعثرة، وعلى بعضها فنجان قهوة فارغ رسم البن على جزئه الخارجي دربًا ملتويًا كالثعبان. وأمام الطاولة الكبيرة كرسيان قديمان تتوسّطهما طاولة دخان صغيرة، وقد تركت أكواب القهوة آثارها على سطحها. مدّ أبو نجيب يده مصافحًا ومعرفًا بنفسه، فمدّ «الأستاذ عاصي» يده من دون أن يقف، وأشار لزائره بالجلوس. ثم بادره: «تفضّل! ماذا تريد؟»

- لديّ ولد يريد الهجرة إلى أوروبا. إنه يأمل بفرصة عمل وحياة أفضل هناك.

- من أرشدك إليّ؟

- قالـوا أمامـي في الضيعـة أنـه يتوافـر مكتـب في هـذا الشـارع للمسـاعدة في السـفر، وأتيـت إلى مكتـب المعلّـم سـعيد أولًا، وهـو أرشـدني إليكـم.

- كم عمر ابنك؟

- سبعة عشر عامًا. لا. أقل من ذلك ببضعة أشهر.

- هـذا موضـوع معقّـد إذ لا يمكنـه السـفر مـن دون راشـد معـه، أنـت مثـلًا أو أمّـه.

- لا أنـا ولا أمّـه نسـتطيع ذلـك. إنـني أفكّـر بطريقـة لأسـتدين لـه أجـرة الطريـق، فكيـف لي أن أؤمّـن كلفـة سـفري معـه؟! ثـم أنـني لا أسـتطيع تحمّـل مغامـرة سـفر كالـتي نشـاهدها عـلى التلفـاز حيـث المـشي في الغابـات، وتسـلّق الباصـات، ثـم التخفّـي، والعيـش في الخيـم... لقـد أخـبرني ابـني أن شـابين مـن قريـةٍ مجـاورة يعرفهمـا قـد تمكّنـا مـن السـفر، وهمـا الآن في الدانمـرك.

- الموضـوع ليـس سـهلًا كمـا تظـنّ. هكـذا أمـور تحصـل، لكنهـا تكلّـف كثـيرًا؛ إذ هنـاك معامـلات كثـيرة، وبعضهـا غـير قانـوني لتسـهيل سـفر القـاصر. وكلّ مـا هـو غـير قانـوني يكلّـف أكـثر مـن القانـوني. هـل فهمـت مـا أحـاول شرحـه؟

- نعم. لكن كم هي تكلفة سفرته تقريبًا؟

- ألـف وخمسـمائة دولار أجـرة التنقـلات بالـبرّ وبالباخـرة، وألفـا دولار للذيـن يسـهّلون عمليـة تهريـب النـاس بشـكلٍ غـير شرعـي، وثمـاني مائـة دولار لمكتبنـا.

- سأبحث الأمر مع العائلة لنرى كيف سنتدبّر الأمر، وما إذا كان هكذا مشروع يستحقّ العناء. كيف لي أن أتصوّر ابني يواجه صعوبات التنقّلات وخطر الطريق، وفي النهاية سأخسره لأنه لن يعود، بل سيستقر هناك؟ ترى ألهذه الدرجة بات هؤلاء الشباب يكرهون بلدهم، أو أن بلدهم يكرههم ليجازفوا بحياتهم لأجل غربةٍ ووحدة موحشة ومؤلمة؟

- (المعلّم عاصي مقاطعًا) نحن هنا نتكلم لغة «البيزنس». دعك من العواطف الآن. سأخبرك بما يمكن أن يحصل في حال كان قراركم إيجابيًا.

- ما الذي سيحصل لو وافقنا وأمّنا له المبلغ؟

- سنساعدكم جميعًا لتسافروا إلى هناك.

- جميعنا؟! أنا أتكلم عن ولدٍ واحد، وليس عن الجميع.

- فهمت عليك. لكن إذا قرّرتم بأن يسافر ابنكم بواسطتنا، عندها نشرح لكم ما يمكن أن يفعله هو لأجلكم، ومن خلالنا، لأننا لا نتخلّى عن أيّ إنسان يصبح زبونًا عندنا.

- بارك الله فيكم! أشكركم على استقبالكم وتوضيحكم هذه الأمور. أراكم قريبًا إن شاء الله.

إنصرف أبو نجيب وهو «مشوّش» أكثر من اللحظة التي دخل بها المكتب. كم من الأرانب يخبّئ هذا الساحر في قبعته؟ وكيف سيساعدنا جميعًا؟ ولماذا؟ وعندما وصل المنزل أخبر زوجته بما سمعه من الأستاذ عاصي، واستطرد قبل أن تعلّق: سنجتمع مساءً وندرس الوضع، ثم نقرّر موضوع سفر زياد.

إجتمع الوالد بأولاده الذكور، وقام يسرد أمامهم ما حصل معه في العاصمة مع الأستاذ عاصي، وكيف أن الأخير ترك أمورًا غامضة حيّرته وهي موضوع اهتمامه بالعائلة ككلّ.

شجّع أبناؤه سفر أخيهم لأن هذا الرجل المجرَّب ما كان ليقودهم إلى أمرٍ سيء، بل ربما يكون «الفرج» على يديه! وعندما تداولوا في الكلفة، قرّر كلّ فردٍ أن يسهم بما يستطيع لتأمين المبلغ المطلوب. وعقّب أحدهم بأن السفر أصبح مصير جميع شباب البلد. وإذا لم نسافر نحن يومًا ما، فمن الأكيد أن أبناءنا سيفعلون ذلك. إن وجود زياد في الدانمرك هو بمثابة ضمانة لتسهيل سفر أيّ منا أو من أولادنا.

عاد أبو نجيب إلى العاصمة في اليوم التالي، وهو يحمل خمسمائة دولار عربونًا لكلفة السفر، مع جواز سفر زياد. وعندما دخل مكتب السفريات، استأنف الموضوع الذي بدأه أمس ووضع الجواز والمبلغ أمام الأستاذ عاصي. عدّ الأخير المبلغ وأردف: هذا قليل كعربون. توقّعت منك نصف المبلغ أو ثلثه على الأقل. إجلب لي ألف دولار، ويبقى ألفان وثمانمائة دولارًا تدفعها يوم سفر زياد. ثم دقّق في الجواز ليتأكّد بأنه غير مزوَّر، وتوجّه إلى أبو نجيب:

- هل لديك ما تسألني إيّاه؟

- نعم. أتذكّر عندما قلت لي بأن أفراد العائلة جميعهم سيستفيدون من سفر زياد. وأنا وعدت عائلتي بذلك، لكن ما هذه الاستفادة الغامضة؟

إنحنى الأستاذ عاصي باتّجاه أبو نجيب وكأنه سيخبره سرًا لا يريد أحدًا غيره أن يسمعه. وهذا ما جعل الأخير يشعر بأهميته لأن «الأستاذ» بات يثق به ليودعه معلومات خاصة:

- إصغِ إليّ جيدًا. سأشرح لك العملية خطوة خطوة، وأنت تتابعني وتنتبه إلى كلّ كلمةٍ كي لا تأتيني لاحقًا وتقول عن لساني كلامًا لم أقله!

- كلّني آذان صاغية. تفضّل!

- سنؤمّن السفر لزياد من هنا ليلًا. و...

- (مقاطعًا) ولماذا ليلًا؟

- إنه نشاط غير شرعي، ولا نقوم به أمام أعين الجميع.

- ألن يراه أحد في الليل؟!

- مَنْ يراه نكون قد «رتّبنا» الأمر معه.

- وبعد الليل؟

- سيصل إلى مرفأ في اليونان في الصباح الباكر، ونعطيه اسمَيْ شخصين يكونان بانتظاره هناك، ويرشدانه إلى كيفية التسلّل برًا إلى بلغاريا، ومنها إلى رومانيا، ثم هنغاريا وصولًا إلى النمسا. ومن هناك يدخل إلى ألمانيا ليصل بعدها إلى الدانمرك...

- (مقاطعًا) أفّ. أفّ! سيمرّ بكلّ هذه الدول ليصل إلى الدانمرك. يا ليته يختار دولة قريبة كاليونان ويبقى هناك!

إكتشف عاصي بسرعة محدودية ثقافة أبو نجيب وبساطته من خلال تعليقه، لكنه أكمل:

- اليونان بلدٌ فقير مثلنا وبالكاد تستطيع الاهتمام بمواطنيها، بينما الدانمرك دولة غنيّة وتهتمّ بالأجانب كما سأخبرك. فابنك سيمرّ

بعـدة محطـات، وكلّ واحـدةٍ منهـا لهـا كلفتهـا. أرأيـت بـأن المبلـغ الـذي طلبنـاه منـك ليـس كبـيرًا؟

- وبعد ذلك؟

- عندما يصل الدانمرك، يمزّق كلّ الأوراق الثبوتيّة التي بحوزته.

فتـح أبـو نجيـب عينيـه بشـكلٍ تعجّـبي، إذ لـم يحصـل أن أخـبره أحـد بهـذه المراحـل الخطـرة، وأظهـر اهتمامًـا أكـثر بالتفاصيـل الـتي يسردهـا «الأسـتاذ» الـذي تابـع:

- ثـم يسـلّم نفسـه إلى أقـرب مخفـرٍ للشرطـة، أو أيّ دوريّـة شرطة مـارّة في الطريـق. عندهـا يكـون قـد أنجـز خمسًـا وسـبعين في المائـة مـن مراحـل بقائـه هنـاك. أمـا الخمـس والعـشرون الباقيـة، فتتمثّـل بأنـه سـيمثل أمـام قـاض، ليخـبره بأنـه أتى إلى الدانمـرك طالبًـا للأمـان لأنـه تـمّ تهديـده بعـد أن تظاهـر وأمثالـه ضـد الحكومـة متّهمـين إيّاهـا بالفسـاد وبعـدم الاكـتراث لمصـير جيلهـم. وعندمـا ضربـه الشرطـي بالعصـا ليمنعـه مـن اجتيـاز الحاجـز الإسـمنتي حـول مقـر رئاسـة الـوزراء، انـتزع العصـا مـن الشرطـي وردّ الضربـة، وهـرب! ومـا زالـت الشرطـة تفاجـئ أهلـه بتفتيـش المـنزل ليـلًا كي تلقـي القبـض عليـه. كمـا يـشرح للقـاضي كيـف اسـتطاع الهـروب والوصـول إلى الدانمـرك، والمشـقّات الـتي تكبّدهـا، وبأنـه أنفـق مـا كان لديـه مـن مـال لمهـرّبي البـشر، ولا يملـك أيّ وثيقـة أو مـالًا ليتدبّـر أمـر معيشـته هنـاك! وهنـا يـأتي الجـزء المثـير الـذي لمّحـت لـك عنـه سـابقًا. عليـك أن تسـمعني جيـدًا.

- أنـا أصغـي بـكلّ جوارحـي لـكلّ كلمـةٍ تقولهـا. يبـدو لي أنـك إنسـان صادق، وذو خـبرة كبـيرة، وتتقـن مـا تفعـل. فلـو عشـت مائـة سـنة في القريـة لمـا سـمعت بهـذه الأمـور وكيـف يتـمّ «فبركتهـا».

- ألـم تسـمع يـا صاحـبي بالحكمـة القائلـة: «الغايـة تـبرّر الوسـيلة». هـذا المبـدأ الـذي نعمـل بموجبـه. ليـس وحدنـا، بـل كبـار القـوم يفعلـون ذلـك أيضًـا.

- لـم نـتربَّ في الضيعـة عـلى تلفيـق هـذه المقالـب. والأمـور عندنـا تحصـل بطريقـة واضحـة وسـهلة.

- دعنا من الضيعة. حياة الضيعة للبسطاء...

شعر أبو نجيب بالإهانة، فقاطعه:

- لسنا بسطاء، بل تربّينا على الصدق والمحبة...

- لـم أقصـد إهانتـك، ودعنـا لا نأخـذ الحديـث إلى مـكانٍ آخـر. أرجـوك تابعـني: مـن الأفضـل أن يكـون برفقـة ولـدك في هـذه اللحظـة محـامٍ في المحكمـة، وهـو الـذي يقـوم بأغلـب الأعمـال القانونيـة. لدينـا شـخص هنـاك يعـرف هـذا المحامـي الـذي أصلـه مـن بلادنـا، ويأخـذ بـدل أتعابـه لاحقًـا. سـيتكلّم بالنيابـة عـن ابنـك، ويطلـب إلى المحكمـة أن ترسـل زيـادًا إلى ملجـأ يضـمّ مهاجريـن أمثالـه دون السـنّ القانونيـة. لكـن دور المحامي لا ينتهـي هنـا، إذ عليـه التقـدّم بطلـبٍ باسـم موكّلـه -أي زيـاد- يطلـب فيـه أن يـأتي أحـد والديـه مـن البلـد ليعيـش معـه ويرعـاه كونـه قـاصرًا.

- لقد أخبرتك أنني لا أرغب في السفر ولا أمّه تستطيع ذلك. وإذا بنا ننتهي إلى أنه على أحدنا السفر إليه!

- أعطني فرصة لأوضح لك الصورة بما يسرّك. أنت أو أمّه لن تدفعا شيئًا. سيكون كلّ الأمر على عاتق الحكومة الدانمركية.

- هل أهل الدانمرك ملزمون بنا؟ إن حكومتنا لا تلتفت إلينا ولو متنا على باب المستشفى، فلماذا ستساعدنا تلك الدولة بكلّ هذه الأمور، بينما ابني يدخل إليها بطريقة غير شرعيّة؟!

- لا تكن ملَكيًّا أكثر من الملك! إن نظامهم الديمقراطي والإنساني -هكذا يصفون نظامهم- يقدّم الكثير لأجل أيّ إنسان، خصوصًا إذا كانت لديه مشكلة سياسية أو اقتصادية أو حتى عاهة ما. دعنا نستغلّ هذه الثغرة في نظامهم. إنهم أناس «معتّرون» يعيشون في «العالم المثالي»، وهذا يساعد الأجانب على انتهاز الفرص هناك.

- وماذا يحصل بعد ذلك من خلال خبرتك؟

- سؤال جيد يدّل على نباهتك يا أبو؟

- أبو نجيب.

- أحسنتَ! لكن أخبرني، هل لديك أولاد غيره؟

- نعم. عندي خمسة غيره.

- الله يبارك! هنا بيت القصيد.

راح أبو نجيب يهزّ رأسه وعينيه وحاجبيه كأنه أمام مشهدٍ في عالمٍ من الأوهام، لكنه يستطيع أن يشعر بأنه يعيش فيه. بينما الأستاذ

عـاصي الـذي توقّـف عـن الـكلام أخـذ يحـدّق بـه، دارسًـا شـخصيّته البريئـة الـتي سـتخضع للإغـراءات الـتي يشرحهـا. ثـم تابـع:

- إذا ذهبــت أنــت أو أمّــه أو كلاكمــا، يعطونكمــا حــقّ الإقامــة لأنكمــا تعتنيــان بقــاصر، ويقدّمــون لكمــا شــقّة تســكنان فيهــا مجانًــا، كمــا يؤمّنــون لكمــا الطبابـة مجانًـا، ولا يعـود أحدكـم -لا سـمح الله- يمـوت عــلى بــاب مستشــفى. ثــم...

- ثم ماذا؟! هل هناك أكثر؟

- نعـم يـا أخـي. إسـتمع إليّ. بعـد الإقامـة لفـترةٍ زمنّيـة معيّنـة، تحصلـون جميعًـا عـلى الجنسـيّة الدانمركيـة. وعندهـا يحـقّ لكمـا أنـت وزوجتـك كأسرة أن تطلبـا بـاقي الأولاد بحجّـة «لَـمّ شـمل العائلـة».

- وما هذا «لمّ الشمل»؟

- أي أنّ لكمـا الحـقّ الطبيعـي بـأن تجلبـا أولادكمـا للعيـش معًـا كعائلـة واحـدة في ذاك البلـد. هـذا مبـدأ في قوانينهـم يجـب أن تسـتغلّه كمـا يفعـل كلّ النـاس مـن العالـم الثالـث الذيـن يسـافرون إلى أوروبـا.

- العالم الثالث؟!

- هـذا تعبـيرٌ سـياسي يصنّـف بـه المفكّـرون بلـدان العالـم مثلنـا، ومـا يشـبهنا، بأننـا لسـنا مـن العالـم الأول المتطـوّر، ولا الثـاني، بـل الثالـث.

- هل هناك عالم رابع أو خامس؟

- ليس هناك بحسب معرفتي. لماذا؟

- لأقول إننا نعيش فيه.

ضحك الأستاذ بصوتٍ عالٍ وبتصنّع أكثر منه بعفوية، واستطرد:

- صح، صح! فمن تكون لديه فرصة ليعيش في العالم المتمدّن، يبقى هنا؟! عندما تقرّر أن تنضمّ إلى زياد، لن تجد أفضل منّا ليساعدك. ستصبحون وأولادكم زبائننا من الآن وصاعدًا لأننا نحرص على تقديم كلّ مساعدة قانونيّة أو غيرها تتعلّق بالهجرة. الآن إذهب إلى بلدتك واجلب الألف دولار بسرعة كي أبدأ بترتيب سفرة زياد. ثم تدفع المبلغ المتبقي بعد عشرة أيام عندما تجلب ابنك إلى هنا لينضمّ إلى المجموعة التي ستغادر في ذاك اليوم.

وعد أبو نجيب المعلّم عاصي بالعودة إليه «قريبًا إنشاءالله» بعد أن يتدبر المبلغ.

المتصوّف...

في ليلـةٍ بـاردة وممطـرة وهادئـة -بعكـس تلـك الـتي سـبقتها حيـث كانـت الريـح تعصـف في الخـارج وكأنهـا صفّـارة تطلـق صوتًـا نشـازًا، فتهـتزّ بشـكلٍ عنيـف إحـدى الصفائـح المعدنيّـة الـتي تغطّي سـقف الـدرج المتهالـك- كان أمـين يجالـس كتبـه في الـ«روف» المسـتحدث عـلى سـطح البنايـة الأخـيرة للجهـة الشـمالية مـن الشـارع الخلفـي، فوقـع اختيـاره عـلى قصّـةٍ تتمحـور أحداثهـا حـول مجموعـة أصدقـاء عايشـهم الكاتـب، لكنهـم فاجـأوه بالطريقـة الـتي تعاملـوا بهـا معـه بعـد أن تـرك عملـه.

يـسرد الكاتـب تفاصيـل مهمّـة حـول مـا تختزنـه نفـوس البعـض مـن الطعـن والتنكّـر للجميـل، والتأثـر بالمظاهـر، وكيـف تطغـى الأنانيـة والنرجسـية عـلى الانفتـاح والمـودة، وإذا بالإنسـان حربـاء تغـيّر لـون جلدهـا بحسـب مصلحتهـا. ويقـدّم أمثلـة عـن حـالاتٍ عديـدة حصلـت لـه، وصُـدم بهـا لأنـه لـم يتوقعّهـا، لكنهـا حدثـت مـن قِبـل مَـنْ اعتبرهـم أصدقـاء. فقـد عمـل مـا بوسـعه، واسـتثمر علاقاتـه بمؤسّسـةٍ دوليـة تشـترك مـع المؤسّسـة الـتي ترأّسـها في تنفيـذ مـشروعٍ كبـير، لأجـل تعيـين زميلـةٍ لـه في وظيفـة مهمّـة. وبعـد مغادرتـه موقعـه، راحـت تطعـن بـه وبقدراتـه الإداريـة، بينمـا هـو لـم يخبرهـا بـأن تعيينهـا لـم يكـن اسـتنادًا إلى كفاءاتهـا، والـتي ظهـرت جليًـا في فشـل المـشروع الـذي صُرفـت عليـه أمـوال طائلـة، بـل إلى تدخّلـه الشـخصي مـع المسـؤول الأعـلى عـن المـشروع في الخـارج. كمـا أن

أحـد أصدقـاء الكاتـب راح يتهجّـم عـلى إنتاجـه الفكـري مـن دون أيّ حجّـة علميـة، ويكيـل النقـد ضـدّه في كلّ مناسـبة. صدمـه هـذا الموقـف الـذي أتى مـن شـخصٍ طالمـا اعتـبره عزيـزًا ومتميـزًا، ولـم يتناولـه إلّا بالثنـاء والتقديـر! هكـذا أمـور غـيّرت نظرتـه إلى الصداقـة بشـكٍل جـذريّ، وبالتـالي إلى علاقاتـه الاجتماعيـة ككلّ.

يتابـع الكاتـب سرده لمواقـف أخـرى وتحليلـه لهـا، ويصـوّر ازدواجيـة الشـخصية لـدى بعـض النـاس حيـث يخفـون حقيقـة دواخلهـم ويتظاهـرون بعكسـها. وفي الجـزء الثـاني مـن القصّـة، يصـف عزلتـه مـع الطبيعـة ومكوّناتهـا الوفيّـة، لا بـل المعطـاءة مـن دون مقابـل. فتمضيـة وقتـه بـين الأشـجار والوديـان جعلـه يشـعر بالارتيـاح والفـرح، وينـدم عـلى الزمـن الطويـل الـذي قضـاه مـع النـاس والأصحـاب الذيـن قابلـوا تواضعـه بالتعـالي، ومحبتـه بالكراهيـة. وفي إحـدى المـرّات كان جالسًـا عـلى صخـرةٍ قـرب جـدول مـاء، فسـمع عـواء ذئـبٍ في الـوادي. لـم يخـشَ الموقـف كالعـادة، بـل ردّد قـول أحـد الشـعراء الفلاسـفة: «عـوى الذئـب، فاستأنسـت بالذئـب إذ عـوى وصـوّت إنسـان فكـدت أطـيرُ».

توقّـف أمـين عـن متابعـة القـراءة فجـأة عنـد سـماعه إحـدى «اللمبـات» الكهربائيـة تصـدر صوتًـا بشـكلٍ منتظـم: تِـكْ... تِـكْ... ترافقـه غصّـة في الضـوء، مـا أوحـى لـه بأنهـا باتـت عـلى شـفير النهايـة. جهّـز نفسـه للذهاب إلى الـدكّان لجلْـبِ بديـل منهـا، لكنـه توقّـف قبيـل فتحـه البـاب متسـائلًا عـن سـبب انزعاجـه مـن الصـوت الـذي تصـدره! وهـل هنـاك صـوت آخـر في «صومعتـه» في هـذه المدينـة؟! بالأمـس آنسته العاصفـة المفاجئـة الـتي كادت أن تقتلـع مـا يحيـط بغرفتـه مـن صفائـح وأخشـاب متهالكـة، والآن

صوت هذه «اللمبة» الوحيد الذي يكسر روتين أمسيته المملّة. فخلع المعطف الذي وضعه على جسده، وعاد يجلس خلف طاولته القديمة، والمصنوعة من خشبٍ اعوجَّ معظمه بفعل الزمان حيث من الصعب أن تستوي عليه كأس ماء، يستمع إلى ذاك اللحن الشاذّ لكن المتناسق، وهو يتابع تصفح تلك القصّة المليئة بالمفاجآت والتحليل والآراء. لكن النعاس داهمه، فانتقل إلى مقعدٍ خلف كرسيه ليستفيق صباحًا، ويجد كلّ شيء كما كان مساء، وبأن الضوء ما زال مشعًا باستثناء ذاك الصادر من تلك «اللمبة» التي كانت تنازع طوال الليل.

لقد انطفأ ذلك الضوء في غفلةٍ عنه، ما دفعه إلى طرح أسئلةٍ بسيطة ومعقّدة على نفسه، وهو ما زال مستلقيًا بشكلٍ غير مريح. إذ لا أحد يوقظه لينام في سريره عندما يداهمه النعاس لأنه يعيش وحيدًا، كما جلال وسليم وأسامة وآخرون في هذا الشارع. فالحرب الأهلية قد أثّرت في قناعات جيلهم نظرًا لما جلبته من ويلاتٍ وقذارة، كما أن انعكاساتها ما زالت تتفاعل في مناحي حياة المواطن منذ أربعين عامًا. لقد أوجدت شرخًا ما في حياة كلّ فرد، وشرخًا مشابهًا بين مكوّنات المجتمع. وعلى الرغم من حصول مصالحة وطنية، لكن الجميع يعتبرونها شكلية، وقامت على الكلام المعسول والتكاذب أكثر من صدق النيات وصفاء القلوب. فبمجرد انتقادٍ بسيط لزعيم، أو تعليق تنقصه اللياقة، ينفجر وضع البلد الأمني وكأن الوطن وُجد لخدمة هؤلاء الأفراد المنتقِدين أو المنتقَدين، بينما المواطنون وجدوا للتظاهر والقتال من أجل الزعيم. وفي هذا الجوّ الذي يخلو من الثقة بالمستقبل، تجنّب كثيرون الارتباط والزواج خوفًا على مصير أولادهم (الذين كانوا سيولدون)، لأن قناعتهم بأن حربًا أهلية أخرى ستقع، وسيكون أولادهم وقودًا لها. وليس في

الأمـر مبالغـة لأن الحـرب الـتي حدثـت قضـت عـلى إخـوة وأحبّـاء وأصدقـاء كُـثُر، وهدمـت العمـران عـلى رؤوس سـكانه...

طـرح أمـين عـلى نفسـه أسـئلة محزنـة ومضحكـة حـول «مـوت اللمبـة»، وحياتهـا، وكيـف تتغـيّر الأمـور في لحظـةٍ واحـدة بـين شيءٍ يبعـث النـور، ثـم يتحـوّل إلى شيءٍ آخـر مظلـم لا قيمـة لـه. وأضـاف: تُـرى مـا الفـرق بـين النـور والظـلام باسـتثناء مـا نعرفـه نحـن البـشر مـن حيـث نـثر شـعاع يسـاعدنا عـلى الرؤيـة، مقابـل إسـدال سـتارة سـوداء قاتمـة تنعـدم معهـا القـدرة عـلى التميـيز بـين الأشـكال والألـوان وسـائر عنـاصر الطبيعـة؟

مـا الفـرق بـين إنسـانٍ يـأكل ويـشرب ويتكلّـم وينـام، وآخـر سـاكن لا يتحـرّك، ولا يتنفّـس، ولا يـأكل، ولا يتكلّـم؟

إنسـان تناديـه باسـمه، وإذا مـات بعـد لحظـات، يُنـتزع منـه الاسـم ويسـتبدل بـ«جثّـة» أو «جثمـان»، بحيـث يقـول النـاس جلبنـا الجثّـة مـن المستشـفى، أو مـتى دفـن الجثّـة؟

أين اسمه؟

ما سيضرّهم إذا بقوا يتكلمون عنه بِاسمه وليس «جثّة»؟

وهل كلمة «جثّة» تتضمّن إهانة لإنسانيته؟

هـذه الأفـكار ليسـت فـوارق بمقـدار مـا هـي «متضـادات». إنـه المـوت والحيـاة، أو الحيـاة والمـوت، بانعـدام أي شيءٍ مشـترك بينهمـا باسـتثناء جسـم الإنسـان الـذي تحـوّل مـن حركـة إلى همـود، ومـن حيـاة إلى لاحيـاة بسـبب خسـارته الـروح الـتي كـثرت التفسـيرات والتأويـلات حـول مصيرهـا بمجـرد مغادرتهـا الجسـد. وهـذه النقطـة الـتي أثارهـا في تفكـيره فتحـت بابًـا آخـر لتسـاؤلاته:

هـل بعـض الأديـان هـي المُصيبـة في شـأن انتقـال الـروح إلى خالقهـا، ليحاسـبها عـلى مـا أخطـأت ومـا أصابـت خـلال وجودهـا في ذلـك الهيـكل المكـوّن مـن عظـم ولحـم وسـوائل؟

أم إنّ هـذه الـروح تنتقـل مـن جسـدٍ نمـا واكتمـل لفـترةٍ زمنيّـة معيّنـة، لتحـلّ في جسـدٍ آخـر سـيخرج للنـور بعـد قليـل؟!

وماذا بعد هذه الرحلة؟!

هـل سـتنتقل الـروح إلى جسـدٍ آخـر أيضًـا عنـد مـوت الجسـد الثـاني الـذي هـي فيـه الآن؟

وهل ستلاقي الخالق للحساب، أم لا؟

وإذا كان الجسـد الـذي احتواهـا قـد ارتكـب الخطيئـة، فمـن يتحمّـل مسـؤوليّة ذلـك: الجسـد أم الـروح الـتي سـتغادره؟

إذا كان الجسـد هـو المسـؤول، فهـل يكـون تحلّلـه وتعفّنـه وتحوّلـه إلى طعـامٍ للـدود هـو الجـزاء؟ لنفـترض الأمـر كذلـك، فلمـاذا يحصـل الـشيء ذاتـه لأجسـاد الأنقيـاء والأتقيـاء الصالحـين؟

وما كان دور الروح في رحلة الفعل الجيّد والسيء، ومتى تتمّ محاسبتها؟

فكيف يتحوّل شيء ما من جوهره وكينونته إلى عكسه؟

أو أن الموت يعني العدم؟

قادتـه هـذه الأفـكار إلى اسـترجاع الحديـث الـذي دار بينـه وبـين صديـقٍ انتحـر منـذ سـنوات. لـم يسـتطع أمـين فهـم مـا أقـدم عليـه صديقـه عصـام، ودوافـع بلـوغ هـذه المرحلـة المأسـاوية يومهـا. ذاك الشـاب الهـادئ ذو الملامـح الوديعـة، والبسـمة الحزينـة في المواقـف المضحكـة،

كان يخبّئ في داخله شخصية الرافض لكن المنهزم، فلم يتحمّل هذا العبء، وحلّ مشكلته بطريقة غير متوقعة. لكن أمين تذكّر الحوار معه عندما زاره في «الروف»، وجلس وإياه في الخارج يتمتّعان بدفء يوم ربيعي، يحتسيان القهوة ويدخّنان السجائر. بدا عصام متوتّرًا ذاك اليوم، والحزن المهيّمن عليه منذ وصوله جعل أمين يلحّ عليه بأسئلةٍ تستنبش دواخله ليكتشف بأنه يعاني من مشكلةٍ صعبة، خصوصًا عندما بدأ الكلام حول تفاهة الحياة وعظمة الانتحار كوسيلةٍ لقهرها وقهر مشاكلها بواسطة التخلّص منها... وتذكّر أمين النصيحة التي أسداها له: مهما كانت آلام الحياة وأوجاعها، فهي تبقى أفضل من الموت. الموت هو العدم، هو الدمار والتلاشي، هو الانسحاق بكلّ أبعاده ومعانيه... فكيف لك أن تفكّر بالانتقال إلى هذه الحالة؟ آمل ألّا تكون جادًا في أفكارك حول «عظمة» الانتحار لأنه ليس عظيمًا، وليس حلًا لأي مشكلة تعاني منها.

وبما أن عصام قد رحل، ازداد أمين تساؤلًا: ماذا لو لم أتركه وحيدًا في تلك الفترة؟ ربما كنت أقنعته بالعدول عما فعل... وكثرت عبارة «ماذا لو» حتى شعر بأنه يجلد نفسه محمّلًا إيّاها جزءًا من «جريمة» صديقه.

إن تساؤلاته حول الموت وتذكّر انتحار عصام، كان سببها ذلك الضوءُ الذي احتضر خلال غفوته، وهذا نموذج سلوكي لدى أمين. فهو يطرح موضوعًا بسيطًا يعيشه أيّ إنسان، ويستطرد بعد ذلك لسبر أغوار هذا الموضوع من خلال «تساؤلاته السقراطية»، وما يجود به فكره من إجابات. وطالما اعتمد هذه الطريقة مع طلابه. إذ هو يؤمن بأن لدى كلّ إنسانٍ طاقة فكرية يمكن تنميتها وشحذها متى توافرت الظروف لذلك.

مقابـل مقارباتــه الفلســفية لأمــور الحيــاة، عــرف مــن قبــل أصدقائــه باللامبـالاة أحيانًـا، متغافـلًا عـن حقـوقٍ لـه لعـدم اقتناعـه بـأن الحـق يُعطـى لصاحبـه في مجتمـع الشـارع الخلفـي. فقـد اكتفـى بعـد حصولـه عـلى شـهادة الدكتـوراه بتدريـس مقـرَّر في هـذه الجامعـة، وآخـر في تلـك، بينمـا زمـلاء لـه توسّـلوا سياسـيين نافذيـن، وحصلـوا عـلى تفـرّغ في الجامعة. بقـي وضعـه المـادي غـير مريـح، واكتفـى بالعيـش كمتصـوّف في المدينـة، لا يبـالي بكثـيرٍ ممـا يركّـز عليـه الآخـرون، ولا يعطـي أهميـة لأمـور يعتبرهـا البعـض جوهريـة في حياتهـم. كذلـك تعـرّض عـدة مـرّات للسرقـة الفكريـة، ومـع هـذا لـم يتقـدّم بدعـوى ضـد الذيـن فعلـوا ذلـك. وبعـد إلحـاح أحـد أصدقائـه بـألّا يتنـازل عـن هـذه الحقـوق لأنـه يشـجّع بذلـك آخريـن عـلى سرقـة أعمـال غيرهـم، سـأل محدثـه: هـل شـاهدت فيلـم «The Words»؟[٢] فأجابـه صديقـه بالنفـي، مسـتطردًا:

- ما علاقة ما أطرحه عليك بفيلمٍ سينمائي؟
- كلّ العلاقة ستجدها في موضوع الفيلم.
- أخبرني ما لديك، واترك لي مجالًا لأتابع مناقشتك.

قـال أمـين: يجسّـد الفيلـم قصّـة كتـاب ألّفـه أحدهـم وتركـه في منزلـه في أمـيركا عندمـا اضطـر أن يذهـب فجـأة إلى «باريـس»، ثـم طلـب مـن زوجتـه أن تنضـمّ إليـه لأنـه قـد يبقـى هنـاك لمـدةٍ طويلـة. وكانـت الزوجـة قـد اطلعـت عـلى الكتـاب صدفـة، وأعجبـت بـه لأنـه يتضمـن قصصًـا عـن حياتهمـا. فوضعتـه في محفظـة جلديـة سـوداء، واصطحبتـه معهـا. لكـن

٢- ترجمة التعبير: الكلمات

بعـد أن ترجّلـت مـن القطـار الـذي نقلهـا مـن المرفـأ إلى «باريـس»، نسيت «الشـنطة» الصغـيرة عندمـا أنزلـت حقائـب ثيابهـا. وهكـذا ضـاع الكتـاب.

- لم أفهم بعد ما تريد قوله؟

- إنـني أختـصر لـك أحـداث فيلـم في بضـع دقائـق. كـن صبـورًا عـلى الأقـل!

تابـع أمـين: وبعـد حـوالي أربعـين سـنة دخـل هـذا الرجـل الـذي أصبـح عجـوزًا مكتبـة تبيـع الكتـب، فوجـد إعلانًـا ترويجيًـا لكتـاب بعنـوان: «دمـوع النوافـذ». راح يتصفّحـه، واكتشـف أن «الكلمـات» الـتي يقرؤهـا هـي مـا كتبـه يومًـا. إشـترى الكتـاب، وأعـاد قرأتـه كلمـة كلمـة ليسـتنتج أن أحدهـم قـد وجـد مخطوطتـه المفقـودة، والـتي كان قـد طبعهـا بواسـطة «الدكتيلـو»، وحوّلهـا «هـذا الآخـر» إلى كتـاب، الكتـاب الـذي بـين يديـه. لكـن الكاتـب الحقيقـي لـم يكتـب غـير ذاك العمـل الفريـد، لأنـه فقـد كلّ رغبـة في الكتابـة عنـد ضيـاع مخطوطتـه. وبعـد بضعـة أسـابيع قـرأ خـبرًا في إحـدى صحـف المدينـة بـأن «المؤلّـف المدّعـي» سيتمّ منحـه جائـزة عـلى هـذا المنتـج الأدبي الرائـع.

حـضر الكاتـب الأصـلي الاحتفـال بثيابـه المتواضعـة، يحمـل عـكازًا، ويمـشي منحـني الظهـر، بينمـا يتناثـر شـعر لحيتـه البيضـاء بشـكلٍ عشـوائي يجعـل مَـنْ يـراه يشـفق عـلى حالتـه. لقـد اكتفـى بمراقبـة مـا يحـدث، ثـم غـادر بعـد أن عـرف مـكان إقامـة «السـارق» وعملـه، فتعقّبـه مـرّة، وتعمّـد الجلـوس إلى جانبـه في حديقـة عامـة، وبـاشر محادثتـه، ثـم سـحب مـن جيبـه النسـخة الـتي كان قـد اشـتراها، وطلـب إليـه توقيعـه. حصـل ذلـك، واسـتمرت المحادثـة بينهمـا إلى أن أخـبره العجـوز بحقيقـة كتابـه. صعـق

السارق، وراح يعتذر، وأراد تعويضه عن الكتاب الذي جنى بواسطته ثروة، لكن ذاك العجوز رفض قبول أيّ مبلغ منه، وقال له: «بالرغم من فقري الآن، فلا أريد أموالك المسروقة. إذهب واستمتع بمجدٍ مزيّف لأنك قد نشأت على ذلك، وتباهَ بما فعلته. فأناسك يقدّرونك حتى ولو كنت سارقًا لأفكار غيرك». وطمأنه بأنه لن يخبر أحدًا بالحقيقة.

- ما حصل بعد ذلك؟

- ندم السارق على ما فعل، واعتقد بأن الإفصاح عن حقيقة الأمر سيعتقه من ذنبه. فقرّر الاعتراف لزوجته أولًا، والتي كانت قد شجّعته على نشر الكتاب، ثم للناشر الذي أصرّ عليه بالتكتم على الموضوع لأن ضررًا ماديًا عظيمًا سيطوله أيضًا من هذا التصرّف...

- لكن «أصحابك» يتباهون بالأعمال التي سرقوها منك أو اقتبسوها عنك، وأنت لم تقل لهم شيئًا!

- هناك آخرون قرأوا هذه الأعمال المزوّرة وعرفوا الحقيقة، وباحوا بها، إذ إن صديقة لي أخبرتني عمن أخذ دراستي ونسخها مغيّرًا فيها العيّنة، حتى أنه لم يذكر عنوان دراستي ضمن مراجعه، وحصل على شهادة دكتوراه؛ وأخبرني صحافي يغطي الأنشطة الثقافية بأنه قرأ كتابًا لأستاذٍ جامعي، فوجده مقلّدًا لكتابي الذي اطلع عليه قبل سنةٍ من صدور كتاب ذاك الأستاذ؛ وجلبت طالبة دراسات عليا صورة لبحثٍ آخر لي، وقد نسخه زميل لها، وعدّل المقدّمة. وبوقاحةٍ وزّع نسخًا من «بحثه» المسروق على من يدرسون مقرَّرًا يتناول موضوع بحثي، ومن ضمنهم تلك الطالبة التي كانت قد استعانت بنسختي في كتابة «Term paper».

- ومع هذا لا تريد أن تدّعي عليهم، أو تعلن للملأ أن هؤلاء لصوص فكر ؟

- لا، لأن العدالة مفقودة في هذا البلد، وقد يحوّلك القضاء إلى معتدٍ على سمعة هؤلاء وكفاءاتهم، تمامًا كقصّة الذئب والحمل، لكن سأكتفي بترداد ما قاله كاتب «دموع النوافذ» الحقيقي لمن ادّعى أنه المؤلّف.

ما لم يكن في الحسبان أن يتعرّض أمين لحادثٍ ينقله من تفكيره الفلسفي إلى مجالٍ يخجل منه وبه. فالحادث ليس مروريًا، وليس مخالفة القانون، بل تحدي أحد «الزقاقيين» له عند خروجه من المبنى. فالزقاقيون في الشارع الخلفي هم فئة فقدت الكثير من أخلاقها وحسّها الاجتماعي بغض النظر عن الموقع الوظيفي الذي يشغله أيّ فرد منها، ولا تتردّد في التعدّي كلاميًا أو فعليًا على آخرين، ضاربة بعرض الحائط موقع هؤلاء وسنّهم وكراماتهم. وتقرّبَ هذا الزقاقي من إحدى الشخصيّات لتقدّم له الدعم حتى عند اعتدائه على حقوق الآخرين، وتحيطه بنفوذها المستمدّ من موقعها في الدولة.

يستضعف الزقاقيون قوّة القانون لأن هناك من يحميهم منه، ويتحوّلون إلى «شبّيحة» حتى على جيرانهم، متنكّرين لحرمة الجيرة، ومستخدمين عبارات بذيئة يختزنها قاموسهم الاجتماعي حيث هناك من يثمّن قذاراتهم. فالشبّيح «بطل» عندما يتعاطى مع أناسٍ مثقّفين يخجلون حتى من رفع صوتهم في أثناء الحديث، فكيف إذا أراد توريطهم في شجارٍ معه؟ والناس تتجنّبه لا خوفًا منه بقدر الابتعاد عن مجادلته، والهبوط إلى مستواه.

قـرّر أمـين الانتقـام مـن ذلـك الزقـاقي مهمـا كلّفـه الأمـر، وبعـد أن هيّـأ متطلّبـات مـا هـو مقـدِم عليـه، أخـذ يحـاور ذاتـه -كمـا يفعـل غالبًـا في أيّ موقـف صعـب يواجهـه- بطـرح فكـرةٍ مـا، ثـم عكسـها، ليرجّـح واحـدة عـلى أخـرى. ووصـل أخـيرًا إلى إقنـاع نفسـه: «لا. لـن تنتقـم منـه حـتى ولـو تحـدّاك أمـام النـاس. مـا سـيميّزك عنـه إذا قمـت بعمـل يشـبه عملـه أو يشـبهه هـو، حـتى ولـو كان هـو المفـتري؟ دعـه سـعيدًا في فقدانـه الكياسـة واللياقـة ظانًـا نفسـه بأنـه يسـجّل نقـاط تفـوّق عـلى الآخريـن، لكنـه لا يعـرف بـأن النـاس يصنّفونـه في خانـة «الزعـران»، ولا يصارحونـه بذلـك. وكذلـك يصنِّفـون تلـك الشـخصيةَ الـتي تدعمـه».

فموقـف أمـين وأمثالـه لـم يبعـث رسـالة إلى الزقاقيـين حـول نظـرة النـاس إليهـم، بـل زادهـم اقتناعًـا أن النـاس تهابهـم، واسـتمروا في ممارسـاتهم الحقـيرة مـا جعـل الشـارع يضجّ بسـوء أخلاقهـم وتصرفاتهـم. وهـذا مـا دفـع بعـض سـاكنيه للانتقـال إلى أماكـن تخلـو مـن وجـود هـذه الفئـة الـتي تعيـش في غربـة شرسـة عـن كلّ مـا يرتبـط بأخلاقيـات الإنسـان الاجتماعـي ومُثُلـه.

جلال المُحبَط

مـرّت أشـهرٌ وجـلال يمـضي وقتـه بـين منزلـه، والبحـث عـن عمـل، ومجالسـة بعـض الأصدقـاء في المقهـى الـذي يبعـد مئـات الأمتـار عـن سـكنه. وفي صبيحـة يـوم، يـرنّ هاتفـه، وإذا بصديقـه عامـر يطلـب إليـه ملاقاتـه لموضـوعٍ لا يمكـن البـتّ بـه عـلى «التلفـون». إلتقيـا، وأخـبره عامـر بـأن فرصـة العمـر بانتظـاره. سـيطلق رجـل أعمـال صحيفـة، ويبحـث الآن عـن مجموعـة مـن الذيـن لديهـم خـبرة في هـذا الحقـل. ومـا إن سـمع عامـر ذلـك ممـن يعمـل لـدى هـذا الرجـل، حـتى أخـبره بـأن صديقًـا لـه يتمتّـع بقـدرات عاليـة وخـبرة في هـذا الحقـل، وهـو كاتـب مهـمّ في الوقـت نفسـه. فقاطعـه جـلال:

- لمـاذا لـم تقـل لـه: «كاتـب جـريء» بـدلًا مـن «مهـمّ»؟ فهـذا مـا اعتـدت أن تصفـني بـه أمـام الآخريـن.

- خفـت أن ينفـر مـن تعبـير «جـريء». فاخـترت كلمـة «مهـمّ» الـتي تجعلـك أقـرب إلى مواصفـات مـن يبحـث عنهـم.

- مـا يعـني بـأن رجـل الأعمـال هـذا لا يختلـف عـن أولئـك الذيـن كنـت أكتـب عنهـم؟

- ربمـا. أنـا لا أعرفـه، لذلـك لـن أصـدر حكمًـا عـلى شـخصيّته. لكـن لا تأخـذ مواقـف مسـبقة بالنسـبة إلى هـذا الموضـوع. إنهـا فرصـة مهمّـة

قد ينتظرها صحافيّ سنوات ولا تأتي له! أرجو ألّا تضيّعها... لأجلك أنت.

- كنت أبحث عن عملٍ خارج إطار تأثير رجال الأعمال، لكن لم أوفّق في ذلك. سأفكّر بالأمر وأخبرك اليوم بما سأقرّره.

إنتهى لقاؤهما، وعاد جلال إلى مسكنه ليجلس خلف طاولته يتحرّش بأوراقه المتناثرة عليها بشكلٍ عشوائي. راح يراجع بعض ما كتبه من قصائد غزليّة لامرأة أعجب بها، ولم يدعها تعرف ذلك. ووضع لها عنوانًا «حبٌّ مبتور»، لكنه لم ينشرها في كتاب. أما تركيزه فبقي على العرض الذي جلبه له صديقه.

إتصّل بعامر كما وعد، وطلب إليه أن يخبر «من يهمّه الأمر» بأنه يقبل العرض. كان منطقيًا مع نفسه. فهو بحاجة إلى عملٍ يوفّر له متطلّباته اليوميّة على الرغم من عدم تبذيره، لكن حاجات الحياة لا بدّ من تأمينها، وهي تزداد بشكلٍ متواتر مع الوقت. وفي اليوم التالي تلقّى اتصالًا من المسؤول عن الصحيفة، والذي دعاه إلى اجتماعٍ في مكتبه حيث اتفقا أن يبدأ جلال العمل بعد أسبوعين. وهذا ما حصل.

مضت عدة أشهر، وجلال يقوم بعمله بشكلٍ جيد في الصحيفة معالجًا مواضيع مختلفة ترتبط بمجالات الاقتصاد، ويتطرّق من حينٍ إلى آخر إلى ظاهرة الهدر والرشوة المتفشية في الدوائر الحكومية. وأورد قصة الفلاّح صلاح، وكيف التقاه يخرج من مكتبٍ سلبه مالًا استدانه، وكانت دموعه التي حبسها بين جفنين متعبين من هموم الحياة تصرخ ضدّ هذا الظلم السائد في البلد، وحتى بين الناس الذين لم يعودوا يرحمون بعضهم بعضًا. وختم مقالته:

«يتساءل صلاح عن العدالة حيث لا عدالة، وكمن يمنّن النفس بالماء السلسبيل في سراب الصحراء. هذا هو البلد الذي يكون غضب الله قد نزل مسبقًا على من يولد فيه حيث يسود «التشبيح» والتكاذب والخداع. بلدٌ أشبه بغابةٍ يرتدي روّادها ثيابًا أنيقة، لكنهم يخفون داخلها شخصيّة الذئب المتوحّش الذي يغدر بالأبرياء، ويفتك بهم».

إستمرّ جلال في معالجة المواضيع الزراعية والصناعية والمالية كالعادة، إلى أن حصل ما ليس بالحسبان. ففي صبيحة أحد أيام الشتاء الممطرة، وكان ما زال نائمًا لأنه يستمرّ في العمل حتى وقتٍ متأخر في الليل، رنّ هاتفه، وإذا بالمدير العام للصحيفة على الخطّ، يطلب إليه الحضور فورًا إلى مكتبه لأمرٍ طارئ. أجابه بأن يمهله نصف ساعة كي يأخذ «شاور» ليصحو بشكلٍ طبيعي. وعندما وصل إلى هناك، استهلّ المدير كلامه بنبرة قويّة وعتاب شديد:

- كيف تكتب هكذا عن رجال الأعمال وتحالفاتهم المشبوهة مع السياسيين في البلد؟ ألا تعرف أن «معلّمنا» هو أحدهم؟ كيف تتجرّأ وتهاجمه بشكلٍ غير مباشر؟

- أنا أكتب عن حالةٍ عامة تأكّدت منها، وهي تقديم خدمات متبادلة بين هاتين الفئتين المتحكّمتين بالبلد. وهذه الأمور تهمّ المواطن، كما أن دور الصحافة أن تلفت نظره إلى ما يحدث حوله. أنا أفهم دورنا كصحافيين هو تقديم الخبر اليقين للقراء حتى يكون موقفنا وتحليلنا مبنيّيْن على الحقيقة.

- أتكلّم معك في موضوعٍ محصور، وليس عن دور الصحافيّ في المجتمع.

- أنا أرسم الإطار العام لعملي حيث يسهل فهم ما أكتبه، والخلفيّة التي انطلق منها. ولا أكتب عن شخصٍ بذاته لأنني لا أريد أن أحوّل عملي إلى مناكفات مع أفرادٍ لن يضيفوا شيئًا إلى موقعي وسمعتي ككاتبٍ حرّ.

- لقد اتّصل بي «المعلّم» معاتبًا، ولأكون صريحًا، مهدّدًا بفصلك من العمل. لكنني طيّبت خاطره، ووعدته بأنك ستعتذر له شخصيًّا، ثم تكتب غدًا شيئًا من التوضيح تستثني فيه «البعض» في مقالتك، وتضيف «لأن (معلّمنا) ضمن هذا البعض القليل، خشيت أن يظنّ القراء بأنني أتملّقه، لذلك لم أذكر أسماء هذه النخبة».

- هل أنت واعٍ لما تقول لي؟ أتريدني أن أعتذر وأتحوّل إلى مدّاح؟ فأنا لا أنادي أحدًا بـ»معلّم» مهما كان. وإذا شعر بأن ما كتبته قد مسّه، فهذا يعني أنه واحد من الذين اغتنوا بطريقةٍ ملتويةٍ من خلال صفقاته مع السياسيين على حساب المال العام.

- لا تنسَ يا صديقي بأن «من يأكل خبز السلطان، يحارب بسيفه».

- أنا أقدّم لصحيفته معرفتي وخبرتي ووقتي. أليس هذا بديلًا عن السيف؟

- أنت تفهم ما قصدت.

- وأنت فهمتَ ما قلتُ. الفكر لا يُباع يا صديقي إلّا إذا ساوم المفكّر على مبادئه، عندها يتحوّل إلى تاجرٍ يبيع سلعته لمن يدفع أكثر، وتُنزع عنه صفة المفكّر. وكثيرون تحوّلوا إلى تجّار أو أزلام لدى الزعماء ورجال الأعمال طمعًا بموقعٍ فارغ أو بحفنةٍ من الدولارات. أعتقد بأنك تعرف معظمهم. نعم لقد «سلّعوا» الفكر، وسيضحك

مـن يسـمع أسـماءهم بـسرّه لأنهـم باتـوا معروفـين ومكشـوفين أمـام الذيـن رفضـوا بيـع نفوسـهم في أسـواق نخاسـة القلـم ورقيـق الفكـر...

- مهلَـك يـا أسـتاذ جـلال! لـم أطلبـك إلى هنـا لأسـمع مقارنـة بـين الكاتـب أو المفكّـر الحـرّ وذاك الـذي يقبـض ليكتـب. شرحـتُ لـك الوضـع، والخيـار لـك!

- لـن أعتـذر مـن أحـد لأنـي مقتنـع بمـا كتبـت. ولـن أكتـب توضيحًـا لمقالـتي وكأنـني ألحـس مـا بصقـت. وإذا كنتـم تجـدون بقـائي معكـم غـير مرغـوب فيـه، فاعتـبرني مسـتقيلًا مـن هـذه اللحظـة.

- لا أريـد منـك ردًّا انفعاليًـا. عـدْ إلى بيتـك، واتصـل بي بعـد الظهـر مـع قـرارك النهـائي.

- هـذا القـرار ليـس بحاجـة إلى التفكـير وإعـادة النظـر. أنـا مسـتقيل، ولـن أدوس مدخـل هـذا المبـنى مجـددًا...

بـدأ أصدقـاء جـلال بتـداول مـا حصـل معـه للمـرّة الثانيـة، وكيـف أن هـذا الصحـافيّ لا يسـاوم عـلى مبـادئ النزاهـة والصـدق حـتى ولـو أصبـح عاطـلًا عـن العمـل. وقليلـون يجـرأون عـلى اتّخـاذ مواقـف مثلـه، لأنهـم في النهايـة يفكّـرون بكيفيـة جـني الراتـب في نهايـة الشـهر، خصوصًـا إذا كانـوا متزوّجـين ولديهـم مسـؤوليات عائليـة وأعبـاء ماديـة.

فؤاد «النموذج»

عـاد «أبـو فـؤاد» إلى المـنزل بعـد نهـارٍ طويـل في العمـل، لكـن موضـوع فـؤاد الـذي تقـدّم لامتحانـات «البكالوريـا» لـم يبـارح تفكـيره لأن نتائـج الشـهادة كانـت سـتصدر ذاك اليـوم. وعنـد وصولـه نـادى ابنـه الـذي لـم يجبـه بالرغـم مـن وجـوده في المـنزل. فنـادى زوجتـه الـتي أطلّـت بسرعـة عـلى الـدار حيـث مـا زال يتأمّـل أغصـان العريشـة الـتي تتـدلّى منهـا عناقيـد الحـصرم الخـضراء، وعندمـا سـألته زوجتـه مـا بـه، بـادر بالقـول:

- هل «طلعت» نتائج البكالوريا؟
- نعـم. لقـد اشـترى فـؤاد جريـدة صباحًـا حيـث أسـماء الفائزيـن تمـلأ صفحـة كاملـة منهـا.
- طمئنيني هل نجح؟
- ....
- ما بالك وكأنك لم تسمعي سؤالي؟ لقد رسب، أليس كذلك؟
- بلى. لم يكن اسمه بين أسماء الناجحين!
- لقد درس كثيرًا، لكن لا حظّ! أين هو الآن؟
- لقـد أقفـل الغرفـة عـلى نفسـه منـذ الصبـاح، ولـم يـأكل أو يـشرب شـيئًا. حـتى أنـه طلـب ألّا أزعجـه بـأيّ سـؤالٍ أو أن أطـرق البـاب..

توجّـه «أبـو فـؤاد» إلى حيـث يحتجـز ابنـه نفسـه، وقـرع البـاب طالبًـا إليـه أن يفتحـه. فتجـاوب مـع والـده الـذي وقـف مقابلـه لثـوان وكأنهـا سـاعات مـن دون أن ينطـق بـشيء، ثـم بـادره:

- لا تزعل يا بنيّ. لقد رأيتُك تدرس بجدّ، لكن لم يحالفك الحظّ.

لـم يـزح فـؤاد عينيـه عـن الأرض. لـم يتصـوّر يومًـا بأنـه سـيكون في هـذا الموقـف المخجـل أمـام والـده، لكـن الحقيقـة أقـوى مـن أن ينكرهـا، فتمالـك نفسـه وأجـاب والـده:

- لقـد فعلـتُ مـا باسـتطاعتي، لكـن الاختبـار كان صعبًـا، ونسـبة النجـاح لـم تتعـدَّ الخمـس والعشريـن بالمائـة كمـا ورد في الصحيفـة.
- إستعد للدورة الثانية، ربما يكون أداؤك أفضل.
- لا أفكّـر بتقديـم الاختبـار ثانيـة. لقـد حـضّرت نفـسي جيـدًا ولـم أوفّـق...
- لا تكن عنيدًا! عليك التقدّم ثانية.
- وإذا رسبت؟
- عندها نفكّر بمخرج ما.

بعـد حـوالي الشـهر تقـدّم فـؤاد مجـدّدًا للاختبـار الرسـمي، لكنـه لـم ينجـح أيضًـا. تعاظـم حزنـه وقـال لوالـده إن الدورتـين أثبتتـا لـه أنـه غـير أهـل للنجـاح في «البكالوريـا». مضيفًـا:

- كنـت أتوقّـع ألّا أنجـح، ولـم أكـن أريـد تكـرار الفشـل والشـعور بالخيبة. لكنـي نزلـت عنـد رغبتك.

- ماذا يدور في ذهنك الآن؟ ما ستفعله؟ هل ستعيد الصف وتتقدّم للاختبار السنة القادمة؟

- لا. لا أريد تكرار الفشل مرّاتٍ عدّة. أريد أن أسافر إلى الخارج، وأبدأ حياتي في عملٍ ما قد أنجح به على عكس هذه الشهادة الملعونة المسماة «البكالوريا» التي أتى بها إلينا الاستعمار. لقد زال الاستعمار ولم تزل آثار شهاداته السيئة...

- ما دخل الاستعمار بنجاحك أو رسوبك؟ فهل زملاؤك الذين نجحوا هم من مؤيّدي الاستعمار؟

- لن أعيد صف «البكالوريا»، بل سأبحث عن مستقبلي خارج الحقل الأكاديمي.

- لقد توقّعتك أن تستمرّ في دراستك وتصبح معلّمًا في المرحلة الثانوية يومًا ما في المدينة حيث يذهب أبناء ضيعتنا، وتدرّس بعضهم، وأكون فخورًا بك وبما سيتداولونه عنك، أو أن تذهب إلى الجامعة وتصبح محاميًا يترافع بثوبه الأسود أمام المحكمة...

- هناك حلّ، لكن لا أدري إذا كنت توافق عليه؟

- ما هو؟ كيف لا أوافق إذا كان لمصلحتك؟

- لقد علمت منذ فترة أن بسّام قد اشترى له والده شهادة معتمدة في دولة أخرى، وقام بمعادلتها، والتحق بالجامعة. فما رأيك بأن نقوم بالشيء نفسه؟

- نشتري شهادة؟! أليس هذا مخالفة للقانون؟ ماذا سيحصل إذا اكتشفوا أمرنا؟

- لـن يحصـل شيء لأن كثيريـن سـبقوا وفعلـوا ذلـك، وهـم موظّفـون الآن في دوائـر الدولـة، حـتى إنّ بعضهـم أصبـح في مراتـب عليـا، ولـن يسـمحوا لأحـد بتـداول الأمـر خوفًـا مـن أن يفتضـح أمرهـم. هكـذا يقـوم الكبـار بحمايتنـا مـن دون أن يعرفونـا!

- وكم كلفة هذه الشهادة؟

- سأسأل، وأعطيك الجواب قريبًا.

تمّـت المعاملـة المطلوبـة، وفي السـنة التاليـة كانـت لـدى فـؤاد الشـهادة الـتي عادلهـا بالبكالوريـا، وانضـمّ إلى الجامعـة. ونظـرًا لضعفـه في معظـم المـواد، احـترف الغـشّ في الاختبـارات حـتى تخـرّج بشـهادة «ليسـانس»، وأصبـح ممـن يشـار لهـم بالبنـان لأن نسـبة المتعلّمـين، وخصوصًـا الجامعيـين كانـت قليلـة جـدًا آنـذاك.

حصـل فـؤاد عـلى وظيفـةٍ جيـدة في إحـدى الدوائـر الحكوميـة، لكـن الراتـب كان ضئيـلًا. وبعـد أن أصبحـت الأمـور مألوفـة لديـه، وجـد سـبيلًا لمضاعفة راتبـه ثـلاث مـرّات أو أكـثر بواسـطة الرشـاوى الـتي تلقّاهـا مـن المواطنـين. إذ كان يتعمّـد تأخـير إنجـاز أيّ معاملـة حـتى يتـمّ دفـع مبلـغ معـيّن مـن قبـل صاحبهـا. وهكـذا اسـتطاع أن يبـني مـنزلًا فخمًـا في بلدتـه، وأصبـح مـضرب مثـل عـن الشـاب الطمـوح الـذي حصـل عـلى شـهادة ثانويـة مـن الخـارج، وليسـانس مـن إحـدى الجامعـات في البلـد، وهـا هـو يقبـض راتبًـا كبـيرًا، خصوصًـا مقابـل الوقـت الإضـافي الـذي يداومـه يوميًـا في عملـه. هكـذا كان يـبرّر دخلـه العـالي!

بقـي فـؤاد محتفظًـا بشـقّته المتواضعـة في الشـارع الخلفـي لبضع سـنوات، ثـم انتقـل فجـأة وأسرتـه إلى شـارع الواجهـة حيـث اشـترى شـقّة واسـعة

جـدًا، ودعـا أصدقـاء وبعـض كبـار القـوم إلى حفلـة اسـتقبال، فلبّـوا الدعوة بـسرور حاملـين معهـم هدايـا للمسـكن الجديـد كمـا هـي العـادة في البلـد، حيـث لـم يشـعر أحدهـم بالخجـل بتهنئـة مرتـشٍ مشـهور ومعـروف جمـع ثروتـه بالاحتيـال. فمعظـم المقيمـين في شـارع الواجهـة أخفـوا شـخصياتهم الحقيقيـة، ولبسـوا وجوهًـا ليسـت وجوههـم، وغـيّروا عاداتهـم واسـتبدلوا قيمهـم بأخـرى تناسـب مواقعهـم الجديـدة!!

إزدادت قـوّة فـؤاد وأصبـح مقصـودًا مـن العديـد مـن النـاس كي يتوسّـط لهـم للحصـول عـلى وظيفـةٍ في الحكومـة مقابـل مبلـغ يفرضـه مسـبقًا عـلى «المرشّـح»، والـذي يصـل غالبًـا إلى راتـب سـنة ممـا سـيتقاضاه هـذا الشـاب لـو قُبِـل في الوظيفـة.

لا أحـد يشـتكي، بـل الجميـع معجبـون بمـا وصـل إليـه فـؤاد مـن عـزّ، وكيـف أنـه يجعـل الأبيـض أسـود، والأسـود أبيـض عندمـا يشـاء. مـرّة، وفي إحـدى جلسـاته حيـث يتجمّـع حولـه بعـض الانتهازيـين، ويـروح هـو يحـاضر فيهـم عـن أصـول العمـل والنجـاح فيـه، وخدمـة النـاس، يسـأله أحدهـم إذا مـا عـرف بـأن حليـم ابـن «بـو توفيـق» قـد أنهـى شـهادة الماجسـتير في «باريـز»، وإذا كان قـد زاره، فأجابـه: لا . ليـس لـدي علـم بـأن ابـن «بـو توفيـق» قـد عـاد مـن فرنسـا. عـلى كلٍّ، غـدًا عندمـا يريـد أن يجـد عمـلًا لابنـه، سـيأتي إليّ.

وصـل هـذا الـكلام إلى «بـو توفيـق»، فقـال بانفعـال: «لـن أكـسر نفـسي لهـذا الفاسـد الـذي اشـترى شـهادته المـزوّرة بالمـال. الجميـع يعلـم ذلـك، وخصوصًـا أولئـك الذيـن يحيطونـه بهالـة مـن الإعجـاب، لكنـه مـا زال يظـنّ أن أحـدًا لا يعـرف، بينمـا ابـني حصـل عـلى منحـة نظـرًا لتفوّقـه عـلى زملائـه في الدراسـة، وسـيجد عمـلًا بكفاءتـه».

راح حليم يتنقّل من وزارة إلى وزارة، ومن دائرة إلى أخرى شارحًا للمسؤولين ما لديه من شهادة عليا، ومن كفاءة في اللغة الفرنسية وأهمية حقل اختصاصه... كانت الوعود كثيرة، لكن لم يحظَ بأيّ فرصة عمل، بينما آخرون يعرفهم ويعرف كفاءاتهم المتواضعة، كانوا يجدون وظيفة بسرعة. فقال لوالده: «لقد تعبت كثيرًا لأحصّل هذه الشهادة من أهم الجامعات الفرنسية، بينما لم يقدّر أحد قدراتي في هذا البلد. لذا قرّرت العودة إلى فرنسا لأعمل في إحدى الشركات التي توظّف الناس استنادًا إلى كفاءاتهم».

جنّ الوالد لقرار ابنه، وهو الذي انتظره كي يعود بشهادةٍ عليا من فرنسا ليفتخر وعائلته به. وها هو يريد الرحيل حيث لن يستطيع التباهي بين أقرانه وأبناء بلدته بإنجازات ابنه في الخارج. فكّر في كيفية حلّ هذه المعضلة، ووجد أن الوسيلة الوحيدة تمرّ من خلال فؤاد. وحدّث نفسه معزيًا: «سأزوره وأطلب إليه التوسّط لتوظيف ابني. فكثيرون يفعلون ذلك. لقد جرّبنا الطرق السليمة والشريفة، لكن لا مكان لها في هذا البلد الذي تسيطر عليه مجموعة من النصّابين أمثال فؤاد. ربما هو الأقلّ قذارة! و«من يحتاج النار يحملها بيده»، وها أنا من يحتاج إليه اليوم»...

وعندما اصطحب «بو توفيق» ابنه إلى منزل فؤاد ليتوسّط له للحصول على وظيفة في إحدى الدوائر الماليّة تناسب تخصّصه في هذا الحقل، جعلهما فؤاد ينتظران ساعة في الصالون الواسع بحجّة أنه ينجز معاملة طلبها منه أحد كبار المسؤولين في الدولة، والذي لا يثق إلّا به لإنجازها بشكلٍ احترافي، ومن دون أيّ خطأ. راح «بو توفيق» خلال فترة الانتظار ينقّل نظره في أرجاء «الصالون» الواسع حيث نسقت مقاعد

«الستيل» بشكلٍ جميل يتناسق مع انحناء الزوايا، ووضعت أمامها الطاولات الصغيرة التي رصّعت حفافيها بأوراق الذهب. بينما وزّعت آنية الكريستال تحت الأضواء النازلة من فوهات صغيرة في السقف ما جعلها تعكس ألوانًا متعددة وكأنها أقواس قزح.

وبعد ساعةٍ بالتمام خرج فؤاد من غرفة مكتبه، وتوجّه مجددًا إلى «بو توفيق» معاتبًا على عدم زيارته له، وإعلامه بأن حليم قد أنهى دراسته العليا في فرنسا. إعتذر «بو توفيق» عن ذلك لأنه «لا يريد أن يزيد المتاعب عليه حيث يقضي معظم وقته في خدمة الناس»، واستطرد:

- يا أستاذ، أتينا إليك لتساعد حليم الذي هو بمثابة ابن أخيك ليحظى بعمل في حقل اختصاصه، وكما علمنا، هناك قلّة قد تخصّصت في هذا الحقل، ومع هذا لم يحالفنا الحظ بالحصول على وظيفة.

- أهلًا بـ«بو توفيق» وبابنو. البيت بيتكن. (متوجّهًا إلى حليم) أعطيني صورة عن الشهادة وصورة عن هويتك واكتب عنوان سكنك، وأنا بخليهن يتصلوا فيك.

- بدّو يعمل امتحان للوظيفة؟

- إذا طلبوا امتحان، بيكون شكلي. لأنو اللي رح يتمّ توظيفهن مش الأشطر بالامتحان. وفهمك كفاية يا «بو توفيق». وربّت على كتفه.

شعر «بو توفيق» بقوّة فؤاد حيث أراد أن يتحدّاه سرًّا، بأن يحصل ابنه على وظيفة مهمّة من دون وساطته، لكن الواقع السائد في البلد خذله، وأجبره أن يأتي صاغرًا إلى هذا الأخير الذي أحسن طريقة إذلاله

بـأن جعلـه ينتظـر طويـلًا بحجـة أنـه مشـغول... وقبـل أن يغـادر مـنزل فـؤاد ممتنًـا، سـأله: «كـم يتوجـب علينـا؟ بعـرف أنـو البدهـن يخدمـوك ويخدمونـا بدهـن شي بالمقابـل»، فأجابـه فـؤاد: «لا تظـن أنـني آخـذ قرشًـا واحـدًا يـا «بـو توفيـق». لكـن هنـاك مـن لا يحرّكـون ورقـة واحـدة مـن دون مبلـغ معـيّن. إعمـل معدلـك إنـو مـا يسـاوي راتـب نصـف سـنة سـتجلبه لحظـة أخـبرك بـأن حليـم توفّـق بالوظيفـة».

مـرّ حـوالي الشـهر عـلى زيـارة «بـو توفيـق» لفـؤاد عندمـا وصلـه اتصـال بـأن يـأتي إليـه لأن لديـه خـبرًا «حلـو». عـرف «بـو توفيـق» مـا الأمـر، وفـرح بذلـك. فبـشّر ابنـه، لكـن الأخـير لـم يتأثّـر كثـيرًا، وقـال لوالـده: «إنـك تشـتري لي وظيفـة في الدولـة، وهـي حقّـي لأني مواطـن فيهـا. وإذا لـم أكـن كفـوءًا، عليهـم ألّا يقبلـوا بي»... قاطعـه والـده بالقـول: «هـذه المثاليـات لا تصـحّ في بلدنـا الـذي بُـنيَ عـلى كلّ مـا هـو فاسـد. ومـن يعيـش عـلى «مزبلـة» عليـه أن يتقبّـل الروائـح الكريهـة! إتـرك هـذه الأفـكار جانبًـا الآن، واحصـل عـلى الوظيفـة، ولـكلّ حـادثٍ حديـث فيمـا بعد. لـو كان هـذا البلد كمـا تظـنّ، لـكان مـكان فـؤاد الصحيـح هـو السـجن، لأنـه وصـل إلى مـا وصـل إليـه بالتزويـر و«البرطيـل». لقـد نصّـب نفسـه «زُعيّمًـا»، والدجّالـون يلتفّـون حولـه لاقتنـاص بعـض الفتـات عـن طاولتـه. كـرّم الله يـا بـنيّ وجـه مـن قـال: «ويـل لأمـةٍ صغارهـا ولاتهـا».

أذعـن حليـم لوالـده، واقتنـع بواقـع بلـده الـذي عليـه أن يعيـش فيـه. لكنـه مـا زال يعـاني للتأقلـم مـع شـواذاته.

شهاداتٌ... وفنانّاتٌ

صديقٌ لفؤاد يدعى طليع يمتهن تزوير الشهادات الجامعيّة، خصوصًا لبعض مواطني الدول المجاورة حيث يتقاضى حوالى عشرة آلاف دولار عن كلّ شهادة. ويستطيع أن يحصل على الأختام والتواقيع الصحيحة مقابل مبلغٍ يرشي به من يتعاونون معه في الدوائر الرسمية. ومعظم زبائنه يرسلهم إليه المعلّم سعيد صاحب مكتب «تخليص معاملات». إذ عندما يظنّ أحدهم أن سعيد هو من يقوم بذلك، يصحّح له هذا الأخير بأن عمله لا يشتمل على الشهادات، لكن لديه صديق يستطيع إرشاده لمن يخدمه.

وبعد أن «يستجوب» طليعُ الزبونَ، لا يفصح له بأنه هو من يقوم بتأمين الشهادات، بل يوهمه بأنه ليس سوى وسيط لدى شخص يسمّيه «Big Boss» الذي لا يستطيع الإفصاح عن اسمه أو مكان سكنه أو عمله، وجلّ ما يقوم به هو أن ينقل الأوراق والكلفة الماليّة إليه، ثم يأتي بالشهادة.

طليعٌ ذو البنية القويّة والجسم الضخم، لا يتردّد بتهديد أيّ فرد يحاول أن يشي به. فهو خطف مرّة شابًا، وأخذه إلى الشاطئ ليلًا حيث وضع المسدس في رأسه لأنه حاول ألّا يدفع له باقي المبلغ بعد أن أمّن له الشهادة. ولم يتركه إلّا بعد أن قبّل رجليه واعدًا بعدم إخبار أحد عما حصل، وبجلب المبلغ المتبقي في اليوم الثاني.

يفضّـل طليـعٌ العمـل في الظـلّ، ومـع مجموعـةٍ صغـيرة جـدًا كي يحافـظ عـلى سرّيـة مـا يقـوم بـه وعـلى استمراره. وهـو يعـرف المعلّـم سـعيد منـذ فـترةٍ زمنيـة طويلـة، ويرسـل كلٌّ منهمـا إلى الآخـر الزبائـن بحسـب حاجـة كلّ زبـون. حياتهمـا باتـت تتحكّـم فيهـا المـادة، والـدولار هـو إلههمـا، كمـا هـو كذلـك لمعظـم النـاس. يحلفـان كثـيرًا بـالله وأنبيائـه في اللحظـة الـتي يكذبـون فيهـا عـلى السـامع. هـذه طريقـة ناجحـة لإقنـاع مـن يتعامـل معهـم بوجهـة نظرهـم الخاطئـة والمخادعـة.

تسـتمرّ الأيـام بالابتسـام لطليـع لأن البلـد يسـير مـن سيئٍ إلى أسـوأ، وهذا هـو المنـاخ المناسـب لنمـو عمليـات الغـشّ والتزويـر مـن دون الخـوف مـن المحاسـبة. وإذا بالذيـن يحصلـون عـلى هـذه الشـهادات يتبـوّأون مناصـب في القطاعـين العـام والخـاص لأن أحـدًا لـم يدقّـق بصحّـة شـهاداتهم، خصوصًـا مـع تراخـي هيئـات المراقبـة المشـلولة لدرجـة الذوبـان في اللاوجـود.

بالتـوازي مـع حالـة الانحـلال في البلـد وسـائر قطاعاتـه، ازدهـرت فـروعٌ لمعاهـد وجامعـاتٍ في الشـارع الخلفـي، وضمّـت أبنـاء الحـيّ والأحيـاء الأخـرى، وقامـت بمضاربـاتٍ فيمـا بينهـا لأجـل تخفيـض البـدل المـالي للأرصـدة المطلوبـة مـن الطـلاب لجـذب أكـبر عـددٍ منهـم. ووصـل التهافـت عـلى المـال لـدى بعضهـا بإعطـاء تعهّـدٍ شـفوي بـألّا يعيـد الطالـب المنتسـب لهـذا الفـرع أيّ مقـرّر دراسي، بـل سـيحصل عـلى علامـة/ درجـة نجـاح بمجـرد أنـه تسـجّل فيـه. وهكـذا أصبـح التعليـم في هـذا الشـارع يـدور في حلقـةٍ مفرغـة بـدءًا مـن الحصـول عـلى ترخيـصٍ للمؤسّسـة أو فرعهـا، وانتهـاءً بتخـرّج الطـلاب منهـا بمسـتوى ضعيـف.

كذلـك مـن كان طالبًـا بالأمـس، ولـم يتجـاوز معـدّل درجاتـه الخمسـين عـلى مئـة، سـمح لـه بـأن ينتسـب إلى برنامـج الدكتـوراه الـذي هـو للنخبـة الفكريـة مبدئيًـا، وأصبـح أسـتاذًا جامعيًـا خـلال فـترة زمنيـة قصـيرة، وطلابه سيسـلكون الطريـق ذاتـه، وهكـذا تكتمـل الدائـرة، ثم تبـدأ مجـددًا... دوائر ضعيفـة تولّـد دوائـر أخـرى أكـثر ضعفًـا، ومسـؤولون تربويـون «يسـايرون» مسـؤولين سياسـيين ومنتسـبي أحزابهـم عـلى حسـاب مسـتوى التربيـة في البلـد. وبعـض هـذه الجامعـات اهتـمّ بـكلّ شيءٍ مـا عـدا العلـم والبحـث والإبـداع. فـلا حاجـة لـكلّ هـذا طالمـا الجميـع يتسـاوون في النهايـة بطريقـة الحصـول عـلى أيّ وظيفـة يريدونهـا.

كمـا ازدهـرت ظاهـرةٌ أخـرى في هـذه المؤسّسـات وهـي دعوتهـا لـ«فنّانـات» للقــاء الطلبــة بهــدف إجــراء حــوار معهــن! لكــن مــن الصعــب تخيّــل محتـوى ومغـزى حـوار بـين فنّانـة لـم تنـهِ المرحلـة الثانويـة، واهتمامـات طـلاب جامعيـين في مرحلـة رسـم مسـتقبلهم المهـني. تذهـب هـذه إلى اللقـاء بعـد أن تمـضي نصـف النهـار في مركـز تجميـل لأن رئيـس الجامعـة أو مـن ينوبـه سيسـتقبلها عنـد المدخـل الرئيـسي، ويرافقهـا إلى القاعـة حيـث سـيعلو التصفيـق والصفـير لمـدة طويلـة، وهـي تلـوّح بيدهـا للجميـع مقلّـدة «أفيتّـا». لكـن هـذا الرئيـس لا يكلّـف نفسـه باسـتقبال مفكّـرٍ تمّـت دعوتـه لإلقـاء محـاضرة في الجامعـة. ولـكي تظهـر الفنّانـة الضيفـة بأنهـا مثقّفـة، تسـتعمل كلمـة باللغـة الإنكليزيـة وأخـرى بالفرنسـية في كلّ جملـةٍ أو جملتـين ليُقـال عنهـا بأنهـا «ثلاثيـة اللغـات». إنهـا في مؤسّسـةٍ تضـمّ رجـال فكـر، ومـا ينقصهـا هـي؟! إذ لديهـا مـا هـو أعظـم مـن الفكـر، ويثمَّـن عاليًـا في «جمهوريـة المـوز»، وتعتـبر نفسـها أهـمَّ مـن كلّ المفكّريـن الذيـن تضمّهـم سـائر الجامعـات. فهـي تقـدّم أيضًـا رؤى وآراء ونظريـات في سـائر

المهـن الـتي تنتظـر هـؤلاء الطـلاب، وتركّـز عـلى فـنّ القيـادة -عفـوًا إنهـا لا تسـتعمل هـذه الكلمـة، بـل تقـول: «Leadership»، وكيـف يمكـن للطالـب أو الطالبـة أن يصبـح «Leader»، وكيـف سـيجني الأمـوال بشـكلٍ سـهل وسريـع. ولا تنـسى أن تقـول «D'accord» بـين جملـة وأخـرى.

وقـد حـضر أمـين مـرّة أحـد هـذه اللقـاءات بدعـوةٍ من فـرعٍ جامعـي ليغادر قبـل انتهـاء الوقـت مشـمئزًا: «كيـف لمؤسّسـةٍ أكاديميـة أن تقـدّم منبرهـا لأنـاسٍ شـبه أميّـين؟ مسـاكين أبنـاء هـذا الجيـل عـلى هـذه النوعيّـة مـن التربيـة الـتي نؤمّنهـا لهـم. كلّنـا متواطئـون ليـس عـلى الطـلاب فحسـب، بـل عـلى مسـتقبل الوطـن» نفسـه. وانـصرف رافضًـا المشـاركة في حفـل «الكوكتيـل» عـلى شرف الزائـرة.

الدانمرك وأبو نجيب (تابع)

كان سليمان، الابن الثاني لأبو نجيب، قد تعهّد لوالده بدفع ألف دولار كمساهمةٍ في تكلفة سفر أخيه. وعندما علم من والده بأن المعلّم عاصي ينتظر مبلغًا آخر (عَ الحساب)، وعده بتأمينه له صباحًا. ولما طلب من زوجته أن تأتيه بما ادخراه وخبآه تحت فراش السرير، سألته عن سبب حاجته المفاجئة للمبلغ، فأخبرها بأنه يريد أن يدفعه عن أخيه ليستطيع السفر. كان جوابها السريع الرفض، وأردفت:

- إن أطفالنا أولى بهذا المبلغ من أخيك. لماذا علينا مساعدته بكلّ ما نملك؟ لا أجد سببًا مقنعًا لذلك!

- هناك عدة أسباب مقنعة. وسأذكر لك أهمّها: أولًا، إن «زياد» أخي، وعليّ مساعدته ككلّ أخ. ثانيًا، إذا فتحها الله بوجهه، قد يساعدنا جميعًا للسفر إلى الدانمرك بدل العيش هنا والكدح ليلًا نهارًا. ثالثًا، عندما يتكلّم الرجل في البيت، تسكت المرأة. هل نسيت هذه القاعدة؟

- معظم الذين يسافرون ينسون أهلهم بعد أن يستقرّوا هناك حيث يمضون الفترة الأولى من حياتهم بمطاردة الشقراوات وكأنهم لم يروا «الرزق» في حياتهم، ثم عندما يستقرّون، يتزوّجون بأجنبيّة ولا يعودون يلتفتون إلى من ساعدهم. فأين الذكاء في تقديم مالك لأخيك؟ ما هو رصيده ليستخدمه هناك؟ سيعتمد على وسامته

وشـعره الـذي يبلّلـه بالـ«جـال» كلّ صبـاح قبـل أن ينطلـق وأصحابـه «للكصـدرة» طـوال النهـار في الطرقـات؟ آه! قبـل أن تقاطعـني، لمـاذا طلبـت مـني السكوت لأنـني امـرأة؟ هـل نسيت مـا وعـدت والـدي بـه عندمـا طلبتـني منـه؟ أن تعاملـني كملكـة، وهـا أنـت تعاملـني كخادمـة!

صمـت سـليمان أمـام حجـج زوجتـه الواقعيّـة. تذكّـر بـأن سـميرة لـم تكـن مغرمـة بـه قـدر مـا هـو أغـرم بهـا، وكانـت متأرجحـة بـين القبـول بـه أو رفضـه حـين تقـدّم لخطبتهـا. لقـد لفتـت نظـره في مناسـبة اجتماعيـة، فتقـرّب منهـا وراح يثـني عـلى جمالهـا بشـكلٍ مهـذّب، مـا جعلهـا تـردّ عليـه بـكلامٍ لطيـف شـاكرة لياقتـه؛ فأجابهـا بـأن مـا يقولـه ليس مـن بـاب اللياقة، بـل إنهـا الحقيقـة. وهـذا مـا جعلهـا تسـتمر بالحديـث معـه معظـم تلـك السـهرة، وتلتقيـه عـلى فنجـان قهـوة بعـد بضعـة أيـام.

سـميرة في الثلاثـين مـن عمرهـا، ذات وجـه حنطـي وشـعر طويـل أسـود مندلـق عـلى كتفيهـا، مـع عينـين سـوداوين وواسـعتين تعكسـان ارتياحًـا نفسيًا لأنهـا تعلـم بـأن الله خصّهـا بجمـالٍ أخّـاذ. فجاذبيـة الأنـثى تطغـى عـلى مظهرهـا، وعـلى الرغـم مـن إنجابهـا لثلاثـة أطفـال، فمـا زال جسـدها متناسـقًا ورشـيقًا كالـذي تتحـلّى بـه عارضـات الأزيـاء. أمـا طريقـة تفكيرهـا الواقعيـة فقـد جعلتهـا منطقيـة في كلّ مـا تقولـه، وتتـصرّف عـلى أساسـه بثقـةٍ كبـيرة. وهـذا يزعـج معظـم محاوريهـا الذيـن اعتـادوا عـلى المواربـة والمجاملـة حـتى في الأمـور الجوهريـة. أمـا سـليمان فيتمتّـع بجسـمٍ ريـاضي مشـدود، ووسـامة تلفـت النظـر، وربمـا سـاهم مظهـره الخارجـي باقتنـاع سـميرة بـه. لكنـه كان قـد تـرك المدرسـة بعـد أن حصـل عـلى شـهادة «البروفيـه» وهـو في السادسـة عـشرة، فعمـل نـادلًا في مقهـى في المدينـة، ثم انتقـل إلى إحـدى الـشركات الـتي كان والـده حارسًـا فيهـا. وأظهـر لسـميرة كلّ

احترام وتودّد بعد تعرّفه عليها، خصوصًا أنها تفوقه علمًا حيث كانت في سنتها الجامعيّة الثانية عندما ارتبط بها، وجعلها تترك الدراسة. لقد فعلت كلّ ذلك مقابل أن تكون محترمة لديه، ولها رأيها في شؤون الأسرة والبيت، وليس كبقية النساء التقليديات اللواتي لا ينطقن إلّا إذا سمح لهن أزواجهن، كما لا يتجرّأن على مخالفة ما يقوله الزوج أبدًا. وعندما لاحظت شرود سليمان، استحثته على الكلام:

- لمَ أنتَ صامت؟ أظهر لي أنني على خطأ، ثم افعل ما تشأ مع أخيك.

- ما أقوم به هو وجه من وجوه الدعم العائلي. فإذا كان الأخ لا يساند أخاه، فمن يسانده؟ الغرباء؟

- تسانده لسببٍ وجيه، وليس لأنه فشل في امتحاناته المدرسية، و«عامل حالو دون جوان». أتظنّ من يفشل في اختبار الثانوية العامة سينجح في بلاد لا يعرف لغتها ولا أهلها، كما ليس لديه أيّ مهارة ليجد عملًا يعيش منه؟

- ستتولّى الحكومة الدانمركية الاعتناء به ليتعلّم اللغة وبعض المهارات، وينطلق بعدها معتمدًا على نفسه. ثم قد نحتاجه نحن. ألا ترين ظروف الحياة هنا؟ قلّة عمل، وقلّة أمان، وقلّة أخلاق.

- ما تفعل إذا أصاب أحدَ أطفالنا حادث صحيّ لا يغطّيه الضمان الاجتماعي؟ ألم ندّخر هذا المبلغ لإجل حالة طارئة تحتاج إلى مال؟

- لـو كان الحـقّ كلّـه فيمـا تقولـين، لـن أتراجـع عـن إعطـاء المبلـغ لزيـاد. هكـذا تـمّ الاتفـاق، وأخـوتي سـينفّذون مـا تعهّـدوا بـه، فهـل مـن اللياقـة أن أنسـحب ممّـا تكفّلـت بـه؟

- يمكـن إقنـاع أخيـك بعـدم السـفر، والبحـث عـن عمـلٍ هنـا بـدل أن يجـازف بحياتـه ليعيـش «عـلى ضهـر أهـل الدانمـرك». هـذا إذا اسـتطاع الوصـول إلى هنـاك. وعليـك أن تنـسى موضـوع التزامـك مـع والـدك وأخوتـك لأجلـه.

- تطلبـين مـني مـا لا أسـتطيعه! صباحًـا، وقبـل ذهـابي إلى العمـل سـأعطي المبلـغ لوالـدي لأنـه سـيذهب إلى العاصمـة لترتيـب موضـوع السـفر، وبعـد ذلـك يصطحـب زيـادًا في الوقـت الـذي يعيّنـه لـه المكتـب لينطلـق مـن هنـاك إلى المرفـأ.

إنسـحبت سـميرة مـن غرفـة الجلـوس مـن دون أن تعلّـق عـلى مـا قالـه زوجهـا، وتفقّـدت أطفالهـا، ثـم أوَتْ إلى الفـراش. وفي الصبـاح، وبعـد أن جهّـز سـليمان نفسـه للذهـاب إلى العمـل، طلـب منهـا أن تعطيـه المـال، فناولتـه المبلـغ، وإذا هـو نصـف مـا توقّعـه. نظـر إليهـا بغضـب، ثـم صرخ بوجههـا: لقـد احتفظـت بنصـف المبلـغ، أليـس كذلـك؟ أعطـني البـاقي، ودعيـني «أتسـهّل» إلى عمـلي. «الفـان» بانتظـاري الآن. لقـد وعـدتُ والـدي بـأن أمـرّ عليـه وأعطيـه مسـاهمتي.

- هـذا كلّ مـا نسـتطيعه. لقـد وضعـتُ النصـف البـاقي في الخزانـة حـتى إذا احتجنـاه، لا نضطـرّ للاسـتدانة مـن أحـد.

- آتيني بما في الخزانة...

- لا. لن أعطيك إيّاه.

صرخ سليمان بأعلى صوته مكرّرًا طلبه، وعندما تجاهلت صراخه، لطمها على وجهها، وأردف: لن أفتّش بنفسي بين الثياب عن المال. ناوليني إيّاه ودعيني أذهب إلى عملي.

صُدمت سميرة من ردّة فعله. للمرّة الأولى يصفعها! وهذه المعاملة لا تليق بها، ومجدّدًا لا تعكس وعوده بكيفيّة التعاطي معها. فتحت الخزانة، وسحبت المبلغ من بين ثياب أطفالها، ورمته أمامه على الطاولة بينما كانت تنشج في البكاء.

أخذ سليمان المال، وتوجّه إلى منزل أهله القريب من منزله، ووجد والده منتظرًا قدومه لينطلق إلى العاصمة. ناوله ما يحمله في مغلّف أبيض، فلاحظ والده تشنّجه ما دفعه للاستفسار عمّا به، فأجاب بأن لا شيء مهمّ. عليه العجلة للوصول إلى عمله.

بعد أن رافقت سميرة أطفالها الثلاثة إلى باب المدرسة القريبة من منزلها، توجّهت إلى منزل أهلها. وما إن دخلت حتى أخذت تبكي وتطلق الشتائم على الرجال الكذّابين الذين لا يحترمون وعودهم، ولا يحترمون زوجاتهم. قامت والدتها تهدّئ من روعها كي تفهم منها ما حدث بالتفصيل. فروَت ما حصل بينها وبين سليمان صباحًا، وكيف أنه لم يشاركها الاهتمام والخوف بالنسبة إلى أيّ طارئ يحصل لأطفالهما، بل فضّل أن يقف على رأي والده، ويقدّم لأخيه ما كانت تقتصده يوميًا من دخل الأسرة. وإذا بالوالدة تطلب إليها أن تهدأ، وتردّد أمثالًا عن تصرّف المرأة الحكيمة بأن تتقبّل بعض ردّات فعل زوجها، لأن الرجل عندما يفقد أعصابه لا يبكي كالمرأة، بل يروح يضرب ويقاتل من دون وعي... فقاطعتها سميرة:

- تعتبرين أن ما فعلته خطأ، وما فعله هو صحيح؟! هل أنت تقفين إلى جانبه لأنه ضربني وخنث بوعده لبابا؟ لكم جميعًا؟ لقد أظهر جوهره، وكأنه يقول لي إن موقعي لديه يأتي في نهاية اللائحة، وليس على رأسها كما ردّد لي قبل أن أقبل به زوجًا.

- يا ابنتي، لا تجعلي من موضوع بسيط كهذا قضية تحطّم أسرتك. فأطفالك يجب ألّا يعيشوا جوّ «الخناق» بينكما...

- أتعنين أن الجميع يجب أن يكون سعيدًا ومرتاحًا على حسابي؟! أين أنا؟ أين حياتي؟ كلّ ما حاولته هو أن أبيّن له أن الأفضليّة لأسرته، ثم أهله وأخوته. يا ليتنا أغنياء لما سألته البتّة عما يريد أن يعطي أخاه. لكن هذا المبلغ اقتصدته بالليرة من مصروف البيت.

- سأحضّر لك «ترويقة» لأنني متأكدة بأنك لم تتناولي فطورك وأنت في هذا الجوّ من الخناق والتعصيب.

- لا أريد شيئًا.

غادرت منزل أهلها لأن ما بداخلها ازداد غليانًا. فهي تصوّرت كيف أن أمّها ستقفز من مكانها، وتبدأ بشتم «الصهر» الذي «مدّ» يده على ابنتها، وستتهدّده، وتنتظر عودة والدها من العمل كي يقوما بشيءٍ يجعل سليمان يندم ويعتذر عمّا فعل. لكن كلّ هذه المواقف المتصوَّرة بخّرتها أمُّها بهدوئها وبنصائحها في كيفيّة تقبّل الزوجة لغضب زوجها، والصمت على مضض خوفًا على مستقبل الأولاد.

«آه. ماذا لو لم يكن لديّ أولاد، ماذا كانت أمّي تقول لي؟» هذا لم يخطر في بالها قبل أن تغادر. عادت أدراجها وقرعت الباب، ففوجئت

والدتها بها، واستطردت بسرعة: هل راقت أعصابك؟ قلت لك إن هذه الأمور تحصل بين الأزواج، فانفعلتِ وصرختِ... قاطعتها سميرة:

- لم تهدأ أعصابي، بل عدت لسببٍ آخر. ماذا لو لم يكن عندي أولاد؟ ماذا كنت لتقولي لي؟

- دعك من هذه الفرضيّة. «ولادك بيجنّنو، الله يخليلك هني. اهتمّي فيهن وكرّسي حياتك إلهن...»

- ولوالدهم. أكملي!

- يا ابنتي...

- عرفتُ جوابك من دون أن تفصحي عنه. أنت تقولين لي إنه، وبغض النظر إذا كان لديّ أطفال أو لا، عليّ تقبّل إهانة زوجي لي لأنه رجل وأنا امرأة!

لم تنتظر ما ستقوله والدتها، بل صفقت الباب وراءها وانطلقت. هي مجروحة في كبريائها، في أنوثتها، في توقّعاتها، وفي أحلامها. لم تعد المشكلة هي المال المقتصَد الذي أعطي لأخي زوجها، بل وجودها هي مع سليمان، وما تعني له. بقيت في حال غليان طوال النهار، وقرّرت بأنها ستنتقم لكرامتها بنفسها من زوجها الذي ظلمها بصفعه لها.

سليمان بقي طوال اليوم مشتّت الذهن. فهو لم يتوّقع أن تجادله زوجته لأن «كلمة الرجل لا تنكسر». هذا ما تعلّمه من والده، وما نشأ عليه أبناء جيله. وإنه من المعيب أن يعرف أصدقاؤه أو أقاربه بأن زوجته منعته من تقديم المال لأخيه بعد أن وعد والده بذلك. غلبت تصوّراتُه المنطق الذي كان يدّعيه، ولم يعد يرى أمامه إلّا هزء

مـن يعرفـه برجولتـه لـو اتّبـع رأي زوجتـه. وهـو لـم يفعـل ذلـك. لكنهـا تهويماتـه هـي الـتي وضعتـه في هـذه الحالـة. وعندمـا رجـع إلى المـنزل، تفاجـأ بـأن سـميرة لـم ترحّـب بـه كالمعتـاد، ولـم تسـأله عـن يومـه... بـل وجدهـا عابسـة الوجـه، ترتـدي «السـيرفَتمان»، وممـدّدة مقابـل التلفـاز، وتحمـل بيدهـا «الرِمـوت».

فهو بالكاد ألقى السلام، وهي بالكاد ردّت عليه.

شـعر بغليـانٍ في دمـه، فاقـترب منهـا وانـتزع «الرِمـوت» من يدهـا ورماه على الأرض، فتحطّـم، وراح ينظـر إليهـا بغضـب، فانتصبـت وصرخـت بوجهـه:

- لـمَ فعلـتَ ذلـك؟ ومـا هـذه الطريقـة الهمجيّـة الـتي تعاملـني بهـا منـذ الصباح؟

فمـا كان منـه إلى أن رفسـها عـلى رجلهـا فانحـنى جسـدها إلى الـوراء لتصبـح جالسـة عـلى «الصوفـا»، وبأعـلى صوتهـا صرخـت:

- إنشـالله بتنكسر أجـرك يـا حيـوان. أنا كنـت مفتكرتـك بـني آدم ومهذّب، طلعـت وحـش وكـذّاب وجبـان لأنـك عـم تـضرب مرتـك. الرجّـال مـا بيـضرب مرتـو، لكـن بيدافـع عنهـا وبيحافـظ عليهـا...

ولـم تكمـل هـذا «الرشـق» مـن كلمـات التهجّـم الـتي تصفـه بهـا، حـتى فقـد أعصابـه كليّـة، فتنـاول إنـاءً مـن «السـيراميك» كان قربـه عـلى طاولـة السـجائر، وضربهـا بـه عـلى رأسـها، ففقـدت الوعـي، وصـار الـدم يـنزف مـن الجـرح الـذي سـبّبه لهـا ومـن أذنيهـا أيضًـا.

توقّـف للحظـة، ونظـر إليهـا وهـي تنتفـض مـن دون أن تسـتطيع الـكلام، وارتخـت يداهـا، ثـم بـدأ جسـدها يتـدلّى مـن عـلى «الصوفـا» شـيئًا

فشيئًا إلى أن سقط على الأرض. تركها تتخبّط في دمها وركض إلى منزل أهله حيث أخبرهم بما فعل، وهو لا يعلم إذا كانت هذه الضربة قد قتلتها، أم أنه ما زال بالإمكان إنقاذها. أسرع والده الواصل لتوّه من العاصمة، ووالدته وأخته إلى منزله، والجميع يولول حيث تجمّع الجيران واكتظّ المنزل بمن وصله في تلك اللحظة، ومعظمهم ينظر إلى سميرة، وعيناها مفتوحتان، وكأنها تحدّق بهم وتقول شيئًا ما، ربما تلومهم في صمتها الأبديّ لأنهم من ابتدع وقبِل وعزّز ثقافة إهانة المرأة وتعنيفها، وحتى إزهاق روحها لأبسط الأسباب. سميرة الجميلة تمثال ممدّد فوق بقعة من الدم، ينزف قيمة الإنسان، وينتفض بين لحظة وأخرى وكأنه يريد التخلّص مما بقي فيه من حياة...

ألقي القبض على سليمان، وأودع السجن. واضطر والده إلى تحويل وجهة المبلغ الذي جمعه من باقي أبنائه لسفر زياد إلى المحامي الذي تولّى متابعة القضية. ومع هذا لم تعقد جلسة لمحاكمة سليمان إلّا بعد ثلاث سنوات. وهذه الفترة طبيعية بالنسبة إلى مَنْ يرتكب جنحة أو جريمة في البلد مهما كان نوعها.

بناية الأجانب

على مقربةٍ من مكتب السفريات، وفي نهاية زاروبٍ يمتدّ عشرات الأمتار نحو الداخل، يوجد مبنىً قديم جدًا وشبه آيل للانهيار، يستأجر شققه الصغيرة عمّالٌ وعاملات أجانب حيث يعيش في كلّ واحدة منها أربعة أو خمسة أشخاص، حتى بات يعرف باسم «بناية الأجانب». معظم المقيمين فيه مخالفون للقوانين من حيث انتهاء فترة إقامتهم، أو أنهم فارّون من منازل أو شركات أتوا ليخدموا فيها، ثم راحوا يعملون بالساعة في عدة أماكن، وبأجرٍ بسيط، لكنه يتجاوز ما كانوا يحصّلونه شهريًا من ربّ عملهم.

واستطاعت النساء اللواتي يعشن هناك أن يفرضن أنفسهن، ويتابعن شؤونهن الخاصة في المدينة. فغالبيتهن يعملن في شارع الواجهة حيث يقمن بأعمال التنظيف، والمساعدة التي يطلبها مسؤولٌ في مكتبٍ أو متجرٍ من تصوير مستندات، وتقديم القهوة، أو طيّ الثياب ونقلها... والرجال كانوا يقومون بأعمالٍ مختلفة ترتبط بأمورٍ تقنيّة كالكهرباء والنجارة والحدادة والبناء وغيرها، ويرسلون معظم ما يحصّلونه إلى أسرهم في البلدان التي وفدوا منها، في الوقت الذي يسافر فيه أبناء الشارع الخلفي إلى دولٍ أخرى ليقوموا بالأعمال ذاتها، لكن بأجرٍ أعلى، ويرسلون ما يقتصدونه إلى أسرهم أيضًا. وهكذا يدور دولاب الاقتصاد، أناسٌ يعملون في بلدان أناسٍ آخرين، ويرسلون المال من بلدٍ إلى آخر...

كان ساكنو هذا المبنى يتعرّفون بعضهم إلى بعض بسرعة، حتى ولو كانوا لا يفهمون اللغة التي يتكلّمها كلّ منهم. الإنكليزية «المكسَّرة» ولغة الإشارات كانتا وسيلتَي التواصل. وقد نشأت علاقات صداقة فيما بينهم، والنادر منها تطوّر ليدخل في إطار الزواج. السبت مساء هو وقت الاستراحة والمتعة، فيشرب معظمهم ما يستطيع تأمينه من الكحول، وتتخدّر العقول وتنتشي الأجساد، خصوصًا عندما تقيم مجموعة منهم حفلًا ساهرًا يدعى إليه عدد كبير من الأصدقاء. فيكتظّ المكان، ويصبح من الصعب التواصل واستيعاب ما يقوله كلّ فرد منهم. وغالبًا ما يصطحب بعض الرجال المقيمين في المبنى صديقاتهم إلى مخادعهم لقضاء جزءٍ من السهرة على انفراد بعد أن يطلب من اكتسب هذه الرفقة من زملاء السكن التغيّب لفترةٍ زمنية قصيرة.

عادت «كوني» يومًا إلى الشقة التي تقيم فيها وهي مضطربة. فدخلت «الحمّام» لتخرج بعد دقائق وهي تصرخ أمام زميلتها في السكن بأنها حامل. فارتعبت تلك مما سمعت، وسألتها فورًا: ما تقولين؟ متى حصل ذلك؟ وكيف عرفت أنك حامل؟!

- الآن. انظري إلى هذا الشريط. إنه يشير بلونه الأزرق أنني حامل.
- هل تعرفين والد الجنين؟
- نعم. إنه حامد.
- وكيف لم تكوني حذرة كي لا تصلي إلى هذه المرحلة؟ أتعرفين أين تقودين نفسك الآن؟
- إلى الجحيم. نعم إنني أفعل هذا بنفسي... يا إلهي ماذا جلبت على نفسي؟!

- هـدّئي روعـك. تعـالي نفكّـر في طريقـةٍ للخـروج مـن المـأزق. البـكاء لا ينفـع.

- أنـا خائفـة كثـيرًا. أخـاف مـن نكرانـه لعلاقتنـا، وأشـكّ بأنـه يقبـل أن يتزوجـني. كمـا أخـاف أن اسـتمرّ في الحمـل لمـا سـيجلبه ذلـك عـليّ مـن مشـكلات مـع أهـلي... كذلـك سـأصل إلى مرحلـة لا أسـتطيع فيهـا العمـل طـوال النهـار، وبذلـك أفقـد دخـلي. وكيـف سـأبرّر لأسرتي عـدم إرسـالي المبلـغ المتّفـق عليـه شـهريًا. إنـني لـم أجلـب لنفـسي كارثـة واحـدة، بـل كـوارث عـدة...

- خفّفـي مـن خوفـك! الخطـوة الأولى سـتكون بإعـلام صديقـك بمـا حصـل، ولـنرى مـا لديـه ليقولـه. عليـك أن تخبريـه بنفسـك، وأن تحمّليـه المسـؤولية في الوقـت نفسـه.

قرعـت «كـوني» بـاب حامـد الـذي يتشـارك الشـقّة الصغـيرة مع ثلاثـة عمّال آخريـن، وطلبـت إليـه أن يخـرج قليـلًا لموضـوع مهـمّ. وعندمـا أصبحـا على الطريـق، بـدأت تفصـح لـه عمّـا تخـبّئ في أحشـائها، وكـرّرت بـأن الجنـين هـو طفلهمـا. جـنّ جنـون حامـد واتهمهـا بأنهـا تقيـم علاقـاتٍ مـع عـددٍ كبـير مـن الرجـال، وتريـد أن تجعلـه ضحيّـة مـا حـدث. أقسـمت لـه بـأن لا علاقـة لهـا مـع رجـل باسـتثنائه، وأنهـا تكـنّ لـه مـودّة خاصـة، لذلـك مكّنتـه مـن نفسـها. عـاد وأنكـر كلّ مـا يرتبـط بالموضـوع الـذي تتحـدّث عنـه. فأشـارت إليـه بإجـراء اختبـارات حيـث لا مجـال للشـكّ. فإمـا أن يكـون الجنـين ابنـه أو لا. لـم يكـترث لـكلّ مـا قالـت، وتوجّـه إليهـا بـكلامٍ قـاس لا ينـمّ عـن تقديـر وضعهـا، ولا حـتى عـن احترامهـا، ونصحهـا بالذهـاب إلى طبيـبٍ للتخلّـص مـن «هـذا» الـذي في «بطنهـا».

عـادت «كـوني» إلى الشـقّة والدمـوع تنهمـر مـن عينيهـا، فعرفـت صديقتهـا للتـوّ أن محاولتهـا قـد فشـلت. راحـت تطيّـب خاطرهـا، وقالـت لهـا بأنهـا هـي الـتي سـتكلّم حامـد بالموضـوع غـدًا، ولـن تدعـه يتخـلّى عن مسـؤوليته في قضيـة حملهـا. وهـذا مـا حصـل في مسـاء اليـوم التـالي، لكـن حامـد صرخ بوجههـا بـأن لا دخـل لهـا في القضيّـة، والأفضـل أن تسـاعد صديقتهـا في إيجـاد طريقـة للتخلّـص مـن الجنـين بـدل اتّهامـه بأنـه والـده. أجابتـه «سـارة» بـأن الـصراخ والتهديـد لا يحـلّ المشـكلة، وصديقتهـا مسـتعدّة لأن تشـتكي إلى الشرطـة، وتجعلـه يتحمّـل جـزءًا مـن المسـؤولية لأنهـا سـتثبت طبيًّـا بأنـه هـو الوالـد.

- ألـن تتهمهـا الشرطـة بممارسـة الزنـا لأنهـا تقيـم علاقـة مـع رجـل وهـي غـير متزوّجـة منـه؟ مـا سـتفعل عندهـا؟
- سـتعترف بأنهـا تقيـم علاقـة معـك أنـت، ومـن دون مسـوّغ شرعـي أيضًـا. أتظـنّ بأنهـا سـتدفع الثمـن وحدهـا؟

تغـيّرت ملامحـه مـن اللامبـالاة إلى الجدّيـة لأنـه شـعر للمـرّة الأولى بـأن دوره لـن يُغفـل إذا تطـوّر الموضـوع، وأن هـذه الفتـاة الـتي أمامـه ليسـت ضعيفـة أو خائفـة منـه، فقـال لهـا:

- دعينـا نعمـل عـلى حـلّ المشـكلة بهـدوء. أنـا لسـت مسـتعدًا للـزواج بـ«كـوني» أو بغيرهـا. لـذا يبقـى أمامنـا حـلّ وحيـد وهـو الإجهـاض. سأسـاعد في دفـع تكاليـف عمليّـة الإجهـاض، ونطـوي الموضـوع هنـا مـن دون أي تطـورات قـد تـؤدّي بنـا جميعًـا للطـرد مـن البلـد.
- أنـا أقـوم بـدور الوسـيط، وسـأخبر صديقـتي باقتراحـك، أو نلتقـي نحـن الثلاثـة لمناقشـة هـذا الحـلّ.

كان حامدٌ في هذه الفترة منشغلًا بموضوعٍ آخر أهمّ بكثير من موضوع حمل «كوني» منه، حيث أتاه أحد مواطنيه يقترح عليه مهمّة تجعلهما أغنياء في بضع ساعات، ثم يرحلان بسرعة من البلد. لم يشرح له مواطنه ماهيّة ما سيقومان به، لكنه وضعه «في الجوّ» كي يفكّر إذا كان مستعدًا للقيام بما يُطلب منه مقابل حصوله على مبلغ كبير من المال.

راح حامدٌ يربط الموضوعين معًا. إذا ترك البلد بسرعة، فلن تحصل «كوني» منه على شيء. فهي لن تلحقه إلى بلده لتحلّ مشكلتها معه، وإذا فكّرت وذهبت هناك، فكيف لها أن تجده بين عشرات الملايين؟ كما أن فكرة الحصول على مبلغٍ كبير من المال في بضع ساعات إغراء كبير، فبدلًا من العمل طوال النهار في «محطّة للبنزين» مقابل الحصول على مبلغٍ يرسل معظمه إلى أسرته، ويعيش بالقليل الباقي، لهو أمر قد ملّ منه، كما ملّت منه المحطّة التي يتنقل بين أجزائها طوال الوقت. فهنا يعبّأ البنزين، وهناك يغسل السيارات، وفي الجهة الأخرى يحضّر الخزانات ليفرغ الصهريج حمولته من البترول... لكن المضي في المشروع سيريحه من هذا التعب من جهة، ويدرّ عليه مالًا من جهة أخرى. كما سيحلّ مشكلته مع «كوني».

في اليوم التالي أتت سارة إلى سكن حامد تطلب منه أن يأتي إلى شقّتها و«كوني» ليبحثوا الموضوع. أجابها بأنه مستعدّ لذلك، لكن ليس اليوم. فسألته عن اليوم الذي يفضّله، فأجابها بأنه يعمل على قضية مع صديق له، وسيقبض مبلغًا من المال يمكّنه من دفع تكاليف عملية الإجهاض كلّها. فلمَ العجلة طالما الأمر يحتمل التأجيل بضعة أيام؟ عادت سارة خائبة لتخبر «كوني» بما قاله صديقها، ولتقنعها بأن

تنتظر قليلًا لأن الشجار معه قد يدفعه إلى تغيير موقفه. ومن الحكمة ألّا تقدّم له أيّ حجّة كي لا يتنصّل من الموضوع...

إتصل حامد بذاك الصديق الطارئ ليسأله عمّا في جعبته، فأجابه بأنه سيلتقيه مساء اليوم التالي مع صديقٍ آخر. وهذا ما حصل. فالتقى الثلاثة على رصيفٍ غير مزدحم قرب البحر، وراح كامل يشرح لزميليه ما هو بصدده، فقال: أنا أعمل حاليًا مع رجل أعمال، وأرافقه في معظم تنقّلاته داخل البلد، وإقامتي هي على اسمه باعتباري موظّفًا لديه، لكنه ترك جوازي معي نظرًا لثقته بي. هذا الرجل لديه أموال كثيرة، ووجدت بأنه من غير العدل أن يمتلك فرد مبلغًا كبيرًا من المال، ويبني مباني ثم يبيعها شققًا سكنيّة، إضافة إلى تجارته المزدهرة، ونحن نشقى في سبيل بضع دولارات نرسلها إلى أهلنا. وافقه الإثنان على فلسفته المرتبطة «بتوزيع الثروة»، وسأله حامد عمّا يريد فعله، وما هو دور كلّ من الإثنين؟ فأجاب: يوم السبت هو يوم جمع الغلّة. إذ يذهب «المعلّم جواد» إلى المحال التجاريّة التي يكون قد أرسل لها مسبقًا الدخّان والسيجار وتنباك النرجيلة والغليون كي يجمع ثمنها بنفسه. وهو يؤمن بهذه الطريقة التقليديّة بدلًا من إرسال شخصٍ آخر. ويبقى المال في منزله حتى الإثنين صباحًا لأن المصارف تكون مقفلة يوم الأحد كما تعلمون. يقاطعه حامد:

- حتى الآن لم نفهم ما هو دورنا، وما تخطّطه في راسك؟

- آتيك بالكلام.

- فراس: دعه يكمل يا أخي. أنت لا تعرفه مثلي. إنه يحبّ أن يعطي صورة كاملة وواضحة عن أيّ أمر يريد القيام به.

- تابـع كامـل: عـلى كلٍّ منكمـا أن يشـتري تذكـرة سـفر للمغـادرة يـوم الأحـد صباحًـا.

- فراس: وهل اشتريت تذكرة لك؟

- نعـم. لا يوجـد ضغـط هـذه الأيـام عـلى السـفر. لـذا تجـدون مقاعـد في أيّ وقـت. لكـن أمّنـوا التذاكـر أولًا كي لا نفاجـأ بمـا ليـس في الحسـبان.

هـزّ الاثنـان رأسـيهما علامـة الموافقـة، وتابـع كامـل: أنـا أكـون بصحبتـه يـوم السـبت حـتى المسـاء، وعنـد عودتـه إلى منزلـه ليضـع المـال في خزنتـه، يوصلـني إلى سـكني في العمـارة الـتي يبنيهـا في الناحيـة الغربيّـة لهذا الشـارع. في هـذا الوقـت يكـون كلّ الذيـن يعملـون في الورشـة قـد انصرفـوا، وتكونـان في انتظـاري في غرفـتي. وعندمـا تريـان السـيارة تدخـل السـور المحيـط بالمبـنى، وهـو مـن الخشـب ومرتفـع بحيـث لا يـرى الجـيران أو المـارّة مـا يحصـل ضمنـه، تنقضّـان عليـه وتكبّلانـه، وتكمّـان فمّـه كي لا يسـتغيث. وأتنـاول أنـا «الشـنطة» الـتي تحـوي المـال مـن السـيارة، ثـم ندخلـه إلى «حمّـام» الغرفـة، ونوثقـه هنـاك ريثمـا نغـادر إلى بلدنـا. وصبـاح الإثنـين سيكتشـفه العمّـال ويطلقـون سراحـه.

سـارت تحضـيرات عمليـة السـلب كمـا يجـب حـتى وصـول جـواد إلى عمارتـه لينـزِل كامـل هنـاك، فـراح هـذا يلهيـه ببعـض الأسـئلة الـتي حضّرهـا مسـبقًا ريثمـا يتسـنّى لزميليـه الخـروج مـن الغرفـة. إقتربـا مـن السـيارة مـن جهـة جـواد الـذي تفاجـأ بوجودهمـا هنـاك، فالتفـت إلى كامـل يسـأله عنهمـا، فقـال لـه إنهمـا صديقـان ينتظرانـه لتمضيـة ليلـة السـبت معًـا. لكـن جـواد شـعر بأمـر غـير طبيعـي يحصـل حولـه لأن الإثنـين مـا زالا يركّـزان نظرهمـا عليـه بطريقـة غـير ودّيـة. فقـال لكامـل: إنـزل واطلـب إليهمـا مغـادرة

المبنى. لا أريدهما هنا. وفي تلك اللحظة فتحا باب السيارة من جهة السائق، فنظر إليهما جواد باستغراب، فما كان من كامل إلّا أن أدار مفتاح السيارة وأطفأها في الوقت الذي كان زميلاه يسحبان جواد إلى خارجها، فساعدهما هو بدفعه باتّجاههما حتى تمكّنا من إخراجه. وضع أحدهما يده على فمه ليمنعه من الصراخ والاستنجاد بأيّ إنسانٍ يمكن وجوده هناك، بينما أحاط الثاني خصر جواد بواسطة يديه كي لا يستطيع الحراك. لكن جواد كان قويّ البنية، وذا شكيمة تدفعه لعدم الاستسلام بسهولة لهؤلاء اللصوص. فراح يدفع بهما محاولًا التملّص من أيديهما، وهذا ما جعل كامل يرتعب إذا استطاع جواد الإفلات منهما. فتناول حجرًا من الإسمنت، وضربه على رأسه من الخلف، فخارت قواه، وهوى على الأرض.

عندما تأكدوا أن جواد قد انتهى، أتى كامل بـ«بطّانيّة» من غرفته وغطّاه بها من دون أن يخاف من أيّ مار في الخارج أو زائر مفاجئ. وأخذ الشنطة والتلفون من السيارة، ودخل الجميع الغرفة ليحتسبوا الغلّة ويتقاسموها فيما بينهم، كما تمّ إقفال التلفون. وكانت حصّة كلّ فردٍ عشرين ألف دولار. ثم بدأوا بالتداول في كيفية إخفاء الجثّة، فلفّوها بما تيسّر لدى كامل من شراشف، ووضعوها في صندوق السيارة حيث قادها فراس إلى مكانٍ مخفي قليلًا على الشاطئ، وتركوها هناك مغلقة، ورموا مفاتيحها وهاتف جواد في البحر، ثم غادروا متظاهرين بأنهم يتمشّون هناك إلى أن ابتعدوا عن الموقع، واستقلّوا «تاكسي» أوصلتهم إلى المكان الذي انطلقوا منه. قام كامل بتنظيف مكان الجريمة الذي سبق وغطّاه بالرمل بعد وضع الجثّة في السيارة، وذلك بشطف الأرض بكميةٍ كبيرة من الماء.

كانـت عائلـة جـواد بانتظـاره، وهـو الـذي وعدهـم بأنـه سـيكون في المـنزل مسـاء لاصطحـاب الجميـع إلى عشـاءٍ في الخـارج احتفـاءً بعيـد ميـلاد ابنتـه. بعدمـا اتّصلـوا بـه عـدّة مـرّات، وتلقـوا إشـارة بـأن الهاتـف مقفـل، بـدأ الشـكّ يتسـرّب إلى نفوسـهم. إذ ليـس مـن عادتـه أن يتغيّـب عـن الاحتفـال بعيـد ميـلاد أيّ مـن أولاده، خصوصًـا ابنتـه الـتي وعدهـا بمفاجـأة بعـد العشـاء. فاتصـل ابنـه بكامـل الـذي يـرى والـده يوميًـا، ويصطحبـه في العديـد مـن تنقلاتـه.

رنّ جـوّال كامـل الـذي عـرف المتصـلَ، فأجابـه بشـكل طبيعـي. كمـا أخـبره بـأن والـده أوصلـه إلى غرفتـه منـذ ثـلاث سـاعات أو أكـثر، وغـادر. عـاد كامل ليتلقّـى مكالمـة أخـرى مـن «هـدى» زوجـة جـواد تسـأله بعـض التفاصيـل عـن الوقـت الـذي رافـق فيـه زوجهـا، ومـا إذا ذكـر أمامـه بأنـه سـيتوجّه إلى أيّ مـكان مسـاء؟ فأجـاب بأنـه لـم يسـمع منـه شـيئًا.

إتصلـت هـدى بالشرطة تبلّغهـم عن اختفاء زوجها. وعندمـا حاولت الشرطة التخفيـف مـن احتمال الاختفـاء، أصرّت هي على أن زوجها ما كان ليتغيّب عن المـنزل هـذا المسـاء المهـمّ لـه ولأسرته إلّا لسـببٍ قاهـر. كمـا كان ليخبرهم بمـا حـدث معـه. لكـن شـيئًا مـن كلّ ذلـك لـم يحصـل، وهاتفـه مقفـل...

كان موعـد إقـلاع الطائـرة السـاعة الحاديـة عـشرة مـن صبـاح يـوم الأحـد. فـراس وحامـد انتهيـا مـن تحضـير كلّ مـا يلـزم للمغـادرة كي يكونـا في المطـار سـاعتين قبـل الموعـد، بينمـا كامـل تـرك الأمـر للحظـة الأخـيرة لأنـه لـن يأخـذ معـه إلّا حقيبـة ظهـر صغـيرة اعتـاد عـلى التنقّـل بهـا كي لا يلفـت انتبـاه مـن يـراه مـن الجـيران فيمـا لـو حمـل شـنطة سـفر. فقـد كان حريصًـا عـلى أن يقـوم بالخطـوات الباقيـة مـن دون أي خطـأ.

الأحد مساء كان مخفر الشرطة يضجّ بالحركة حيث جُلب أناس ليدلوا بإفاداتهم، بعد أن تمّ العثور عند الفجر على سيارة مركونة على الشاطئ خلف صخرة كبيرة أثارت حشرية أحد الصيّادين الذي اقترب منها، فشاهد بضع نقاط من الدم تتسرب من أسفل الصندوق. اتصل بالشرطة ليبلّغهم بذلك من دون أن يكون على علمٍ باختفاء جواد. توجّهت الشرطة إلى المكان، وقامت بأخذ البصمات وفتح الصندوق لتجد جثّة جواد داخله. إنه الرجل ذو القلب الطيّب والكريم مع كلّ محتاج، حوّلته عصابةٍ من اللصوص القتلة إلى جثة هامدة من دون خوف لأن الجرائم التي ترتكب في البلد قلّما يُحاسَب عليها المجرمون. وهذا ما جعل المواطنين يشعرون بأنهم ضحايا محتملين خصوصًا للغرباء، لأن الحكومة لا تنفّذ أيّ حكم إعدام بحق السفّاحين.

تطلب الشرطة من زوجة جواد التي تنتحب، وبالكاد ينقطع شهيقها أو بكاؤها، الإجابة عن الأسئلة حول ما حصل منذ خروج زوجها من المنزل صباح يوم السبت، لتروي ما اعتاد عليه من جمع ثمن المواد التي يبيعها لبعض المحال و«السوبرماركات»، إذ كان أحد الموظّفين لديه يقوم بتوزيع هذه المواد، بينما يقبض جواد ثمنها «كاش» في نهاية الأسبوع ليودع المبلغ صباح الإثنين في المصرف. والأمس كان مختلفًا إذ توقّعته العائلة أن يعود مع بداية المساء، ولما تأخّر بدأ الشكّ يتسرّب إلى تفكيرها بأن مكروهًا ما قد أصابه. وعندما سألها المحقّق عن كامل، أجابت:

- ما به؟ لقد أتت دورية صباحًا إلى منزلنا وشاء أفرادها التحقيق معه، وحاولت منعهم عن ذلك. فسألها المحقّق:

- لماذا حاولت منع الشرطة من فعل ذلك؟

- إنه في بيتنا بمثابة أحد أولادنا. فهو يعمل معنا منذ أكثر من عشر سنوات، ونثق به ثقة عمياء.

- متى ذهب إلى منزلكم يوم السبت؟

- أتى حوالى العاشرة مساء بعد أن اتصلنا به نستفسر عن جواد لأنه كان برفقته طيلة النهار.

- ومتى عاد إلى غرفته؟

- طلب أن يبقى عندنا للوقوف على أيّ طارئ يحصل، وليطمئنّ بأن جواد بخير عند ورود أيّ خبر عن ذلك. لذلك نام على «الصوفا» في المدخل، وقال بأنه سيرجع باكرًا إلى غرفته بواسطة تاكسي. لكن أتت الشرطة حوالى السابعة صباحًا، واصطحبته لتستوضح منه بعض الأمور.

- هل لديك أيّ شكّ بأن يكون مشاركًا في قتل زوجك؟

- لقد أخبرتك أننا بعد هذه «العِشرة» الطويلة، نعتبره كأحد أبنائنا، وغالبًا ما ندعوه لتناول الغداء معنا يوم الأحد لأنه يعيش بمفرده.

- ماذا لو قلت لك يا سيدتي بأن كامل هو من قتل زوجك؟

- ماذا؟ هل تتّهمه بأنه وراء مقتل جواد؟ فأنا لا أستطيع الشكّ به ولو للحظة!

- لقد اعترف للتوّ بذلك. إن القميص الذي كان يرتديها لحظة ضرب زوجك بحجر الإسمنت على رأسه، وجدتها الشرطة في غرفته ملوّنة بدم جواد. وقد حاول التملّص من الاعتراف بجريمته حتى انهار أخيرًا واعترف.

- -لا! لا أصدّق أنه فعل ذلك. إنني أخبرك بأنه مثل أحد أبنائنا... لم نبخل عليه بشيء؛ حتى إنه كان يتقاضى كلّ شهر «إكرامية» زيادة على راتبه ليساعد عائلته. لا. لا!

كامل اعترف بتفاصيل ما حصل، وكيف أقنع صديقه وأحد مواطنيه بالمشاركة معه في سلب جواد، لكن لم يكن ينوي قتله لو أنه لم يقاوم. كان الثلاثة سيكتفون بسلبه، ويغادرون بسرعة إلى بلدهم. لكن الخوف من انفضاح أمره، جعلهم يقدمون على قتله. وخطّط بأنه إذا أمضى الليل في منزل جواد بحجّة أنه يريد متابعة أمر اختفائه، فلن يشكّ أحد به، ويستطيع صباحًا الانضمام إلى صديقيه في المطار. أما المحقّق فأراد الوقوف على الدافع الذي قاد كامل لارتكاب هذه الجريمة، فاعترف هذا الأخير بأنه، وبعد أن ترك العمل وعاد إلى بلده، شاهد فيلمًا يحكي قصّة شخصٍ عاش وعمل لدى رجل آخر، ثم فكّر بأن له الحقّ في الثروة التي جمعها ربّ عمله، فقرّر أن يراسل جواد ويخبره بأنه عاطل عن العمل ويريد العودة للعمل لديه. وأجابه جواد بالإيجاب لأنه بدأ ببناء عمارة جديدة، وسيكون هو ناطور الورشة، ويساعده كالسابق في بعض الأمور الأخرى.

وكانت الشرطة قد انطلقت إلى مكانَي سكن المشاركَيْن في الجريمة للقبض عليهما، وعندما سألوا عن حامد في مبنى الأجانب، أفادهم من كان هناك بأنهم رأوه يغادر صباحًا وبيده شنطة سفر. سمعت «كوني» ما جرى، فجزمت بأنه فرّ عائدًا إلى بلاده كي يتهرّب منها. فراحت تبكي وتولول متهيّبة الآتي من الأيام الصعبة. إذ كيف عليها تدبّر أمرها بعد هرب الجاني عليها؟

تداولت الأمر مع سارة بكيفية التخلّص من الطفل لأنه لم يبقَ أمامها سوى هذا الخيار. كما عليها تدبير المبلغ الذي سيطلبه الطبيب. وبعد انتظارٍ دام عدّة أسابيع، ذهبتا إلى عيادة طبيب نسائي حيث رفض فكرة إجراء عملية إجهاض، وخاطبهما بلهجة تنمّ عن ازدراء، مخفيًا موقفًا سلبيًا من سلوكهما الذي أوصل إحداهما إلى هذه الحالة. وفي زيارةٍ لعيادة طبيبٍ آخر واجهتا الموقف نفسه، فعادتا خائبتين تلعنان الأطباء الذين لا يتفهّمون مشكلتهما لأنهما غريبتان عن البلد. كما أن سارة كانت تشعر بأنها «متّهمة» بالرذيلة كونها ترافق «كوني» في هذه الزيارات، لكنها قرّرت الوقوف إلى جانب صديقتها في معالجة المشكلة التي حصلت لها. موعدٌ ثالث ثم رابع والنتيجة نفسها. فاستبدلتا دور الطبيب بالقابلة القانونية. وبعد المعاينة، تردّدت هذه القابلة بإعطاء «كوني» حقنة لإسقاط الجنين لأنها غير مخوّلة طبّيًا لفعل ذلك.

لم تتراجع «كوني» عن قرارها بالرغم من أنها تخطت في حملها الشهر الرابع حيث انعدمت الخيارات أمامها، فأغرت القابلة بمبلغٍ من المال ما دفع بهذه الأخيرة أن تعطيها حقنة في الوريد ما سبب لها نزيفًا حادًا أدى إلى وفاتها.

سارة الوحيدة التي تملك سرّ موت صديقتها. لقد حاولت جاهدة مساعدتها، لكنها فشلت كما فشلت «كوني» في إبقاء حامد إلى جانبها، أو الاحتفاظ بالطفل الذي لا ذنب له، وساهمت في ترحيل جثمان «كوني» إلى بلدها، بعد أن جمعت من أصدقاءٍ آخرين كلفة نقله بالطائرة. أما حامد فقد نسي موضوع صديقته وطفلهما، واستمتع بالمال الذي سلبه من خلال عملية قتل جواد.

إمتحانات «مرضى السرطان»!!

يعـود جهـادٌ إلى منزلـه وهـو حائـر حـول مـا حصـل معـه ذلـك الصبـاح. فهـو مـا زال حديثًـا في التعليـم، وهـي المـرّة الأولى الـتي يتـمّ فيهـا تبليغـه بأنـه قـد عُـيّن مراقبًـا في الامتحانـات الرسـميّة في مدرسـةٍ ليسـت بعيـدة كثـيرًا عـن منزلـه. فقـد تـمّ اسـتدعاؤه مـن قبـل أحـد المسـؤولين في الحقـل التربـوي الـذي التقـاه سـابقًا في ورشـة عمـل، وأخـبره بأنـه هـو مـن عيّنـه في ذاك المركـز للامتحانـات الرسـميّة، خصوصًـا عندمـا اكتشـف بأنـه أسـتاذ متمـيّز في مـادة الرياضيـات. فشـكره جهـاد عـلى هـذه الثقـة والتقديـر. فاسـتطرد المسـؤول: لـم اسـتدعك كي تشـكرني، بـل هنـاك أمـر مـا عليـك تنفيـذه. فـإذا كنـت غـير مسـتعد لذلـك، أخـبرني، ثـم عـدْ إلى مدرسـتك.

- لكن لم تقل لي ما هو المطلوب مني كي أوافق أو أرفض.
- إذا كان الرفض لطلبي يرد في ذهنك، فالأفضل ألّا تعرف ذلك أبدًا.
- أنـا في حـيرةٍ الآن، ولا أدري كيـف أجيبـك. تطلـب مـني الموافقـة عـلى عمـلٍ مـا وأنـا أجهلـه!
- الأمـر ليـس معقّـدًا أو مخيفًـا. بـل عـلى العكـس، سـتنال عليـه مكافـأة مـع الوقـت. لكـن شَرطـي هـو أن تنفّـذ، لا أن ترفـض.

كان ذاك المسـؤول يخاطـب جهـاد بلهجـةٍ حياديـة، لكنهـا تنـمّ عـن وعـدٍ خفـي إذا تجـاوب مـع طلبـه، وهـو يحـدّق في عيـني جهـاد مستكشـفًا

منهمـا الجـواب قبـل أن يلفظـه بلسـانه. أمـا جهـاد ففكّـر بهـذه العبـارات الغامضـة، وكيـف عليـه الموافقـة العميـاء! ثـم اسـتخلص بسرعـة بـأن هـذا المسـؤول لـن يرسـله إلى تهلكـة طالمـا أنـه يعـده بمكافـأة يومًـا مـا. فقـال لـه:

- أوافـق إذا كان باسـتطاعتي تنفيـذ مـا سـتطلبه. فأنـا أثـق بـك حـتى ولـو كانـت معرفتنـا سـطحية حـتى الآن، لأن اختيـارك لي مـن بـين العديـد مـن زمـلائي هـو ثقـة مـن قبلـك، وهـذا شرف لي.

إنفرجت أسارير المسؤول، وبسرعة استطرد:

- إتفقنـا. وكلّ كلمـةٍ تسـمعها مـني لـن تفصـح عنهـا لأيّ كائـنٍ بـشري، وإلّا حوّلـتُ حياتـك إلى جحيـم.

- سيبقى ما تقوله لي سرًا مدى الحياة. أعدك بذلك.

- رائـع. الآن أثبَـتَّ لي بأنـك مـربٍّ شـهم يلـتزم بكلمتـه. إسـمع مـا لـديّ لـك: سـتكون في أثنـاء مسـابقة الرياضيـات في غرفـة رقـم ٢٠٦، الطابـق الثـاني في مركـز الامتحـان. وهنـاك سـيكون طالـب يتقـدم للشـهادة يدعـى (أ) ورقـم بطاقتـه (...). عليـك أن تتأكّـد بأنـك عرفتـه قبـل البـدء بتوزيـع المسـابقات. ولا تسـأله أيّ سـؤال خـاص مهمـا كان بسـيطًا. كمـا أنـك سـتكون أول مـن يقـرأ المسـابقة بينمـا مـن يشـاركك المراقبـة يتـولّى عمليـة التوزيـع. وبعـد عـشر دقائـق تتوجّـه إلى ذاك الطالـب، وتسـأله عـن المسـألة الرياضيّـة الـتي لا يسـتطيع حلّهـا. ثـم تسـاعده بسرعـة عـلى كيفيـة القيـام بذلـك حـتى لـو اضطـررتَ لحـلّ أكـثر مـن مسـألة.

- وإذا رآني مـن هـو أعـلى مـني رتبـة في المركـز، فمـاذا أسـتطيع أن أفعـل عندهـا؟

- هـو أيضًـا معَـيّن هنـاك للغايـة نفسـها. سيؤمّن لـك الغطـاء بـأن يبقـى قـرب بـاب الغرفـة كي لا يـأتي مسـؤول أعـلى بشـكلٍ طـارئ، ويراك تسـاعد ذاك الطالـب. لكـن لا تتواصـل معـه إلّا إذا كلّمـك أولًا.

ذهـب جهـادٌ باكـرًا إلى مركـز الامتحـان وهـو يرتـدي بذلـة صيفيـة غاليـة الثمـن، بعـد أن سرّح شـعره مسـاءً عنـد حـلاّق الحـي. كان يهمّـه أن يبـدو دائمًـا بمنظـرٍ لائـق ومرتّـب، إذ يحافـظ عـلى شـعره طويـلًا بعـض الـشيء، ويحلـق ذقنـه كلّ صبـاح، ولا يرتـدي الثيـاب نفسـها ليومـين متتاليـين. فهـو مـا زال في الخامسـة والعشريـن مـن عمـره، ويشـعر بأنـه يتلمّـس الحيـاة العمليـة بـدءًا مـن مدرسـته الـتي عُـيّن بهـا منـذ سـنتين، لكـن المهمّـة الـتي أوكلـت لـه لـم يكـن يتوقّعهـا، وقـد أربكتـه بعـض الـشيء.

بـدأت الاختبـارات بمسـابقة الرياضيـات، فقـام جهـادٌ بمـا طُلـب منـه، وكمـا وعـد المسـؤول عنـه. لكنـه حفـظ اسـم التلميـذ واسـم والـده، وقـام باسـتقصاءٍ خـاص حـول موقـع الوالـد ليكتشـف أن هـذا الطالـب «النجيب» هـو ابـن أحـد المسـؤولين. سـكت عـلى الأمـر كمـا وعـد، وأقنـع نفسـه بـأن هنـاك حـالات كثـيرة مـن أمثـال الحالـة الـتي عاشـها لأن المسـؤولين كـثر في البلـد وكذلـك أبناؤهـم، ومعظمهـم قـد رتّـب أمـر الامتحـان والمراقبـة كمـا حصـل معـه. لكـن بقيـت أسـئلةٌ كثـيرة ملحّـة تطـرق رأسـه: مـاذا عـن الطـلاب الذيـن ينتمـون إلى أسرٍ متواضعـة؟ فهـل مـن أحـد يسـاعدهم للنجـاح؟ ولمـاذا عـلى الطالـب أن يحـضر إلى المدرسـة للدراسـة طـوال السـنة إذا كان سـيعتمد عـلى موقـع والـده لتأمـين نجاحـه؟

أسـئلةٌ مشـابهة كان يتداولهـا مـع نفسـه يوميًـا إلى أن قـرأ في إحـدى الصحـف أن بعـض الطـلاب قـد تـمّ إعفاؤهـم مـن الامتحانـات، واعتـبروا ناجحـين

لأنهم مرضى بالسرطان. لكن التدقيق في الموضوع أثبت أنهم ليسوا كذلك، بل رشا أهلهم طبيبًا فأعطى أبناءهم تقارير كاذبة بهدف تجنيبهم المجازفة بالرسوب في الاختبارات، وبالتالي تأمين وصولهم إلى الجامعة (انتهى الخبر).

شعورٌ مزدوج راود جهاد في تلك اللحظات: إرتياحٌ من جهةٍ لأن ما قام به لا يُعدّ شيئًا مقابل ما قام به الطبيب، وبارتباكٍ من جهة أخرى فيما لو أن الجهات الرسمية تقصّت بعمق ظروف الامتحانات والتجاوزات التي حصلت فيها، واكتشفت أنه قد شارك في التزوير من خلال مساعدته لذلك الطالب. فكّر أكثر من مرّة بالبوح بما لديه لإراحة ضميره، ولتحمّل مسؤولية هذه الغلطة التي ارتكبها. لكن كيف يقوم بذلك؟ وأين يبدأ، ومع من؟ ارتسمت أمامه صورة جلال الذي اعتاد مصادفته والتحدث إليه من وقتٍ لآخر كونهما يسكنان في الشارع نفسه. فهو أراد أن يسأله رأيه بما عليه فعله قبل أن تتوسّع التحقيقات، وتطول كلّ من له ضلع في عمليات الغشّ التي تحصل في الامتحانات الرسمية. فقصده بعد ظهر أحد الأيام حيث ضمِن أن معظم الناس الذين لا يعملون يكونون في قيلولة ما بعد الغداء، وهكذا لن يصادف أحدًا هناك.

قرع الباب، وفتح جلالٌ مرحّبًا، لكنه لم يظهر أنه تفاجأ بزيارة جهاد له لأنه اعتاد على زياراتٍ مرتجلة من شباب الحيّ. جلس جهادٌ على كرسيٍ مقابل مضيفه الذي راح يداعب خصلةً طويلة من شعره بين الحين والآخر، ويسأله عن رأيه بما يحصل في البلد، وخصوصًا في الشارع الخلفي. أخبره جهادٌ أن أهل الحيّ يتداولون فيما بينهم ما حصل له، وبعضهم يثني على موقفه الشجّاع والشفّاف. فعلّق جلال:

- تقول بعضهم، تُرى ما يقوله البعض الآخر؟

- لا تحشرني أستاذ جلال. أنا أكتفي بالشيء الإيجابي.

- وأنـا يهمّـني الوجـه السـلبي. لا تخـشَ شـيئًا. لكـني أحـبّ أن أعـرف كيـف فكّـر النـاس بمـا حصـل لي.

- سـمعت الكثيريـن يقولـون عنـك إنـك «غـبي» -مـع عـدم المؤاخـذة- هـذا كلامهـم. يعتـبرون أنـه كان لديـك فرصـة لتتقـرّب مـن رجـل الأعمـال هـذا. فهـو أنشـأ الصحيفـة لتمجّـده، وليـس لتثقّـف النـاس كمـا اعتقـدتَ أنـت. ولـو سايرته، لكنـت تحصـل عـلى مـالٍ كثـير، وعـلى موقـعٍ لاحقًـا مـن خـلال الإشـادة بشـخصيته وإنجازاتـه، لكنـك ضحّيـت بـكلّ ذلـك لتجعـل الحقيقـة الـتي لا يهتـمّ بهـا أحـد، فـوق مصلحتـك الشـخصية.

- كنـت أتوقـع ذلـك. أعـرف أن ناسـنا يهمّهـم المـال والجّـاه، لكـن لا يكترثـون بطريقـة الحصـول عليهمـا. لـو كان كلٌّ منـا يسـاوم ويسـاير لأجـل مكسـبٍ مـاديّ، فأيـن يصبـح مجتمعنـا؟

- أتظـنّ هـذا المجتمـع في مكانـة مهمّـة مقارنـة مـع غـيره؟! أنـت خـير العارفـين.

- أنـت يـا جهـاد معلـم ثانـوي، فلـو سرّبـتَ أسـئلة الامتحـان سرًّا لأحـد أقربائـك لينجـح في الامتحـان، هـل كنـت تنـام مرتـاح الضمـير؟ هـل كنـت تفتخـر بذاتـك وأنـت تمـشي بـين النـاس أو تزورهـم حـتى ولـو لـم يعـرف أحـد مـا فعلـت؟ فكيـف إذا عرفـوا أنـك متواطـئ ومـزوّر، فهـل يبقـى «عنـدك عـين» لتمـشي في الحـيّ؟

بـدأ وجـه جهـاد يتلـوّن بالزهـري والأحمـر وهـو يتصـوّر نفسـه في هـذه المواقـف الـتي عدّدهـا جـلال. فكيـف لـه أن يخـبره بمـا فعـل في الامتحانـات الرسـميّة؟ ربمـا سـيحتقره بمجـرد أن يـسرد لـه مـا حـدث، ويطـرده مـن منزلـه. فغـيّر اتجـاه الحديـث بقولـه:

- لقد قرأت كتابك، وأعجبني كثيرًا.
- فعلًا؟! أو من باب المسايرة؟
- فعـلًا. وهـذا أحـد أسـباب زيـارتي لـك لأقـول لـك إن هنـاك مـن يقـرأ مـا تكتـب، ويقـدّره.
- لمن تقرأ أيضًا؟
- إن الكتّاب الجيدين كثر، وأقرأ لبعضهم كلّما توافر لي وقت لذلك.
- إليك بهذه النصيحة: إذا أعجبك كتاب، فاقرأه مرّة أخرى.
- فهمت قصدك، وأنت محق في ذلك.
- دقائق لأحضر القهوة.

إنتظـر جهـادُ «جـلال» كي يجلـب القهـوة الـتي حضّرها بنفسـه، فـشرب وإيّاه قهـوة «العصرونيـة»، واسـتأذنه بالمغـادرة مضيفًـا أن زيارتـه هـي للشـدّ عـلى يـده، وليقـول لـه وجهًـا لوجـه بأنـه يسـانده، ومعجـبٌ بشـخصيّته ومبادئـه وبكتاباتـه.

بـدل البـوح بالـسرّ، راح جهـاد يتابـع قضيـة «الادّعـاء بمـرض السرطـان» ليستكشـف مـا يمكـن أن يحـدث لـه إذا افتضـح أمـره، لكـن الصحـف أهملـت التـداول بالموضـوع، وكذلـك النـاس والحكومـة، مـا طمأنـه بأنـه لـن تتـمّ معرفـة مـا قـام بـه هـو أو أمثالـه. فالفضائـح في البلـد تبـدأ كبـيرة

ثـم تتـلاشى مـن دون محاسـبة المرتكـب ليظهـر غيرهـا، وهكـذا دواليـك. فالـرأي العـام غائـب كمـا المصلحـة العامـة، ولا أحـد يهتـمّ بمـا يحـدث مـن مغالطـات يدفـع ثمنهـا وطـن منـسي وشـعب مـتراخٍ.

أمّةٌ لا تقرأ!

عندما تمّ توزيع الكتاب الثاني لجلال على المكتبات، رفض بعضها وضعه على الرفّ لأن أحدًا لم يسأل منذ مدة عن أيّ كتاب للمطالعة. وكان جلالٌ في ذلك الوقت منشغلًا بعمله في الصحيفة، إذ كان يتابع ما يحصل محليًا وإقليميًا وعالميًا، ويدقّق ويكتب... أما الآن فبات متفرّغًا من دوام العمل ومتطلباته، فقرّر زيارة الناشر ليعرف ما حصل لكتابه بعد سنةٍ ونصف من نشره. تطلّع إليه الناشر وهزّ رأسه أسفًا على ضآلة مبيعه. وأردف: من خلال متابعتي للكتب التي أصدرتها في هاتين السنتين، فإن توزيعها أسوأ ما عرفت في حياتي المهنيّة. نرسل بضعة كتبٍ لكلّ مكتبة، وعندما نسأل عن مبيعها يأتي الجواب: كتابٌ واحد، كتابان، صفر! كما قلت لك، إننا نتّجه نحو التصحّر الفكري.

لم يعلّق جلال بأيّ كلمة. إذ استصغر التعليق على موضوعٍ ينبئ بالكارثة الفكرية في هذه البلاد. فعندما يبتعد الناس عن الكتاب، يكونون قد ابتعدوا عن أمورٍ كثيرة ترتبط بحياتهم الثقافية والفكريّة والروحيّة، وأصبحوا ماديين وأنانيين حيث يتركّز اهتمامهم على كلّ ذي نفعٍ لهم، وغالبًا ما يكون تافهًا، ولا يعودون يكترثون بتذوق الآداب وتقدير التراث الفكري لبلدهم أو غيره من البلدان. كما أن تفكيرهم يصبح مسطّحًا، وشغفهم بالأمور الجماليّة يختفي من مكوّنات شخصيّتهم. لكن ما باستطاعة جلال فعله؟ لن يتمكّن من تغيير هذا

الواقـع الـذي ارتضـاه النـاس، بـل جـلّ مـا يسـتطيعه هـو التعبـير عمـا يعتمـل في داخلـه نحـو هـذه الحالـة الشـاذّة الـتي يعيشـها مجتمعـه. فكتـب قصيـدة وهـو في ذروة تأثـره وألمـه، ونشرهـا لاحقًـا في القسـم الثقـافي في صحيفـةٍ غـير تلـك الـتي عمـل بهـا، تحـت عنـوان:

أمّتي لا تقرأ

لمَنْ تكتبَ القصص والروايات؟
لمن تكتبَ القصائد والمقالات؟
بربِّكَ، قل لي لمَنْ!
فأمّتي لا تقرأ،
وسعيدةٌ لأنها تعيش خارج الزمَنْ.
إنها في ملهاة،
تتسلى بالقتال والتفجيرْ،
وبفتاوى الزندقة والتكفيرْ...
وتعتبر منْ لا يسير في الركب
خائنًا ومرتدًا وحقيرْ.

* * *

أمّتي تنبّهت حديثًا إلى تخلّفها،
فوجدت أسبابَه في كتب الأدباء،
والفلاسفةِ والعلماء،
وأهلِ العلم والشعراء،
فسجنت القصيدة،

وأعدمت الكلمات،
ورشّت ما تحمله من «أفكار هدّامة»
بشتى أنواع المبيدات.

* * *

وبألف جلدة حكمَتْ على أشعار نزار،
وأحرقتْ قصائدَ أبو النوّاس في النار.
ومنعتْ تدريسَ الفلسفة والمنطق،
فهما وجهان خفيّان للاستعمار.

* * *

يقظة أمّتي، يقظة أهل الكهف،
بعد قرونٍ من الظلام ،
والتبعية والاستسلام.
الجلاّد أيقظها من سباتها العميق،
ولساديّته عبّد الطريق
بجلد من يفكّر، أو يعشق،
أو يقرأ كتابًا لـ«زنديق».

* * *

أمّتي باتت آمةً للجلّاد،
يضاجعُها متى شاء،
وفي سوق النخاسة
يبيعُها متى شاء،
وبسكينه «المقدّسِ» يبقر بطنَها
ليخرجَ جنينَها من الأحشاء،
متى شاء.

* * *

أمّتي تحضّرُ أجيالها لمحاربة الكفّار،

ودحرِ الأعداءِ وعبدةِ النارْ،

وحزّ أعناقِ المفكّرين «التائهين»

في سراديب «الزندقة والعار».

فمن أين لهؤلاء الحقُّ بالتفكير والكتابة،

والتحليلِ والخطابة...

من أين لهم الحقُّ باستخدام عقولهم؟

أو منطقهم؟

فكيف سيواجهون ربَّهم يوم الحساب؟

يا ويلهم! يا ويلهم!

عقابهم؟!

سيكون أسوأ عقاب،

حيث تُبعجُ البطون،

وتُحَزُّ الرقاب....

لا تنتهي القصيدة هنا، بل تشتمل على أبياتٍ أخرى تستطرد في وصف ما آلت إليه الأمة التي «تتحجّج» دائمًا بأن الاستعمار يتآمر عليها، وهو مسؤول عن تخلّفها، وعن مصير أجيالها التائهة عن الصراط المستقيم... كانت هذه القصيدة مدار تداول بين القرّاء، وكُتب حولها كثيرٌ من التعليقات، بينما قام آخرون بنزعها من الصحيفة، وتعليقها في مكاتبهم للتندّر خلال الاستراحة اليوميّة بترداد كلماتها. بضعةٌ أيام، وتمّ استدعاء جلال إلى مخفر الشرطة للتحقيق معه بتهمة إهانة الأمّة.

ضحك عندما وجّه إليه المحقّق سؤالًا يتضمّن هذا الاتهام. فأجابه: بربّك! دلّني أين أجد هذه الأمّة كي أقبَلَ اتهامك؟

- إنها الأمّة. جميعنا يعرف أننا ننتمي إلى أمّة. ألا تنتمي إليها أنت؟ من كنت تهاجم إذًا في قصيدتك؟

- إنها أمّة رمزية، وباتت شمّاعة نعلّق عليها فشلنا وأوساخنا. فهل أنت تتناول راتبك من الأمّة؟ هل حقّقت يومًا مع الأمّة لأنها ارتكبت جنحة؟ أو لأنها خالفت قانون المرور؟

ضحك ذاك المحقّق، وقال لجلال: «لقد دوّنت هنا ما قلتَه، وسأرفعه بحسب الأصول إلى من طلب مني ذلك. فعلًا، أين أجد الأمّة؟» وأردف: «لقد نسيت أن أدوّن عنوان سكنك».

- إكتب: جلال المجاهدي، بناية المنسيين، الشارع الما-بعد الشارع الخلفي. إذا أحببت أن تزورني يومًا، فأهلًا بك. أنا أعيش بمفردي، وموجود غالبًا في المنزل.

راح المحقّق يرتّب تقريره، بينما خرج جلال وهو يشيد بروح الحرّية الفوضويّة في هذا البلد، والتي تتيح له التعبير عن رأيه من دون خوفٍ من السلطات، ويتساءل متى سيأتي يومٌ وتُكمُّ الحكومة أفواه الذين يرفعون أصواتهم ضدَّ واقعٍ مرير ومهزوم، وضدّ ثقافة اللامبالاة والتصحّر والتفاهة؟

صخبٌ في الحيّ

في «مقهى أبو الهول»، يتجمّع بعض أبناء الشارع الخلفي كعادتهم كلّ مساء، والأراكيل هي القاسم المشترك فيما بينهم. يتناقشون بالأمور السياسيّة التي تحدث يوميًا، والتي لا تشبه ما يحدث في دول أخرى. ربما لأن بلدهم قد وجد ليكون مميّزًا بأشياءٍ كثيرة، أهمّها ما يبتدعه المسؤولون السياسيون من أمورٍ لم يسبقهم إليها أحد في أيّ جمهوريّة أو مملكة أو إمارة.

طغى على مناقشاتهم تلك الليلة ما تضمّنه تقريرٌ أممي يضع بلدهم ضمن البلدان الأكثر فسادًا في العالم. لقد امتعضوا من هذا التقرير الذي يشوّه سمعة البلد الذي يعتزّون به حيث بإمكان المرء أن يفعل ما يشاء، ويحصل على ما يشاء مع الرشوة والاستنفاع، كما يعرف الجميع، بينما هكذا ظروف لا تتوافر في معظم المجتمعات التي زاروها، أو قرأوا عنها كأوروبا وأميركا وأستراليا. أليست هذه ميزة لبلدهم؟ من الصعب أن يستوعب الأجانب ذلك. لكن ما همّهم من الأجانب إذا عرفوا ما يجري في بلدهم! يبقون زوارًا وسائحين، بينما هم المواطنون الذين يسهرون على مصلحة الوطن... وبعد جولةٍ عامة من الاستنكار، وبعد أن مجّ أحدهم الأركيلة مرّتين متتاليتين بعمق، قال بصوت عال:

- تعالـوا نفكّـر ببعـض المنطـق والعقلانيـة. لقـد أتخمتـم سـمعي بالافتخـار أننـا مـن بنـاة الحضـارة العالميّـة، وبلدنـا هـو بلـد الإشـعاع والنـور والفـن و... هـل تعتقـدون أن هـذه المنظّمـة الدوليّـة تكرهنـا لتضـع تقريـرًا ضـدّ بلدنـا، وتصـوّره بأنـه «فالـت» أمنيًـا وإداريًـا مـا سـمح للمسـؤولين باقتنـاص الفـرص، وسـلب أمـوال الخزينـة؟

- أوافقـك الـرأي بـأن المنظّمـة ليسـت عدوّتنـا، لكـن ليـس لهـا الحـقّ بنـشر مـا تعتـبر أنهـا اكتشـفته، ردّ عليـه أحدهـم.

- فقـال آخـر: إذًا، لمـاذا عليهـا معرفـة مـا يحصـل إذا كان يجـب ألا تنـشره؟ مـا جـدوى ذلـك؟

- علّـق رابـع: لمـاذا لا تنـشر المنظّمـة أسـماء الفاسـدين فيعرفهـم النـاس، وتجعلهـم بذلـك يخجلـون مـن فعلتهـم. كذلـك لا يعـود السـفراء والمبعوثـون الأجانـب يتهافتـون للقائهـم، بـل يرفعـون تقاريـر لحكوماتهـم عـن سـلب المـال العـام بواسـطة المتسـلّطين علينـا. هـؤلاء الذيـن يرموننـا بالوعـود في إصـلاح حـال البلـد، وإنشـاء المشـاريع التنمويّـة، يتحوّلـون بعـد فـترةٍ مـن وعودهـم الوهميـة إلى أشرس الفاسـدين في العالـم. تـرى مـا يحصـل لهـم؟ هـل السـلطة «فـيروس» يجعلهـم وحوشًـا جائعـة للمـال الحـرام؟

كان أسـامة هنـاك يصغـي باهتمـام، لكنـه أرجـأ قـول مـا لديـه حـتى وصـل زميلـه إلى هـذه النقطـة، فتلقّـف الـكلام قائـلًا: «أنـا لـدي تفسـيرٌ لمـاذا ينقلـب هـؤلاء مـن أنـاسٍ لطفـاء مهذّبـين إلى وحـوشٍ كاسرة». سـكت الجميـع، وتوجّـه إليـه أحدهـم، والـذي يعـرف أسـامة جيـدًا:

- أتحفنا الآن بتحليلك الجارح!

- للوصـول إلى هـذه المرحلـة مـن التعفّـن والفسـاد لرجـال السياسـة عندنـا، توجـد عـدّة محطّـات لا بـدّ مـن أن يجتازوهـا، وبنجـاح. تتمثّـل الأولى بـأن يجـد هـذا الطامـح وسـيلة للوصـول إلى السـلطة، ومـن مكوّنـات شـخصيته أنـه جائـع للسـلطة وللمـال. فيمـارس الأولى في البدايـة بهـدوء، وينتظـر متعفّفًـا عـن المـال لبعـض الوقـت. وهـذا يزيـد مـن جوعـه لـه، لكنـه يتحمّـل فـترة الانتظـار كالعاشـق الـذي يعـد نفسـه بالوصـال بعـد طـول الجـوى.

- أحدهم مازحًا: آه.. آه ع الغزل! هيدا غزل سياسي!

يضحك الجميع، ويتابع أسامة:

- وبعـد أن يثبّـت نفسـه في موقـعٍ سـلطوي، يـروح يراقـب كيـف تجـري الأمـور حولـه. فيكتشـف بسـهولة المنغمسـين في مزبلـة الفسـاد، فيتشـجّع ويمـدّ يـده بخفـة، مكتفيًـا بمـا يمـلأ كفّـه كأول خطـوة. فالخجـل مـا زال لـه حصّـة ولـو بسـيطة في شـخصيته.

وبعـد فـترةٍ مـن الانتظـار لمعرفـة مـا إذا كان اسـمه يُتـداول مـع السـارقين، وعندمـا يجـد بـأن النتيجـة «نكاتيـف»، يمـدّ يديـه الإثنتـين ويغـرف أكـثر مـن المـال العـام الـذي يتـمّ جمعـه بواسـطة الضرائـب المفروضـة علينـا نحـن الفقـراء. ومـن ثـم يرتفـع مسـتوى طموحـه إلى القطـاع الخـاص حيـث يصبـح لديـه أسـهم في الـشركات والمؤسّسـات بتسـخير القانـون والتحايـل عليـه.

وختـم أسـامة مستشـهدًا بقـول أحدهـم: «إذا اسـتطعت أن تقنـع الذبـاب بـأن الزهـور أفضـل مـن القمامـة، حينهـا تسـتطيع أن تقنـع الفاسـدين بـأن الوطـن أغـلى مـن المـال». صفّـق لـه الموجـودون، وقـال أحدهـم:

- صح! لكننا ابتلينا بهم كما ابتلى أجدادنا بالهواء الأصفر والجُدَريّ والطاعون.. إنهم ينهشون الوطن كسرطانٍ تمكّن من عظامه وعضلاته.. لا أمل بالشفاء يا أخي.

تناول الكلام من افتتح نقاش هذا الموضوع بقوله:

- لماذا نتكلّم بالمطلق عنهم في حين أننا نعرفهم؟ لماذا نخجل من ذكر أسمائهم؟ أنا أعرف معظمهم، فلماذا علينا انتظار المنظّمة لتسميتهم؟

- سمِّ من تعرف لنرى إذا كنت فعلًا تعرفهم! ردّ عليه أحدهم.

- إذا كان في الأمر تحدٍّ، فإليكم أسماؤهم: أبو مارون، وأبو شربل، وأبو جوزيف، وأبو مخايل...

- اسكت ولاه! (قاطعه آخر). أوعا تجيب سيرة هودي الناس. هودي أشرف بشر. بدّك أنا تا سمّيلك مين السرّاقين من المسؤولين؟ ومن دون أن ينتظر جوابًا، قال: إنهم أبو محمد، وأبو حسن، وأبو علي، وأبو عارف.

صوتٌ يأتي من آخر المقهى، ويشتم من عدّد هذه الأسماء، ويزيد:

- هودي اللي عدّيتهن بيشرّفوا راسك وأهلك وطايفتك... اعرف حدودك حتى ما كسرّك...

وازداد التلاسن، وتدافع الموجودون حيث انقسموا إلى فئتين، تدافع كلّ واحدة عمّن ذُكرت أسماؤهم.

إستجلبت الضجة أحد سكّان الحيّ المارّين هناك بالصدفة، وهو كبيرٌ في السنّ، وعلى محيّاه سيمة الرصانة والحكمة، فدخل المقهى

ليقـف عـلى سـبب هـذا الضجيـج الصاخـب. إختـصر لـه صاحـب المقهـى مـا حصـل، وبأنـه عجـز عـن إسـكاتهم. لكـن هـذا الرجـل اسـتطاع «فـضّ الاشـتباك» الكلامـي، واسـتطرد:

- إن مـن تدافعـون عنهـم مـن هـذا الفريـق أو ذاك مجتمعـون الآن في «مطعـم القريـدس» عـلى الشـاطئ، وأنـا رأيتهـم يتسـايرون ويمضـون وقتًـا جميـلًا مـع نسـائهم، ويجلسـون إلى طاولـةٍ واحـدة. ومـا يكلّفـه عشـاؤهم هنـاك يسـاوي رواتبكـم جميعًـا. بينمـا أنتـم تختلفـون فيمـا بينكـم لأجلهـم!

لكـن هـذا الـكلام لـم يـترك تأثـيره عـلى الجالسـين في المقهـى، بل اسـتأنفوا نقاشـهم بصـوتٍ عـال، فعـاد هـذا المسـنّ الحكيـم يطلـب إليهـم الهـدوء، وينصحهـم بعـدم التجمّـع إذا كانـت لقاءاتهـم سـتنتهي بمشـاكل لا داعـي لهــا. وأضــاف: «ظننــت أن جيلكــم ســيكون أفضــل مــن جيلنــا بعــدم التبعيــة والتصفيــق لأنكــم تعلّمتــم في المــدارس والجامعــات، لكنكــم تفوّقتـم عـلى الجيـل الـذي سـبقكم في التزلّـم والتعصّـب. صدّقـوني، لـن تـروا في هـذا الحـيّ حبّـة زفـت لطرقاتـه، ولـن يجـد أحدكـم عمـلًا إلّا إذا نـام عـلى درج أحـد هـؤلاء المسـؤولين بضعـةَ ليـالٍ. أنتـم تعيشـون في بلـدٍ تتقاسـمه حفنـة مـن «عـرّابي المافيـا»؛ بلـدٌ يفتقـر إلى رجـالِ دولـة يهتمّـون بمصالحـه وبمصـير أجيالـه، فلمـا تدافعـون عنهـم وتتخاصمـون لأجلهـم؟»

وبعـد أن انـصرف اسـتأنف الموجـودون في المقهـى الـصراخ والزعيـق دفاعًـا عـن زعمائهـم الذيـن مُسّـتْ «قداسـتهم»، مـا دفـع صاحـب المقهـى أن يقفلـه باكـرًا عـلى أمـل أن تهـدأ النفـوس.. ومسـاء اليـوم التـالي عـاد الـروّاد إليـه وكأن شـيئًا لـم يحـدث.

الملهى النهاري

على بعد خمسين مترًا من مقهى أبو الهول، وإلى جانب مطعم «ملك الفول السوداني»، يوجد مقهى صغير يواجه مدخلَه ملهى ليليٌ تجري فيه أمور تثير الشكّ. فهو يعمل ٢٤/٢٤، بينما المتعارف عليه في المدينة بأن يقفل الملهى خلال النهار، ويفتح متأخرًا في المساء حتى مطلع الفجر. لكن صاحبه يستغلّه لأمور غير أخلاقيّة. وبالرغم من ذلك، فهو لا يخشى المساءلة من قبل شرطة الآداب لأن هناك من «يدعمه».

يأتي بعض الرجال خلال النهار ويجلسون في المقهى، يرتشفون القهوة ويدخّنون بشيءٍ من العصبيّة، وعيونهم شاخصة إلى الخارج ريثما يصل قريبهم رجل تجاوز الخمسين من عمره، لكن شعره المصبوغ بالأسود، وقصر قامته تخدع الناظر إليه بالنسبة إلى سنّه. كما أنه طليق اللسان، يختار كلماته بشكلٍ لا يسبّب إزعاجًا لمن يخاطبه، بل يزيد من الاعتذار والمديح خلال حديثه. هذا «أبو الفوف» الذي يستجلب الزبائن «النهاريين» للملهى. إذ يطرح سؤاله على من يلقاه في المقهى بطريقة مواربة حيث يفهم السامع بأنه يوحي بتوافر نساء للمرح إذا كان قاصدًا ذلك. ثم يدخل الإثنان في حوارٍ حول النوعيّة والوقت والكلفة. وإذا حصل «التفاهم»، يتسلّل الزبون من الباب الخلفي لمطعمٍ فخم مدخله الرئيسي يطلّ على «شارع الواجهة». فينزل سلّمًا لولبيًا ليصل

إلى قاعة تملؤها أضواء خافتة يطغى عليها اللون الأحمر. وهناك يقدّم له «أبو الفوف»، «البضاعة» التي وصفها له، فيلقي الزبون التحيّة، ويجول بنظره على بضع نساء يجلسن بطريقة إيحائية جنسيًا، وخلال دقيقتين تكون خادمة قد جلبت صينيّة عليها فنجان قهوة أو كأس من «الويسكي». إذ لا خيارات كثيرة من المشروبات أمام الزبون، لأن الهدف ليس قضاء الوقت بقدر ما هو قضاء حاجة محدّدة. وبعد دقائق يكون قد اختار إحداهن، وانسحبا للاختلاء في غرفةٍ جانبية.

في إحدى المرّات سمع من في ذلك المكان صراخًا وكلمات بذيئة، فاسرع «أبو الفوف» مع الخادمة وإثنتين من النساء إلى الغرفة التي صدر منها الصوت، ليروا رجلًا ممسكًا بيد المرأة التي رافقته إلى الداخل، ويضغط عليها صارخًا:

- وين مصرياتي؟ كيف نشلتيني بهالسرعة يا ...؟
- أقسم بالله أني ما سرقت منك شي. أنا ما بسرق...
- وبتحلفي بالله؟ ليش العاهرة بتعرف الله؟

هذا جزء من الحوار الساخن الذي سمعه «أبو الفوف» ومن معه، فطلب إلى الزبون الهدوء متكفّلًا بحلّ المشكلة، لكن بالتروّي وليس بالصراخ الذي لن يوصل إلى نتيجة. وبعد أن أخبره الزبون بأنه عندما دخل الغرفة كانت المرأة تتأبّط ذراعه، وقد تلهّى بها وهي تسمعه كلامًا جميلًا لتمدّ يدها بخفّة، وتنشل ألف دولار كانت بجيبه. وقد اكتشف ذلك عندما أراد أن يدفع لها ما اتفقا عليه.

كانت تلك المرأة تصغي وتشهق بالبكاء، وتلعن هذه المهنة القذرة التي اضطرت لممارستها لظروفٍ لم يفهمها أحد، بل كلّ ما فهمه

الرجـال هـو التمتّـع بجسـدها مقابـل حفنـة مـن الـدولارات. وأنهـا أصبحـت بمسـتوى الحضيـض لأنهـا تشـعر بـأن كرامتهـا كإنسـانة مُرمـى بهـا عـلى الأرض حيـث يدوسـها أيّ كان. فهـي جميلـة جـدًا، جسـدها متّسـق في تكوينه وتعرجاتـه، طويلـة القامـة، وذات شـعر أشـقر يبـدو طبيعيًـا وليـس مصبوغًا مـا يضفـي مزيـدًا مـن الجاذبيـة عـلى طلّتهـا. وعندمـا يجتمـع الجمـال مـع البـكاء يصبـح الموقـف دراميًـا حيـث يتمـنّى مـن يشـاهد ذلـك أن تكـون القضيـة غـير صحيحـة شـفقة بالرقـة والحـلا.

قـاد «أبـو الفـوف» الزبـون إلى غرفـة أخـرى، ووعـده بأنـه سـيعوّض عليـه المبلـغ إذا لـم يجـده. وهـو يريـد أن يحقّـق مـع المتّهمـة بطريقتـه الخاصـة حيـث لا يمكنهـا أن تتملّـص منـه، لأن رزقهـا مرتبـط بقبولـه بهـا تعمـل في الملهـى مـن دون أن تتعـرّض لمداهمـة الشرطـة لهـا، خصوصًـا وأن إقامتهـا في البلـد باتـت منتهيـة. ولـم ينـسَ أن يسـأله عـن رقـم هاتفـه واسـمه للاتّصـال بـه لاحقًـا، فأعطـاه الرقـم، مـع الاسـم «مـازن»، بينمـا وقفـت النسـاء الثـلاث بشـكلٍ تضامـني مـع زميلتهـن. فواحـدة وضعـت يدهـا عـلى كتفهـا وراحـت تجذبهـا نحوهـا بـين حـينٍ وآخـر، وكأنهـا تقـول لهـا أن تبقـى متماسـكة ولا تشـعر بأنهـا وحيـدة، والثانيـة كانـت تربّـت عـلى كتفهـا، بينمـا تضامنـت الخادمـة معهـا بنظراتهـا الحزينـة مـن خـلال عينـين دامعتـين. فالمـرأة هـي الكائـن الأكـثر فهمًـا للمـرأة بغـضّ النظـر عـن عمـل كلّ واحـدة أو ثقافتهـا أو موقعهـا الاجتماعـي.

غـادر مـازن الملهـى لأنـه لا يسـتطيع أن يفعـل أكـثر مـن ذلـك. إذ خـشي أن يتطـوّر الأمـر ويبلّـغ أحدهـم الشرطـة الـتي لا بـدّ وأن تدخـل المـكان عنـد حـدوث أيّ مشـكلة، وهـذا موقـف محـرج لـه، لكنـه أمـل أن يعوّضـه صاحـب الملهـى المبلـغ الـذي سرق، أو جـزءًا منـه عـلى الأقـلّ. لكنـه تابـع

شتم تلك المرأة بصوتٍ منخفض، ومتوعّدًا إيّاها بعقابٍ كبير إذا لم تردّ له ماله.

جلس «أبو الفوف» مع المتّهمة، وراح يصارحها بما سيفعله إذا لم ترجع المال لأنه حريص على سمعة المكان، وهي لا تفهم ما يمكن أن يحصل إذا شاع الخبر بين الزبائن بأن هناك امرأة محترفة في النشل تعمل في الداخل. راحت تجهش بالبكاء، وتقسم بأنها لم تضع يدها في جيبه، وكلّ ما قامت به هي أنها استلطفته، فأرادت أن تظهر له اهتمامها به بأن تتأبّط ذراعه وتقوده إلى غرفتها، بينما هو بادلها ذلك بشتمها واتّهامها بسلبه. وعندما عجز «أبو الفوف» عن انتزاع اعتراف منها بأنها سرقت المال، خرج إلى الشارع ليتابع عمله ويفكّر بما يمكن أن يفعله عندما يلتقي صاحب الملهى ليحاسبه في دخل اليوم، ويناقشه بكيفية حلّ مشكلة مازن.

عاد إلى المقهى مجددًا، وراح يحوم حول الزبائن هناك. فهو بات يعرف معظم من يتردّد إلى الملهى. وإذا بعامل الأراكيل يقترب منه ويطلب إليه أن يكلّمه في الخارج حيث يشعل الفحم. لاقاه متسائلًا عما يريد منه، فقال له: «إسمع ما سأخبرك به. لقد كان رجل يجلس قرب الباب ورأيتك تتحادث معه منذ أكثر من ساعة. وكان يرتدي قميصًا أبيض وأسود. وعندما مدّ يده إلى جيبه ليخرج الجوّال، وقع منه مال على الأرض من دون أن يتنبّه لذلك». فقاطعه «أبو الفوف»:

- أين المال؟ هل هو معك؟

- لا. ليس معي. وسألتك أن تأتي هنا لأخبرك الحقيقة. كان يجلس على الطاولة المجاورة رجلٌ يرتدي جاكيت «جينز»، تلفّت حوله

بسرعــة، وتنــاول المــال، وخــرج بهــدوء. لحقــت بــه وقلــت لــه بأنــي رأيــت مــا فعــل، وعليــه أن يقتســم المبلــغ معــي، فشــتمني، وقــال لي إنــه هــو مــن وقــع المــال منــه. ومــا عــليّ إلّا أن أهتــمّ بطلبــات الزبائــن، ولا أتدخّــل بمــا حصــل معــه.

- أين ذهب؟
- لقد دخل إلى الملهى.
- أنا لا أسألك عمن أضاع المال، بل عن الذي أخذه.
- بعد أن كلّمني بقسوة، اتّجه نحو شارع الواجهة.
- لقــد عرفتــه. كان يســألني عــن نســاءٍ لمجــرد تضييــع وقــتي، ولــم يكــن جدّيًــا أبــدًا. رأيتــه مــرّة يتســكع مــع شــقراء في «المــول». ســأذهب هنــاك، وسأجده يومًــا مــا. لكــن لا تخــبر أحــدًا بمــا أخبرتــني. ولــك مــني «حلوينــة» إذا وجدتــه.

راح «أبــو الفــوف» يــتردّد يوميًــا إلى «المــول»، فيقــوم بجولــة سريعــة متفحّصــة عــلى المقاهــي والمطاعــم ربمــا يصــدف ذاك الرجــل. ولــم يطــل الوقــت حــتى رآه جالسًــا يحتــسي القهــوة، فتقــدم نحــوه وبــادره:

- ألا تريد امرأة اليوم؟ لدينا «بضاعة» شقراء لا بدّ وأن تعجبك؟
- لا أريد شيئًا. ماذا تريد مني حتى تأتي إليّ وتخاطبني هكذا؟
- أبحــث عنــك لأنــك أخــذت المــال الــذي وقــع مــن جيــب أحــد الأصدقــاء منــذ أربعــة أيــام. وأنــا متأكــد أنــك لــم تنــسَ ذلــك. كمــا أن مــن أضــاع المــال يبحــث عنــك ليــس بهــدف اســترجاع الألــف دولار، بــل «ليدعوسك». وأنــا أحــاول نقــل رســالة إذا كنــت حريصًــا عــلى كرامتــك، ولا تريــد أن «تتبهــدل» أمــام النــاس.

تلعثـم ذاك الرجـل، وأراد أن يهـدّد «أبـو الفـوف» الـذي بـادره: سـأدلّه عليـك بـأسرع وقـت إذا لـم تعطـني المـال الآن. ليـس أمامـك مفـرّ مـن هـذا. قـرّر بسرعـة وأخـبرني. فالرجـل ينتظـر مـني «تلفـون» عندمـا أجـدك، وإذا كنـت لا تصدّقـني سـأوصلك بـه. وأخـرج هاتفـه وضغـط عـلى رقـم مـازن الـذي خزّنـه يـوم حـدوث المشـكلة، ثـم نـاول الهاتـف لـذاك الرجـل: سـيردّ عليـك، وحـلّ مشـكلتك معـه. أقفـل التلفـون بسرعـة، وبـادره بصـوتٍ منخفـض: إسـمع. نعـم، لقـد وجـدت المبلـغ عـلى الأرض، وأتى عامـل الأركيلـة ليقتسـمه معـي، لا شـكّ أنـه هـو مـن أخـبرك. ليـس معـي الآن إلّا سـتمائة دولار. سـأعطيك إيّاهـا، وأنـت تسـلّمها لـه. لا أريـد أن ألتقيـه أو أتعـرّف إليـه. أنـا لـم أسرقـه، وسـأجلب لـك البـاقي غـدًا. هـذا وعـد شرف.

- إذا لـم تجلـب البـاقي غـدًا، وتسـلّمني إيّـاه هنـا في مثـل هـذا الوقـت، سـيتتبّعك ويمسـك بـك، إلّا إذا هربـت خـارج البلـد.

- قلت لك غدًا، أعني غدًا.

حمـل «أبـو الفـوف» المبلـغ وعـاد إلى عملـه، فطيّـب خاطـر تلـك المـرأة بقولـه إنـه يعتقـد بأنهـا بريئـة، وسـيجد مـن أخـذ المـال مـن ذاك الزبـون. أرادت أن تعـرف أكـثر، فأظهـر لهـا بأنـه يتعامـل مـع الشرطـة المختصّـة في الموضـوع، ومـا عليهـا إلّا أن تعمـل بمـا يمليـه هـو عليهـا. واتصـل مسـاءً بمـازن وأخـبره بـأن جزءًا مـن ماله أصبـح بعهدتـه، وغـدًا سـيكتمل المبلغ كما وعـده صاحـب العلاقـة. وعندمـا أراد مـازن الاستفسـار عمـا حصـل، طلـب إليـه أن ينتظـر حـتى الغـد ليعطيـه المـال، ومؤكّـدًا لـه بـأن «باميـلا» بريئـة.

في اليـوم التـالي جلـب ذاك الرجـل بقيـة المبلـغ وسـلّمه لـ«أبـو الفـوف»، مـع وعـدٍ مـن الأخـير بـألّا يفصـح عنـه بـأيّ شـكل. وعـاد واتصـل بمـازن

وطلب إليه أن يلاقيه في المقهى ليسلّمه المبلغ، ومن دون أن ينسى تقديم «إكرامية» لعامل الأراكيل.

تاجرُ الموت

في نهايـة الشـارع الخلفـي، وعـلى بعـد مائـتي مـترٍ تقريبًـا مـن الملهـى، اسـتأجر أحدهـم شـقة صغـيرة في مبـنى مـن ثـلاث طبقـات ليسـكنها وزوجتـه، لكنهمـا تجنّبـا زيـارة الجـيران. لأنّ مـن المتعـارف عليـه بـأن يأخـذ القـادم المبـادرة، ويلقـي التحيّـة عـلى مـن يسـكنون المبـنى، ويعرّفهـم بنفسـه. وبعـد ذلـك يقـوم هـؤلاء بـ«ردّ» الزيـارة حيـث يُفتح بـابٌ لعلاقات الجـيرة، وتتكـرّر بعدهـا الزيـارات في مناسـبات مختلفـة.

فضّـل هـذا القـادم الجديـد أن يبقـي مسـافة بينـه وبـين مـن يعيـش في مبنـاه والمبـاني المجـاورة. وهـذا شـكّل لغـزًا لسـليم الـذي يعـرف أخبـار الحـيّ بـكلّ تفاصيلهـا. فهـو وُلـد هنـاك، وورث إيجـار الشـقة مـن والديـه كمعظـم أبنـاء الحـيّ الذيـن في سـنّه، ومـا زال يعيـش بهـدوء واطمئنـان. وسـليمٌ هـذا نحيـف الجسـم، وطويـل القامـة، وجـوزة حلقـه نانئـة مـا تجعلـه مميّزًا بشـكلٍ مـا، وتجعـل مـن يجالسـه للمـرّة الأولى مركّـزًا النظـر عـلى هـذه الحركـة «الرتميـة» لجوزتـه في صعودهـا ونزولهـا بانسـجامٍ مـع نطـق الكلمـات. كمـا أنـه مـرحٌ وكثـير الـكلام، ويقـوم بواجباتـه الاجتماعيـة نحـو أبنـاء الحـيّ في مناسـبات المـوت أو الأعيـاد أو نجـاح أحدهـم بالشـهادة... وهـم يرحّبـون بـه، أولًا لأنـه يتفقّدهـم ويشـاركهم مناسـباتهم، وثانيًـا لأنهـم يعرفـون مـا يحصـل في الحـيّ يومًـا بيـوم مـن خـلال متابعتـه لـكلّ حـدثٍ مهمـا كان بسـيطًا. حـتى أن أحدهـم أطلـق عليه

اسم «الراديو النقّال». ومع هذا يعتبر سليم نفسه مسؤولًا بشكلٍ أو بآخر عن سمعة الحيّ وساكنيه، وهو صادق في تعامله معهم جميعًا، ولا يتردّد بتقديم أيّ خدمة لأيٍّ منهم إذا كان باستطاعته ذلك.

لا ينسى سليم أن يرتدي بذلة جميلة مع عقدة عنق متناسقة معها في الأعياد، فيزور معظم أهالي الحيّ مقدّمًا لهم التهاني بالعيد، بينما بضعة أصحاب فقط يزورونه لأنه عازب ووحيد في شقّته. وكان لا يتردّد في التعليق بهزءٍ على الوسيلة التي بات يعتمدها معظم الناس في تقديم تهانيهم بالعيد لأصدقائهم بأن ينسخوا عبارة أو مقطع «فيديو» من «الإنترنت»، ويبعثونها خلال ثوانٍ لمن شاؤوا، ومن دون أن يكتبوا كلمة واحدة من فكرهم. بينما هو ما زال محافظًا على التقاليد الأصلية التي تعبّر عن صدق المشاعر، والتي يفتخر بها في كلّ مناسبة.

بالعودة إلى الجار الجديد، لم يكن سليم ليستسلم بسهولة لمزاج هذا الطارئ على الحيّ، والذي دفع مبلغًا لا بأس به إيجارًا لشقّة صغيرة بعد أن أخلاها المستأجر القديم مقابل «بدل إخلاء» سدّده له صاحب العمارة. وهو بدوره دفع ما حصل عليه ثمن تذاكر له ولعائلته للهجرة إلى «السويد»، والإقامة الدائمة هناك. فلو أقام هذا «الطارئ» علاقات «جيرة» مع من يسكنون حوله، لكان اندمج في «ثقافة» الحيّ الذي يتشكّل من الشارع الخلفي والزواريب المتفرّعة منه، و«شارع المنسيين» الموازي له. وبما أن هذا لم يحدث، فقرّر سليم أن يفكّ رموز أحجية هذا الغامض بعد شهرين من استقراره هناك.

وكون سليم لا يعمل لأنه يعيش من الأموال التي يرسلها أخواه من كندا شهريًا، فلديه الوقت الكافي لمتابعة أيّ موضوع يريده. لذلك راح

يـتردّد إلى إحـدى المقاهـي الكثـيرة في الحـيّ عنـد الصبـاح، حيـث يسـتطيع مـن مـكان جلوسـه رؤيـة مـن يدخـل المبـنى الـذي يسـكنه «الغامـض»، وكـم مـن الوقـت يبقـى داخلـه، ثـم «يـدرس» هيئتـه بعـد خروجـه حيـث يكـون وجهـه مواجهًـا لسـليم خـلال عودتـه إلى شـارع الواجهـة، أو الاختفـاء في أحـد زواريـب الحـيّ.

مـضى شـهرٌ عـلى الموضـوع ولـم يتوصّـل سـليم إلى أيّ اسـتنتاج، لكـن مـا لاحظـه خـروج فتاتـين مـن المبـنى صبـاح أحـد الأيـام، وهمـا لا تسـكنان هنـاك لأنـه يعـرف السـكّان وأصحـاب المحـلات. لكنـه فطـن أن في الطابـق الأول «صالـون للسـيدات» لتصفيـف الشـعر، لذلـك همـا زبونتـان زارتـا المـكان لهـذه الغايـة. وبعـد أسـبوعٍ تقريبًـا، شـاهد الفتاتـين نفسـهما تخرجـان مـن المبـنى، فقـال في نفسـه: إنهمـا تأتيـان إلى الصالـون بشـكلٍ دوري لتصفيـف شـعرهما ثـم الذهـاب إلى العمـل. وهكـذا أزال الشـكّ بالفتاتـين مـن رأسـه مـرّة ثانيـة، لكـن بقـي شـكّه بالجـار الطـارئ يـزداد يومًـا بعـد الآخـر. إذ لـم يـره يخـرج في وقـت دوام العمـل، فهـل هـو مثلـه يعيـش عـلى أمـوالٍ ترسـل لـه مـن الخـارج؟ أو لديـه أمـلاك في بلدتـه يبيـع منهـا مـا يسـدّ بـه حاجتـه وزوجتـه، لأن هنـاك عـددًا كبـيرًا مـن الذيـن هجـروا بلداتهـم يفعلـون ذلـك؟ معظـم مَـنْ يدخـل المبـنى ويخـرج منـه مألـوف لديـه، فقـرّر تـرك أمـر الرجـل «الغامـض» لفـترةٍ حـتى يسـتجدّ أمـر مـا يعيـده إلى إحيـاء حشريتـه.

مـرّت بضعـة أشـهر، وبينمـا كان سـليم يجلـس إلى طاولتـه المعتـادة قـرب مدخـل المقهـى يحتـسي القهـوة مـع صديـقٍ لـه، فـإذا بـه يلمـح الفتاتـين تسـيران باتجـاه المدخـل الـذي راقبـه لفـترة طويلـة، فقفـز مـن مكانـه وطلـب إلى صديقـه البقـاء لأنـه سـيعود بعـد دقائـق. سـار بسرعـةٍ حـتى

أصبح خلفهما، لكنهما لم تدخلا الصالون كما كان يظنّ، بل توجّهتا إلى الطابق الأعلى ما أثار لديه الحشرية لمعرفة من تزوران. وقف إلى جانب حائط الدرج مصغيًا لأيّ حركة أو كلمة كي لا يثير انتباههما، لكن لم تصدر أيّ حركة، حتى أنه لم يسمع «رنة جرس الباب». نزل الأمر عليه كالصاعقة. فكلّ ما ظنّه سابقًا هو خطأ. الفتاتان لا تزوران الصالون صباحًا، بل أحد ساكني المبنى. ولو لم يكن هناك أمر غير طبيعي، لكانتا قرعتا الجرس أو دقّتا على الباب. هو متأكد بأن ذلك لم يحصل لأن المبنى كان هادئًا جدًا عندما تتبّعهما. عاد إلى حيث صديقه، معتذرًا وسط ذهول الأخير الذي سأله عمّا به، وما الذي شاهده حتى قفز وجرى كالغزال بسرعة نحو ذاك المبنى؟ فطمأنه بأنه تذكّر أن يوصل «أمانة» لأحد السكّان كان قد نسيها معه منذ الأمس، ثم اكملا جلستهما على فنجان القهوة.

عاد الشكّ بقوّةٍ إلى تفكير سليم حول جاره لأن الفتاتين دخلتا شقته أو الشقة الملاصقة حيث لا يوجد غيرهما في ذلك الطابق. ترى ماذا تفعلان عنده؟ إنه متزوّج، وزوجته لا تخرج إلّا نادرًا، لذلك وضع سليم احتمال مصادقة جاره لإحداهن خارج إطار تركيزه. فالفتاة تذهب بمفردها لترى من تهوى، ولا تصطحب دائمًا أخرى معها. راح «الفار يلعب بعبّه»! إنه سليم! وسيسجّل إنجازًا نوعيًا إذا استطاع أن ينقل للجيران حقيقة هذا الرجل الذي تناسوه إلّا إذا افتقده أحدهم في مناسبة اجتماعيّة.

إلتقى «سليمًا» صباح أحد الأيام جارٌ له، وبادره: هل من جديد يا سليم في حيّنا؟

- لا. لا جديـد! مـا زال الوقـت باكـرًا. إذا كنـت تهتـمّ بالمسـتجدات، فانتظـر حـتى المسـاء.

- هذه المرّة سأسجّل تقصيرًا عليك. الخبر «القنبلة» عندي أنا.

- خير؟! ما هو هذا الخبر؟

- إبنة أبو جميل! ألم تسمع بالموضوع؟

- ما بها؟ تلك التي في الجامعة؟

- نعـم هـي! لقـد قبضـت عليهـا الشرطـة بعـد ظهـر أمـس. فبـدل أن تكـون في الجامعـة تتابـع مقرّراتهـا، كانـت وزميلاتهـا في شـقّة إحداهـن يدخـنَّ الحشـيش، ويقـال إن واحـدة منهـن كانـت تستنشـق «كـوك».

- ما هو «الكوك»؟

- «كوكايـين». لقـد اسـتوردنا الاسـم المختـصر مـن الأميركيـين أيضًـا. ألا تسـمعهم في الأفـلام يقولـون «كـوك»؟

- وما حصل بعد حجزها؟

- طـوال الليـل، أبوهـا وأخوهـا في حركـة. يذهبـان ثـم يعـودان، وبالطبـع يقومـان باتصـالاتٍ مـع مـن يسـتطيع التدخّـل في الموضـوع. عندمـا أرادت أم وديـع الاطمئنـان عمـا يجـري، لـم يخبراهـا شـيئًا، بـل طلبـا إليهـا العـودة إلى منزلهـا، وعـدم التدخـل في قضيتهـم.

- وأنت كيف عرفت؟

- لقـد التقيـت بدوريّـة شرطـة أتـت تفتّـش المـنزل بحثًـا عـن مخـدّرات، ويبـدو أنهـم لـم يجـدوا شـيئًا. سـألت المختـار الـذي كان يرافقهـم،

فأخـبرني بـأن البنـت ضُبطـت «تحشّـش» وبعـض صديقاتهـا. وقـد اعترفـت أنهـا تشـتري المخـدّر مـن زميلـة لهـا في الجامعـة تبيعـه لمـن يشـاء مـن الطـلاب.

بـدأ سـليم يربـط الأمـور فيمـا بينهـا. لقـد اقـترب مـن حـلّ لغـز الجـار «الغامـض». إن تسـلّل فتاتـين في الصبـاح الباكـر إلى شـقّته وخروجهمـا بعـد فـترة قصـيرة، يعـني أنهمـا كانتـا تجلبـان شـيئًا مـا منـه، وهـذا الـشيء ليـس سـوى مخـدّرات، ومـن ثـم تقومـان ببيعهـا للطلبـة، والشرطـة أرادت التأكـد بـأن ابنـة أبـو جميـل لا تخـبّئ مخـدرًا في المـنزل، وإلّا اتهموهـا بأنهـا موزِّعـة... «هـذا هـو الاسـتنتاج السـليم يـا سـليم».

يومـان وضـجّ الحـيّ بمـا حصـل مـع هـذه الصبيّـة، وإذا بامـرأةٍ مـن منطقـة أخـرى مـن الشـارع الخلفـي كانـت تـزور قريبـة لهـا، ونقلـت إلى الموجوديـن في مـنزل نسـيبتها بـأن معلّمـة في ثانويّـة البنـات أخبرتهـا بأنـه تـمّ ضبـط مجموعـة مـن الطالبـات يدخـنّ الحشـيش في مـنزل إحداهـنّ الـتي اسـتغلّت سـفر والديهـا. وأتى محقّـق إلى المدرسـة يجمـع معلومـات عنهـا وعـن طالبـة أخـرى يقـال إنهـا هـي مـن شجّـعت زميلاتهـا عـلى تجربـة الحشـيش، ثـم راحـت تبيعهـن هـذا المخـدّر. وعندمـا ضبطـت الفتيـات، اختفـت تلـك «البيّاعـة».

إزداد يقـين سـليم بمـا يرتبـط بالفتاتـين. إنهمـا إثنتـان: واحـدةٌ في الجامعـة وأخـرى في الثانويـة. لكـن يبقـى الإثبـات. أراد أن يسـجّل سـابقة في تاريـخ الحـيّ والشـارع ككلّ. سـيصوّر الفتاتـين عندمـا تـزوران ذاك الرجـل، ويسـلّم الصـورة للشرطـة لأنـه لا يمكـن التغـاضي عـن جريمـةٍ كهـذه تلـوّث سـمعة وشرف عائـلات حيّـه. فـداوم عـلى الانتظـار في المقهـى لعـشرة أيـام

متواصلة، لكن لم يرهما بين الداخلين أو الخارجين من المبنى. فأقنع نفسه بالذهاب إلى شقّة ذاك الرجل، وطرق الباب ربما يرى شيئًا ذا أهمّية يرتبط بالموضوع.

صعد إلى الطابق الثاني وضغط على الجرس. لا أحد يفتح الباب. كرّر الأمر، لكن من دون فائدة. عاد خائبًا على أن يقوم بذلك في اليوم التالي بحجّة أنه يدعو بعض الجيران إلى صبحيّة في منزله نهاية الأسبوع، وهو متأكد بأن جاره لن يأتي حتى ولو كانت الدعوة صحيحة. عاد في اليوم التالي باكرًا كي يحذف احتمال خروج «الغامض» من منزله، فلم يوفَّق. ذهب إلى المختار وأخبره بما لديه من معلومات حول هذا الرجل الذي يشكّ بأنه هو من زوّد الفتاتين الفارتين بالمخدّرات. وربما تكونان قد ذهبتا معه إلى مكانٍ ما للاختباء.

أبلغ المختار الشرطة بما تجمّع لديه من معلومات، وأصرّ على الإمساك به وإبعاده عن الحيّ، خصوصًا وأنه يوزّع «كوكايين» أيضًا. فسألوه إذا كان يعرف بلدة هذا الرجل الأساسيّة، فأجابهم بأن عقد الإيجار يتضمّن كافة البيانات الشخصيّة. وهذا ما ساعد الشرطة على معرفة اسم البلدة. فذهبت دورية إلى هناك، واصطحبت مختار البلدة الذي قادها إلى منزله حيث تفاجأت الشرطة بوجود فتاتين معه ومع زوجته في هذا الفصل الممطر والبارد. إذ اعتاد الناس الانتقال من المناطق الجبليّة إلى المناطق الساحليّة خلال فصل الشتاء، بينما هذا الرجل قام بعكس ذلك. وعندما سألوه عن الفتاتين، أجاب بأنهما من صديقات زوجته. فلم يصدّقوا ادّعاءه إذ لا شيء يبدو جامعًا بينهما وزوجته. وعندما دقّق أفراد الشرطة في هويّتهما، تبيّن أنهما اللتان وزّعتا المخدّرات. فأوقفوهما، وأرادوا جلب صاحب البيت معهم، لكنه

رفض مدّعيًا أن لا علاقة له بما يحصل، حتى أنه لا يفهم كلّ ما يجري في منزله. وبما أن الشرطة لا تملك أيّ مذكرة توقيف بحقّه، فقد تركوه واصطحبوا الفتاتين معهم ليتمّ إرسالهما إلى السجن، بعد أن اعترفتا بأنهما عملتا لمصلحة ذلك الرجل الذي كان يعطيهما نسبة مئويّة مما يبيعانه. كما اعترفت إحداهما بأنها باعت مغلّفًا يتضمن «كوك» إلى إحدى الفتيات التي طلبت ذلك بعد أن التقتها في «جولتها» الأولى للتوزيع.

هذا وقد باتت قصّة جومانة، أو «الكوكنجية» كما لقبها عارفوها، تُتداول بين الناس. إذ إنها دعيت مرّة إلى حفل ميلاد صديقتها «لورا» حيث كان عددٌ كبير من الشباب والصبايا، وبعد أن بدأ المدعوون مغادرة المنزل الفخم الذي اتّسع للجميع، طلب إليها أحد الذين تعرّفت عليهم في تلك الأمسية أن تبقى لمفاجأة جميلة ستقتصر على بضعة أصدقاء لـ»لورا». وعندما بقي من وجّهت لهم «الدعوة»، بدأ ذاك الشخص بوضع «كوكايين» على قطعة زجاجية بشكل خطوطٍ رفيعة. ولم يكن هذا الأمر غريبًا لأن كلّ من كان هناك لديه فكرة عما يحصل. وضغط أحد منخاريه بأصبعه، لينحني ويأخذ «شمّة» بمنخاره الآخر. ثم تظاهر بالفرح الغامر والنشوة، وراح يشجّع الآخرين مركّزًا على ثلاثة التقاهم للمرّة الأولى، ومن بينهم «جومانة» التي كانت تدخّن «الحشيش» من وقتٍ لآخر، وتمنّت تجربة هذا المسحوق الساحر الذي ينقل من يشمّه إلى عوالم سحرية كما سمعت. وهكذا وقعت في فخّ ذاك الشاب الذي بعد أن قدّم لها شمّة أو «نخعة» أخرى كهدية، راح يطلب منها مالًا مدّعيًا بأنه يشتري كلّ غرام من هذا المسحوق بمبلغ كبير.

لـم تجـد جومانـة مشـكلة في البدايـة لتأمـين ثمـن «الكوكاكيـين»، لكـن مـع الوقـت ازدادت حاجتهـا وقلّـت أموالهـا الـتي تعطـى لهـا كمصروفٍ شـخصي. ولـم تـتردّد ببيـع مجوهراتهـا الـتي أهديـت لهـا في مناسـباتها الخاصة لتسـدّد ثمـن «الكـوك»، أو سـلب مـال أمّهـا كلّمـا اسـتطاعت. وبعـد ذلـك راحـت تقـدّم نفسـها للموزّعـين كلّما أرادت شـمّة. ولـم يقتـصر الأمـر عـلى سـلوكٍ صامـت وسرّي، بـل تجـاوز ذلـك لتظهـر عـوارض الإدمـان عـلى عينيهـا ووجهها وترنّحهـا خـلال السير، وتغيّبهـا عـن الجامعـة ورسـوبها في معظـم المقـرّرات الدراسـية. وعندمـا ألقـي القبـض عليهـا بعـد أن اسـتدانت ثمـن المغلّـف الأبيـض مـن صديقتهـا، تـمّ سـجنها لعـدة سـنوات نظـرًا لنوعيـة المـادة الـتي تتعاطاهـا. إسـتأنف محاميهـا الحكـم، وطالـب بتخفيـض فـترة السـجن باعتبارهـا ضحيـة، وأورد الكثـير مـن الحجج، وممـا جـاء في مرافعته:

- سـيدي القـاضي، إن موكّلـتي اعترفـت في مخفـر الشرطـة وأمامكـم بأنهـا خـسرت سـمعتها وكرامتهـا مـذ أدمنـت هـذه المـادة اللعينـة مـن دون أن تـدري مـا كانـت تفعلـه. وأجابـت ردًّا عـن العديـد مـن الأسـئلة الـتي وجّهـت إليهـا بـأن أحـد زملائهـا في المدرسـة، وكانـت في الثالثـة عـشر، جلـب لهـا «بونبـون» ذا طعـم مختلـف، لكنـه يـترك شـعورًا بالفـرح والارتيـاح، وفي السـنة التاليـة كان يجلـب لهـا شرابًـا غـير كحـولي، لكـن لـه مـذاق مميّز. وهـذه هـي الوسـائل الـتي يصطـادون فيهـا التلامـذة. فمن خـلال التـدرّج في زيـادة «الـدوز»، يصلـون بهـم إلى مرحلـة الإدمـان. جومانـة، حـضرة الرئيـس، بحاجـةٍ إلى مـن يسـاعدها عـلى الإقـلاع عـن الإدمـان، أمـا زجّهـا في السـجن فلـن ينفعهـا أو ينفـع المجتمـع بـشيء. إن ذاك الشـاب ثـم الفتـاة والتاجـر الـذي يقـف وراءهمـا، هـم الذيـن يجـب سـجنهم لأنهـم لـم يعرّضـوا حياتهـا فقـط للخطـر، بـل حيـاة المئـات مـن أمثالهـا.

- آتني بهؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم لأذكّهم في السجن.

- هـذا ليـس دوري سـيدي، وأنـت تعـرف كيـف يتـمّ إعـلام المطلوبـين قبيـل مداهمتهـم. أنـا أريدكـم أن تمـيّزوا بـين إنسـانٍ لُـدغ مـن أفعـى، والأفعـى ذاتهـا، إذ إن القانـون لا يـنزل العقـاب بالملـدوغ، ويـترك الأفعـى تـسرح وتمـرح عـلى مـرأى الكثيريـن مهيئـة أنيابهـا المسـمومة للـدغ أبريـاء آخريـن.

- أنـا طبّقـت عليهـا الحـد الأقـصى كي تتعلّـم وتقلـع عـن الإدمـان. هـل لديـك كلمـة أخـيرة تقولهـا؟

- نعـم سـيدي. القانـون وضـع لأجـل الإنسـان، وليـس العكـس. وأنـا أرى هنـا أن العكـس هـو الـذي يطبَّـق. هـذه الفتـاة بحاجـةٍ إلى عـلاج، وليـس إلى عقـاب. إنـني أرى أمـام عيـني كيـف تدفـع الضحيـة مرّتـين عما تعرضـت لـه، بينمـا يسـتفيد المجـرم مـن ذلـك، وكثـيرون يعربـون عـن احترامهـم لـه وإعجابهـم بـه. مدارسـنا وجامعاتنـا يـا حـضرة الرئيـس...

لم يكترث القاضي بمرافعة وكيل جومانة، وثبّت الحكم السابق عليها.

إنضمّـت جومانـة إلى عـددٍ كبـير مـن أمثالهـا لتعيـش تعاسـة بـين جـدران سـجن تنضـح منـه الرطوبـة وتفـوح مـن أرجائـه الرائحـة النتنـة، بينمـا بقـي «تاجـر المـوت» وأمثالـه طليقـين، ويتابعـون أنشـطتهم في مختلـف أنحـاء البلـد خصوصًـا في زواريـب الشـارعين الخلفـي والواجهـة. ويتخفّـون مـن وقـتٍ إلى آخـر تجنّبًـا للوقـوع بيـد الشرطـة. ومـن الملفـت للانتبـاه أنهـم لم يشـكّلوا «مافيـات» تتناحـر كمـا في الغـرب، بـل كانـوا يتعاونـون ويتبادلـون المعلومـات الـتي تسـاعدهم في أنشـطتهم.

بعـد مـرور أسـبوعٍ عـلى مداهمـة رجـال الشرطـة ذلـك التاجـر في بلدتـه، عـاودوا الكـرة، ولديهـم هـذه المـرّة مذكّـرة جلـب. لكنـه كان قـد لجـأ إلى مـنزل زعيـم المنطقـة حيـث تشـارك وأحـد تجّـار العقـارات غرفـة تقـع خلـف القـصر. وهـذا الأخـير شـيّد مبـنى مـن عـدة شـقق، وباعهـا بوكالـة لـدى كاتـب العـدل، وليـس بصكـوك اسـتملاك، ثـم مـا لبـث أن أعـاد بيـع ثـلاث منهـا لزبائـن جـدد لأن المشـترين الأوائـل لـم يضعـوا إشـارة عـلى الصحيفـة العقاريـة الخاصـة بهـا. وعندمـا اكتشـفوا خداعـه، أقامـوا دعـوى عليـه بالاحتيـال والسرقـة، فالتجـأ إلى الزعيـم الـذي قـدّم لـه مكانًـا للحمايـة عندمـا يشـعر بالخطـر. وهكـذا اسـتطاع سـلب ثلاثـة شـبّان جـنى عمرهـم حيـث عملـوا بجهـد في الخـارج، وعـادوا ليسـتقرّوا في وطنهـم، ظانـين أنهـم في بلـدٍ تدافـع فيـه الحكومـة عـن حقـوق مواطنيهـا، لكـن أزلام الزعيـم الذيـن هـم فـوق القانـون كانـوا لهـم بالمرصـاد.

أمـا تاجـر المخـدرات فـكان معروفًـا لـدى كثيريـن بأنـه يتنقّـل مـن مدينـةٍ إلى أخـرى، ويـوزّع بواسـطة مسـاعدين لـه الحشـيش و«الكـوك» عـلى الطـلاب لأنهـم عنـصر ضعيـف يشـتري بـأيّ مبلـغ يفرضـه، ويتحوّلـون مدمنـين بسرعـة. وعندمـا يشـعر بالخطـر يختفـي موقّتًـا لينتقـل بتجارتـه المربحـة إلى مـكانٍ آخـر. بينمـا طـلاب المـدارس والجامعـات مهملـون مـن ناحيـة مسـؤولية الحكومـة والمجتمـع تجاههـم، ولمـا يقـوم بـه هـذا الرجـل وأمثالـه في تدميرهـم. ربمـا هنـاك سـبب آخـر وراء الموضـوع غـير جـني المـال القـذر، لكـن لا أحـد يريـد الاهتمـام.

كثيرون يشبهون طائر النعام في الشارع الخلفي.

زيارة الزعيم

لـم يعـد أحـدٌ يتذكّـر هـذا التاجـر الغامـض بعـد سـنتين مما حصـل. إذ كلّ إنسـان لديـه مـا يشـغل وقتـه مـن عمـل وعلاقـات اجتماعيّـة وهمـوم الحيـاة اليوميّـة الأخـرى، لكـن ظهـور لافتـات في الحـيّ وحّـدت اهتمـام سـكّانه بالزيـارة الـتي يقـوم بهـا زعيـمٌ كبـير مـن الفئـة الأولى صبيحـة يـوم الأحـد حيـث الإجـازة الأسـبوعيّة. كمـا أن هنـاك زعمـاء حلفـاء مـن بعـض المناطـق سـيحضرون اللقـاء.

راح أتباعـه يحشـدون لهـذه المناسـبة المباركـة بزيـاراتٍ للمنـازل، ودعـوة النـاس إلى المشـاركة لأن هـذا الحـدث لا يحصـل إلّا مـرّة كلّ أربـع سـنوات، ويجـب عـدم تفويتـه. ويمكـن للمشـاركين اصطحـاب أولادهـم لأن الحلـوى والعصائـر سـتوزّع عليهـم مجّانًـا. كمـا تمّـت تهيئـة منصّـة تليـق بالزعيـم كي يجلـس وحلفـاؤه في الظـلّ، بينمـا يبقـى معظـم المناصريـن واقفـين حيـث لا يمكـن تأمـين عـدد كبـير مـن الكـراسي.

بـدأ النـاس بالتوافـد باكـرًا إلى السـاحة الواسـعة الـتي أقيمـت في الأسـاس كمـكانٍ لذكـرى شـهداء الوطـن الذيـن سـقطوا في إحـدى الحـروب الأهليّـة الـتي خاضهـا الشـبّان، وذلـك بالنيابـة عـن زعمائهـم الذيـن تناسـوا مـن سـقط مـن خـيرة أبنـاء وطنهـم. إنهـا لمفارقـة منافيـة للعقـل بـأن يبقـى أهـل الشـهداء أوفيـاء لمـن تسـبّب بمقتلهـم، وأن ينـسى الباقـون مـن

مات فداهم! الشعوب الجبانة هي التي تنسى شهداءها، والتي هي في الوقت نفسه، لا تهمل حمْل زعمائها على الأكتاف و»الحوربة» لهم، والإشادة بخصالهم، بالرغم من الفساد الذي يفوح منهم وينبعث حولهم.

بدأ الزعماء من الفئة الثانية بالوصول مع مرافقيهم، وتوافرَ من اهتمّ بسياراتهم الفارهة، ثم توجيه من يرافقهم من أتباعهم إلى مكانٍ آخر في الساحة. وكان مَنْ يمشي في طليعة الوفد يحمل يافطة مكتوب عليها «أزلام فلان»، فيتبعه المقصودون باليافطة إلى الناحية المخصّصة لهم بكلّ هدوء، وكأنهم أطفال في الصف الأول الابتدائي يسيرون بانتظام ليدخلوا صفوفهم. وبعد نصف ساعة من اكتمال العقد بوصول الوفود ضمن تشكيلات قطيعية، دوّت صفّارات في فضاء الحيّ، كأن هجومًا بالقنابل والصواريخ على وشك الحصول، وعلى الناس الاختباء للنجاة بأنفسهم. لكن بدلًا من ذلك، علا الصفير والتصفيق والأناشيد التي اختلطت بمجرد أن ظهرت مقدّمة السيارة. فقد «حزِر» الجميع أنه «هو» في داخلها، وتعالى الصراخ وضرب الطبول حتى لظنّ المشاهد أنها «بروفا» لساعة الحساب.

كانت مجموعةٌ من المنظّمين لهذه المناسبة تدفع الناس في كلّ اتجاهٍ ليصل الزعيم بسيارته التي يساوي سعرها تكلفة بناء مدرسة تأوي أبناء الحيّ. ثم تقدّم المرافقون السيّارةَ بنظاراتهم السوداء، يحملون بأيديهم أجهزتهم السرّية التي يتمتمون على ما بان منها من خلف آذانهم، وهو أشبه بعود المسواك الخارج من أفواههم، أو القلم الذي اعتاد المتعلّمون سابقًا أن يضعوه خلف آذانهم كدليل على أنهم يحسنون استخدامه. لقد أحاطوا بالسيّارة من كلّ صوب، وكلّ

منهـم يتطلّع باتجـاهٍ معـيّن كي يضمنـوا سـلامة خـروج زعيمهـم، ثـم فتـح أحدهـم بـاب السـيّارة الخلفـي، فترجّـل «الزعيـم» محاطًـا بمرافقيـه مـن كلٍّ جهـة. إنهـم يفعلـون ذلـك كحمايـة لـه حـتى إذا حـاول «مجـرم» مـا إطـلاق النـار عليـه فلـن يصيبـه، بـل سـيصيب مـن يشـكّل درعـه البـشري. وكان عليـه التوقّـف لدقيقتـين حـتى تـمّ نحـر بضعـة خـراف، ثـم مـشى فـوق دمّ هـذه الكائنـات البريئـة الـتي لا تعلـم مـا هـو ذنبهـا كي تذبـح أمامـه، ويسـيل دمهـا تحـت أقدامـه «المقدّسـة».

صعـد «الإلـه» إلى المنصّـة ببـطءٍ ترافقـه عاصفـة مـن التصفيـق والـصراخ، وتـرداد الشـعارات المعـبّرة عـن فرحـة النـاس برؤيتـه. فصافـح الزعمـاء المنتظريـن، وجلـس في منتصـف هـذه المجموعـة. ثـم بـدأ الاحتفـال بالنشـيد الوطـني الكئيـب الـذي وقـف لـه مـن كان جالسًـا، تكلّفًـا، وبعـده نشـيد حـزب الزعيـم، فـردّده الموجـودون بحماسـةٍ مـع المنشـد، وعـلا التصفيـق بقـوّة عنـد الانتهـاء. ثـم جلـس مَـنْ عـلى المنصّـة، بينمـا بقـي معظـم النـاس واقفـين في السـاحة الـتي غصّـت بهـم، إضافـة إلى الذيـن بقـوا في منازلهـم يتابعـون الاحتفـال مـن عـلى الشرفـات، ويشـاركون في التصفيـق والهتفـات.

قـدّم عريـفُ الاحتفـال أحـدَ الشـعراء ليتغـنّى بهـذه المناسـبةَ المباركـة بقصيـدةٍ تمجّـد شـخصية الزائـر الكبـير، وضاهـى هـذا الشـاعر فيهـا المتنـبّي في مـدح سـيف الدولـة مـن حيـث قيـادة الزائـر الوطنيـة الحكيمـة، وانتصاراتـه في الحـروب الأهليّـة، وتحوّلـه إلى صاحـب سـلطة وجـاه. ولـم ينـسَ الحـاضرون تـرداد انشـودة «بالـروح، بالـدم، نفديـك يـا زعيـم» الـتي يتّقنهـا أبنـاء الشـارع كافـة.

عـاد عريـفُ الحفـل ليقـدّم أحـد المغنّـين الـذي أدّى أغنيـة وضعـت خصيصًـا للزعيـم، وتفاعـل الجمهـور معهـا بالرقـص و«التهييـص»، وأخـيرًا قـدّم العريـفُ الزعيـمَ بكلمـاتٍ بليغـة ومؤثّـرة بأنـه: صاحـب الرؤيـة الوطنيّـة والقوميّـة والكونيّـة، والـذي أثبـت صحّـة فلسـفته السياسـيّة محليًـا وإقليميًـا، وكيـف تأثّـر بـ«مكيافـلي»، لكنـه عـارض «ماركس» وخطّأه في نظريـة «الجدليـة التاريخيـة» كمـا بـيّن ذلـك في المقابلـة التلفزيونيّـة الأخـيرة، وكيـف أخـذ أقطـاب حلـف «الناتـو» بآرائـه الفـذّة خـلال الحـرب البـاردة لمجابهـة «حلـف فرصوفيـا» الشـيوعي. وعندمـا انتهـى العريـف مـن جولتـه العالميـة، عـاد إلى مـا هـو محـلّي، فالتفـت إلى الزعيـم، وبصـوتٍ جهـوري: «مباركـة الأرض الـتي تدوسـها قدمـاك! مبـارك أنـت في الرجـال، ومبـارك نسـلك لأنكـم مـن طينـةٍ تختلـف عـن طينـة بـاقي النـاس. أنـت عطـاء الله لنـا، وحـتى للبشريـة كافـة. مهمـا نمجّـدك ونتغـنّى بخصالـك الحميـدة، فنحـن مقـصّرون. ألا اعذرنـا يـا سـيدي واعـذر قاموسـنا الـذي لـم يحـوِ عبـارات تليـق بكـم وبمقامكـم! أنتـم أحـد أعمـدة كيـان هـذا الوطـن، ولـولا وجودكـم لانهـار منـذ زمـنٍ طويـل... إلـخ». زعيمـان ثانويـان يجلسـان عـن يمينـه ويسـاره ينحنيـان ليهمسـا بأذنـه بعـض الكلمـات للفـت أنظـار النـاس بأنهمـا «خـوش بـوش» معـه، لكنـه لـم يلتفـت لأيّ منهمـا، بـل اكتفـى بتمتمـة بضـع كلمـاتٍ يمكـن التقديـر بأنهـا غـير مسـموعة وغـير مفهومـة حـتى لهذيـن الجاريـن.

عندمـا انتهـى العريـف مـن التقديـم، وقـف الزعيـم ليلقـي كلمتـه، فانطلقـت موجـةٌ هسـتيرية مـن قبـل النـاس خُلـط فيهـا التصفيـق بالزعيـق وبـترداد عبـارات الإشـادة بالبطولـة، واسـتمر ذلـك لبضـع دقائـق، بينمـا هـو يبتسـم ويحيّيهـم ملوّحًـا بيـده في سـائر الاتّجاهـات كي تتـمّ مباركـة الجميع.

الأنبياء كانوا قد سبقوه إلى ذلك خلال نشر رسالاتهم السماوية، لكن بتواضع. ثم سحب ورقةً من جيبه، وقرأ ما كُتب عليها من إنجازات، وتضحيات قدّمها للوطن، وتساءل في النهاية: ما هو الوطن؟ إنه هذه المساحة من الأرض والجبال التي تعيشون عليها في جوٍّ من الوفاء لزعمائكم، وهذا دليل على أصالتكم. وأنا أعمل ليلًا نهارًا لأجل هذا الوطن. لا يهمّني ولو ضحّيت بما أملك، وحتى بأبنائي لأجله (عبارات تتردّد من الناس: لا سمح الله. طوّل الله عمرك وعمرهم)، ولا يغريني الموقع الحكومي الذي أنا فيه، لولا أن وجودي في القيادة ضرورة للوطن ومستقبله ومصيره، ضرورة لمستقبل أولادكم وأسركم ومجتمعكم...

في إحدى الزوايا المطّلة على المنصّة وقف أسامة يشاهد هذا «السيرك»، ويحلّل كعادته هذه الظاهرة «الزحفطونية» التي يمارسها تسعون بالمائة من الشعب. فهو لا يرى هالة قدسية حول رأس هذا الزعيم، بل إن أتباعه هم من يضفون هذه الهالة عليه انطلاقًا من قناعتهم بأن عليهم أن يتبعوه، ويقدّموا له ولاءً مطلقًا، ويكونوا رهن إشارته عندما يحتاجهم. واستخلص أسامة أن مصدر الزعامة هو هؤلاء البسطاء المغفّلون، وليست قوّة هذا الزعيم المزيّف لأنه إنسان مثل غيره، لا بل أقل من غيره لأن الشهامة وعفّة النفس ونظافة الكف لم تدنَ منه يومًا.

إنتهى اللقاء-الاحتفال، وعاد كلٌّ إلى منزله بهدف تمضية بقية النهار مع أسرته أو إنجاز ما يشاء، باستثناء سليم الذي توجّه إلى مخفر الشرطة ليخبر مَنْ وجد هناك أنه رأى «الرجل الغامض، تاجر المخدرات» برفقة أحد الزعماء، وكان يرتدي نظارات سوداء، وقد أطلق لحيته للتمويه... إن ذاكرته لا تنسى الوجوه التي تراها مرة واحدة، حتى ولو حاول أصحابها

تغييرهـا وتجميلها بـأيّ وسـيلة. فأجابـه الشرطـي بأنـه يـداوم وحيـدًا هـذا اليـوم، وليـس لديـه تعليمـات لـترك المركـز واللحـاق بهـذا الشـخص.

صبحيةُ أمّ فريال

في اليوم التالي كانت أصداء الحدث تتردّد في الحيّ. وخلال «صبحيّة» ضمّت بضع جارات اعتدن على تبادل زيارات الصباح، في منزل «أمّ فريال» التي جهزّت القهوة، وجلبت «الكاتو» الذي تصنعه بنكهة «الفانيليا»، والذي ذاع صيته بين نسوة الحيّ بأنه الأفضل. بدأن الحديث حول حدث الأمس، وكلّ واحدة تريد وقتًا أطول لتعبّر عن رأيها وفرحتها بما حصل، فقالت أم جمال:

- للحقيقة، هيك يكونو الزعما أو بلا. طلّة متل الملك، وخلقة سبحان الخالق. الهيبة فارضة نفسها عَ الناس وعَ الزعما اللي كانو كمان!
- أمّ سلام: أنا عجبني فيه العظمة اللي أظهرا وهو عم يخطب. الكلّ صاغيين إلو متل كأنو إمبراطور الحبشة...
- ولي، وين بعد في إمبراطور بالحبشة؟! قالت سمارة. هادا قلبوه من شي تلاتين سنة.
- يعني، إنو مبيّن أكتر من ملك. كأنو ملك الملوك. ها اللي حبّيت قولو.
- أمّ فريال: يا عمي الكلّ كانو مدوخين بشخصيتو. بتصدقو إنو «فوفو» ابن بنتي نطق أول كلمة وأنا حاملتو هونيك؟
- عن جَدّ؟! شو قال: ماما؟ سألتها أمّ سلام.

- لا يقبرني. كنت أنا كلّ ما يقول جملي الزعيم، أصرخ: يعيش يعيش. وفوفو صار يقول متلي: عيشْ، عيشْ.

- أمّ بلال: دخلك لشو دبحو لو كلّ هالغنم؟ لو فرّقوا اللحمة على الفقرا ما كان أحسن؟

- أمّ إلياس: أنا شفتون لما جابو بيك أب وحمّلوا الدبايح فيه من قدام المنصّة، وراحوا. أكيد لياكلوهن هودي الحواليه.

- أمّ فريال: إنتو ما عرفتو شو كانوا الشباب مخططين قبل ما يستقر رايهن عَ الدبايح!

- خير! شو كانوا بدهن يعملوا؟! سألتها أم إلياس.

كانوا بدن ينبطحوا بالمحل اللي دبحوا فيه الخرفان، حتى يمشي الزعيم عَضهورهن... من سيارتو ليوصل للمنصة. شايفين ملاّ فكرة؟!

- سمارة: بَطَلِتْ هاي العادي. على كلٍّ، هالزيارة هي كرمال الانتخابات السنة القادمة. والناس اللي تجمّعوا كانوا دعم لترشيحو عن شارعنا.

- أمّ بلال: نحنا معو إن زار الشارع أو ما زارو. هيك كانوا أهلنا معو، ونحنا ورتنا هالشي عنهن!

- أمّ جمال: أنا سمعت إنو بدو يفِتّ مصاري كتير هالمرّة لأنو في ناس قوايا بدّهن يترشّحو ضده.

- مين قادر يتحداه. قديش بدهن يحطّو مال، أنا أكيدة رح يحط قدهن ع مرّتين، قالت أمّ فريال.

- أمّ إلياس: قولكن رح يجبلنا الكهربا بشكل دايم؟ ولا مرّة بكمّل الغسلة إلّا وبتنقطع الكهربا، وبتوقف الغسالة.

- أمر سلام: الله يقطع رقابن. كلّ سنة بيوعدونا أنو الكهربا رح تتأمّن. واللي بيصير العكس. كنّا نحصل عَ ست عشر ساعة كهربا، هلق صاروا عشر ساعات، ومتقطعين. وقبل ما أنسى...

- سمارة: بتعرفو؟ سمعت تقرير بالراديو عم يقول إنو كلفة الكهربا بتزيد كلّ سنة من موازنة الدولة، وبالمقابل بتنقص ساعات الكهربا اللي بيعطوها للناس. يعني بدل ما يعطونا كهربا زيادة، عم يسرقو حق (ثمن) الفيول. يا الله، نحنا بنستاهل لإنّا بنركض ورا هالزعما الزعران، وهني ما ساءلين عنا.

- أمّ إلياس: قدّمنا طلب للتلفون، وإلنا سنة ناطرين. رح ندفع الفاتورة، صدقوني! بس يجيبولنا خط. شو خايفي الدولة حتى ما ندفع! ليش نحنا المعترين بنسترجي ما ندفع؟! والله ليسحبونا عَ الحبوسات إذا تأخّرنا بدفع فاتورة. حتى لو كنت مرا ختيارة، بيجروني متل شي كلبة عَ الحبس. غيرْنا بدل ما يدفعو للدولة، بيسرقوها، والناس بتحترمهن وبتخاف منهن. شو هالإيام اللي وصلنا لها؟

- هلق بالهن بالكهربا والتلفون؟ ردّت بحدة أمّ بلال. همّهن يدافعو عن البلد. مش شايفين حدودو سايبي، ومين ما كان بيجي لعنّا من دون إذن. صرنا بيت حيطو واطي. الله يساعدنا.

- أنا سمعت إنو فات إرهابيي كتير عَ البلد. قولكن رح يوصلو عَ حيّنا؟ سألت أمّ جمال.

- إنشالله بوجود الزعماء ما حدا رح يقدر يفوت لعنا. هني بيعرفو كلّ شي، وبيضلو رايحين جايين ع فرنسا وأمَيركا والشيشان، وأوقات بيوصلوا ع الصومال كرمال يضل الوضع هادي. ردّت أمّ سلام.

- سـمارة: دخلكـن هـا الشـاعر كان بالانتخابـات الماضيـة عـم يقـول قصايـد مـع الـلي ترشّح ضـد الزعيـم. أنـا سـمعتو مـرّة كأنّـو قـال نفس الكلمـات. معقـولي قلَـب هلّـق صـار مـع زعيمنـا؟

- أم فريـال: كلّ شي معقـول بهالبلـد. شـو بتكلّـف نقلـة البـارودي مـن كتـف لكتـف؟ بيهمـون يسـتفيدوا.

- سـمارة لأمّ سـلام: لا تآخذيـني أنـا قاطعتـك مـن شـوي. كنـتِ عـم تقـولي: «قبـل مـا أنسى»، وتدخّلـت أنـا وقاطعتـك. شـو الـشي الـلي مـا بـدك تنسـيه؟

- كنـت بـدي خبركـن إنـو جارنـا، ابـن جيهـان، عامـل «لوطـي». هيـك سـمعت، قبـل مـا تحقّقـوا معـي.

- أم الياس: معقولي؟! هيدا الشاب المهذب كيف قابل يعمل هايك؟

- سـمارة: صـار في منهـن كتـير بالشـارع. الله يسـترنا ويجنّـب ولادنـا هالمصـير المخجـل...

- أنـا سـمعت إنـو عندهـن «نايـت» خـاص فيهـن، وعـم يقلّدونـا بأنـو بعضـن بيلبـس فسـاتين، وبيحـط حمـرة وحلـق، وبيشـيل حواجبـو، علّقـت أمّ بـلال.

- أمّ فريـال: قدّيـش بينطـرو الأهـل حـتى يجيهـن صـبي، شـوي مـن كـترة الغنـج بيتحـوّل لمـرا...

- إسكتي. بأميركا بيتجوزو بعضن، قالت أمّ سلام.

- أم اليـاس: جـاي الـدور لعنـا. هـاي آخـرة الـدني. هيـدي إشـارات مـن عنـد ربنـا. الله يسـتر!

- تصوّري جايي ابني شي نهار ع البيت ويقلي: «ماما بعرّفك ع حبيبي «سوسو»، وعم نفكر إنّا نتزوّج بعد سنة». ما بعرف شو بعمل فيه، أو إذا بيضل عندي عقل ساعتها! علّقت سمارة.
- أمّ بلال: بكرا بيقولو بيحقلهن بممثل عنهن بالحكومة. تصوّروا وزير منـ... !!!.

ضحكت الجارات على تعليق أمّ بلال، وأكملن الصبحية التي استمرت حوالى الساعتين إلى أن جِلْن على سائر الشؤون المحليّة والوطنيّة والعالميّة، وطرحن حلولًا لبعض المشاكل، لكن تحت رعاية الزعيم أو بوجوده لأنه بنظرهن يتحلّى بالصفات التي لا تتوافر في باقي القادة والمسؤولين في المنطقة كلّها. ثم عُدن إلى منازلهن ليقمن بالأعمال الروتينية التي اعتدن عليها.

الإنتخابات... و«باميلا»

في شـارع الواجهـة كانـت قواعـد ملزمـة لكيفيّـة تعليـق الصـور كي لا توسّخه وتجعـل منظـره مقرفًـا، بالرغـم مـن أن معظـم المرشّـحين يمتلكون عمـارات فيـه. والحركـة فيـه لا تنـمّ عـن «حمـاوة» في الوضـع السـياسي، بـل تميـل أكـثر إلى «الروتـين» الـذي اعتـاده مـن يعمـل هنـاك، وتأمـين جـوّ هـادئ تتطلّبـه الحركـة التجاريّـة والسـياحيّة. ولمـازن متجـرٌ في أحـد الأبنيـة حيـث يعمـل لديـه بضعـة موظّفـين، ووجـد صبيحـة يـوم صـورة لأحـد المرشّـحين قـد تـمّ لصقهـا عـلى الزجـاج، فمـدّ يـده وانتزعهـا، وسـأل بصـوتٍ عـال عمـن وضعهـا عـلى واجهـة المحـل. فأجابـه موظّـفٌ شـاب كان قـد بـدأ عملـه حديثًـا لديـه بأنـه هـو مـن فعـل ذلـك، ولا يـرى مـا يـؤذي المحـل وصاحبـه. فـردّ عليـه مـازن بأنـه لا يريـد أن يعطـي هويّـة سياسـية لمتجـره كي لا يخـسر نصـف زبائنـه. وأضـاف: اتفقنـا؟ مـن الآن وصاعـدًا صرتَ تعـرف القاعـدة الـتي أعمـل بهـا. فـردّ عليـه الموظّـف: لا، لـم نتفـق. مـن يمـزّق صـورة زعيمنـا «مـا خلـق بعـد»، وسـتدفع ثمـن فعلتـك. ثـم غـادر مسرعًـا وسـط ذهـول بـاقي الموظّفـين الذيـن تجمّعـوا بعـد أن سـمعوا الإشـكال بـين الإثنـين.

لـم يبـالِ مـازن بمـا حصـل باعتبـار أن كثـيرًا مـن الأنصـار المتحمّسـين ينقـادون لعواطفهـم في فـترة الانتخابـات، ويحبّـون «تبييـض الوجـه» مـع مـن يتبعـون. لكـن توقّعـه لـم يكـن صحيحًـا عندمـا دخـل المتجـر ثلاثـة

شبّان بعد ساعتين من الحادث، وبيد أحدهم عصا، وسأل بصوت عال:

- من هو مازن؟
- نعم، أنا هو. ماذا تريد؟
- من سمح لك بتمزيق الصورة يا كلب؟
- أنا أردت نزعها عن الزجاج، لكنها تمزّقت. إنها قاعدة نعمل بها في المتجر بألّا نظهر انتماءنا السياسي في العمل. أنت تعلم...
- أعلم ماذا؟ أعلم كيف أرّد الاعتبار لزعيمنا بجعلك تعتذر عما فعلت أمام كلّ هؤلاء الناس.

ثم هوى بعصاه على اللوح الزجاجي الذي يغطي حاجزًا خشبيًا بين الموظفين والزبائن، فتطاير الزجاج في كلّ اتجاهٍ مع صراخِ من كان هناك وهروبه إلى الخارج. راح مازن يعتذر ويهدئ من فورة هذا «المقاتل المغوار» الذي أظهر بطولته في المكان الخطأ، وعلى أناسٍ «أوادم» لا يبغون الشرّ، لكن ذاك الشبّيح كان يتصرّف مستندًا إلى دعم زعيمه المهووس بالسلطة حيث كثيرون يتملّقونه بدلًا من أن يفضحوا ممارساته الموصوفة بالفساد، وكذلك أعمال أتباعه، لأن هؤلاء المتملّقين جبناء أو لهم مصالح شخصية معه. لكن عندما يعرف ساكن هذا الشارع كيف تجري الأمور في البلد، يلتزم الصمت، ويتقبّل الهوان لأنه سيخسر أمام جبروت الزعماء وزعرانهم الذين لا تجرؤ الشرطة حتى على مساءلتهم.

خرج الشبّان الذين انتقموا لزعيمهم، وتقدّم بقية الموظّفين يواسون مازن بأن وقفوا معه يمدّونه بعبارات داعمة لشخصه وأخلاقه، لأنه لم ينزلق بكلامه وتصرّفه إلى ذلك الدرك الذي وصل إليه هؤلاء المشاغبون. شكرهم على تضامنهم، وصعد إلى مكتبه الذي اقتطعه من ارتفاع سقف المحل بواسطة أعمدة معدنية وخشبية، وهو غير قادر على استيعاب ما حصل ومبرراته.

إسبوعان مرّا عندما دخل المتجر رجلٌ يحمل حقيبةً سوداء، ويرتدي بذلة رمادية قديمة يسأل عن مازن. فأرشده أحد الموظّفين إلى المكتب حيث تسلّق السلم الحديدي وألقى التحيّة. فسأله مازن عما يريد، فأخرج من حقيبته بضع أوراق وراح يشرح له بأن مدفوعاته الضريبيّة فيها الكثير من التجاوزات والأخطاء، وقد أتى لتصحيح الوضع.

- أي وضع؟ إنني كباقي التجّار في هذا الشارع أسدّد الضرائب المتوجّبة للبلديّة ولوزارة الماليّة. وإذا كان هناك خطأ، لماذا لم تسألوني في السنة ذاتها، بدلًا من أن تأتوا إليّ بملف عن بضع سنوات؟

- أنا موظّف وسُلِّم إليّ الملف لأتابعه. وبعد إجراء الحسابات في الدائرة تبيّن أن عليك دفع عشرين ألف دولار بما فيها الفائدة والجزاء، لأنك لم تقدّم أرقامًا صحيحة عن أرباحك.

- ما تقول يا أخي؟ وأين هذا الخطأ؟

وضع ذاك الموظّف بضعة أوراق أمام مازن حيث راح الأخير يتصفّحها بسرعة، ويقول له: «لو كنت أربح سنويًا هذا المبلغ لكنت غنيًا الآن، ولانتقلت إلى مكانٍ أوسع بكثير من هذا المكان. هذا ظلم، وأنا لم أكذب مرّة واحدة على الدولة عكس ما يفعل الباقون. إذ ما زلت أحلم

بوطن، وهذا يدفعني أن أكون صادقًا في عملي، وأدفع ما يتوجّب عليّ، ولم أقدّم يومًا دفاتر محاسبة مزوّرة تبيّن أنني خاسر». لكن الزائر لم يكن يستمع إليه، بل غادر المكتب تاركًا له إنذارًا بدفع المبلغ. فاستشار محاميًا عما يجب فعله، ومؤكّدًا له بأن الأرقام الموجودة في هذا الملف أُدخلت عليه حديثًا لأذيته، وأطلعه على ما حصل معه منذ مدة قبيل الانتخابات. هزّ المحامي رأسه وقال:

- يبدو أن وضعك صعب. لن تستطيع تجنّب دفع هذا المبلغ.

- وأين العدالة التي أريدك أن تدافع عنها؟

- إنها نسبية في هذا البلد. سأدافع وأخسر إذا أردتَ ذلك.

- لم أفهم قصدك. كيف تكون العدالة نسبية؟ إما أنا على حقّ، أو الحكومة على حقّ.

- العدالة ترتبط بمن يدعمك. فإذا لديك دعم قويّ، تصبح أنت صاحب الحقّ، وحتى بإمكانك أن تمدّ يدك إلى حقوق غيرك. وإذا كنت تعتمد على نفسك فقط، فعليك دفع ثمن ذلك.

- ما تنصحني به في النهاية؟

- أن تدفع المبلغ ولو كان ظلمًا. إنهم يظلمون الوطن، ولن يخافوا من ظلم العدالة، وظلم مواطن مثلك يتصرّف بحسب القانون. لا أستطيع أن أعدك بأننا سنربح القضيّة إذا تقدّمنا بدعوى ضدّ الحكومة.

- أعرف أناسًا لا يدفعون ليرة واحدة لمصلحة الضرائب، ولا ينذرهم أحد بالدفع.

- إسمع يا صديقي. كلّنا يعرف، والمسؤولون يعرفون أننا نعرف. لكن لا يبالون بما نعرف لأنهم هم «الخصم والحكم». لذا معركتك معهم خاسرة مسبقًا. أنا أكّلمك كصديق، ولو كنت أكلّمك كمحامٍ، لشجّعتك على ذلك كي أقبض منك بدل أتعابي.

أحسّ مازن بالاشمئزاز من هذه الحال. لكن ما عليه فعله؟ هل يبيع المتجر ويهاجر كما فعل كثيرون قبله؟ أو يدفع المبلغ الذي هو ثمن «تمرّده» على صورة أحد الزعماء؟

في خضم هذه الأفكار المختلفة والمتناقضة غالبًا، أمضى عدّة أيام يفكّر بما سيقوم به. وللهروب من هذا الواقع قليلًا، ذهب إلى المقهى الذي لا يبعد كثيرًا عن متجره. وبينما هو جالس يحتسي القهوة ويدخّن سيجارة، دخل «أبو الفوف» وسلّم عليه، واستوضحه إذا كان راضيًا عما قام به لأجله، فشكره مازن مجدّدًا، وتنبّه أن يسأله عن تلك المرأة إذا كانت موجودة. فأجابه:

- أنها تحت في الملهى. أين ستذهب؟ لا مكان لها غيره.
- ما رأيك لو ترافقني لأراها؟
- لتراها، أو لتمضي وقتًا ممتعًا معها؟
- هل من أحد هناك؟ أيّ هل هي مع أحد الزبائن؟
- لا. الوقت ما زال باكرًا. وأنا في جولتي الأولى الاستطلاعية. إذا كنت فعلًا تريد المجيء معي، فأهلًا وسهلًا.

دخل مازن المكان، ونادى «أبو الفوف» المرأة بِاسمها المستعار «باميلا»، فخرجت من غرفتها لتفاجأ بمازن الذي لم تنسَ وجهه نظرًا

لإساءته إليها. إلتفتت إليه من دون أن تلقي التحيّة. فبادرها: «لم آتِ إلى هنا بهدف المتعة، بل أتيت لأسدّد دينًا». ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج مائتي دولارًا وناولها إيّاها. رفضت أن تأخذ المبلغ، وقالت له: لو أعطيتني مال الدنيا فلن يردّ لي كرامتي أو ما تبقّى منها عندما أهنتني ظلمًا. فأجابها بأنه يدفع المبلغ مضاعفًا كتعبير عن خطئه، ولمصالحتها لأنه ظلمها. أدارت ظهرها، وعادت إلى غرفتها رافعة رأسها.

صدم مازن من تصرّف «باميلا» التي ما زالت مصرّة على أهمية كرامتها، وكيف أنه أهانها وأساء الظنّ بها. قال لـ»أبو الفوف»: إدخل واقنعها بأن تأتي وتتكلّم معي، واتركنا لوحدنا. طلب إليها «أبو الفوف» ذلك، وهي لا تستطيع أن ترفض طلبه كونه المشرف عليها وعلى عملها، وخرج من غرفتها معطيًا إشارة إيجابية بعينيه إلى مازن. ثوان، وتطل باميلا لتقف مقابل مازن شامخة ولامبالية بحضوره. فهي لم تلتفت إلى وجهه، بل ركّزت نظراتها على «البار»، ففاجأها بالطلب إليها أن ترافقه خارج هذا المكان لاحتساء القهوة معه. تطلّعت إليه وسألت:

- هل فعلًا تدعوني إلى فنجان قهوة، وتجلس معي في مكانٍ عام؟

- وما الخطأ في ذلك؟ ألست امرأة كبقية النساء اللواتي يجالسن الرجال في الأماكن العامّة؟

- أنا لست مثلهن بعُرْف المجتمع. أنا منبوذة من ...

- بنظري أنت امرأة لها كيانها وشخصيّتها وكرامتها عكس ما اعتقدتُ سابقًا. وأتمنّى أن ترافقيني إلى مقهى قريب من هنا.

إستأذنت «أبو الفوف» الحريص عليها وزميلاتها، واعدة بأنها ستعود فور انتهاء احتساء القهوة، ووافق على ذلك لأنه يأمل بأن يعاود مازن التردّد إلى الملهى.

جالس مازن «باميلا»، وأوّل ما سألها عن اسمها الحقيقي، فرفضت البوح به باعتبار أن ذلك لن يغيّر شيئًا من واقعها أو يشبع رغبته. قال لها بأن الأمر ليس مهمًّا الآن أيضًا. ثم سألها لماذا اختارت هذا الطريق، وهي امرأة جميلة يتمنّى أن يتزوّجها أيّ رجل، ويجعلها تعيش في بحبوحة ورفاهية، فأجابته بأن الأمر لم يكن بيدها. فهي ليست من هذا البلد كما لاحظ ذلك من لغتها، ولديها ابنة عمرها خمس سنوات تعيش مع أمّها المريضة التي بالكاد تستطيع القيام بأعمال بيتها المتواضع. أما زوجها فقد قتل، ولم يهتمّ أحد من أقاربه بها وبابنتها، بل وجّهوا لها اللوم بسبب موته. إذ اصطحبته إلى مدينتها حيث حصل عراك بينه وبين بعض اللصوص الذين حاولوا سلب محفظته، لكنه قاومهم، فأردوه بالرصاص. وعندما حاولت أن تجد عملًا يعيلها وابنتها وأمّها، لم تُعطَ أيّ فرصة، ما اضطرها للسير في هذا الطريق الذي لا يتطلّب واسطة وكفاءات علميّة.

- أتشعرين بالراحة والمتعة من خلال ممارستك لعملك؟

- لا راحة ولا متعة! أسلّم نفسي، وأنسى أين أنا حتى ينتهي الزبون مما يقوم به. أحيانًا أنجذب إلى أحدهم، لكن أعرف حدودي بأنه أتى إليّ للتمتّع بجسدي فقط، ويصحّ ظنّي، فينسحب بمجرد أن يلحظ أنني أنظر إليه بإعجاب. بتّ كالملعونة، لكن أتقبّل ذلك لأجل تأمين متطلّبات ابنتي ووالدتي اللتين لا تعرفان ما أعمله هنا.

- وماذا تخبرينهما؟

- أقـول لهمـا إنـني أعمـل في محـلٍ لبيـع الذهـب، وأحصـل عـلى راتـبٍ جيـد. لكـن مـن الصعـب أن آتي بكمـا إلى هنـا لأن تكاليـف الحيـاة غاليـة جـدًا، كمـا أنـام وزميلـتي في غرفـةٍ قدّمهـا لنـا صاحـب العمـل.

- إسـمعي. إن إصراري عـلى اصطحابـك إلى هنـا هـو مـا اكتشـفته فيـك مـن صـدقٍ وشـفافيّة روح، وأنـا أسـأت إلى هاتـين الصفتـين. لسـتِ أنـت مـن سرق المـال كمـا بـتّ تعلمـين، وأنـا ظلمتـك. وعرفـت معـنى الظلـم عندمـا تعرضّـت لموقـفٍ مشـابه منـذ أسـبوعين لأنـني لـم أكـن قـادرًا عـلى مقاومـة خصـمٍ أقـوى مـني. كذلـك طعنـتُ بكرامتـك لمجـرد أنـك «ابنـة هـوى»، وهـا أنـا الآن أجـد أن لديـك كرامـة الإنسـان أكـثر بكثـيرٍ مـن مدّعـي الـشرف.

- أنـا شـاكرة لـك لأنـك اعترفـت بخطئـك نحـوي، وأقـدّر هـذه الكلمـات الـتي تصـدر عنـك بصـدق. هـذا مـا أشـعر بـه.

- هـذا مـا عنيتـه، وأقولـه لـك بقناعـة مطلقـة. لـديّ لـك اقـتراح. هـل أنــت مسـتعدة للإصغـاء؟

- أكيد. ما هو؟

- أن تتركي عملك هذا، وأن...

- أتريد أن تتزوّجني (وضحكت).

- لا. لا أريـد الـزواج منـك بالرغـم مـن أنـني عـازب، لذلـك كنـت أمـرّ عـلى الملهـى للمتعـة مـن وقـت إلى آخـر. أمـا الـزواج فموضـوع آخـر. إقتراحـي أن تنسـحبي مـن عملـك هـذا، وتعمـلي معـي. أملـك متجـرًا

في هـذا الشـارع للثيـاب، وأحتـاج لمـن أثـق بـه كي يحـلّ مـكاني عندمـا لا أكـون فيـه. كمـا أنـك تتمتّعـين بقـوام عارضـة أزيـاء، وهـذا مهـمّ بالنسـبة إلى الزبائـن. سـأقدّم لـك غرفـة مـع «منتفعاتهـا» لتعيـشي فيهـا، مـع راتـبٍ مقبـول. مـا رأيـك؟

- إذا كنـت جـادًا، فأنـا أتمـنّى ذلـك. لا تظـنّ أنـني أعشـق هـذه المهنـة القـذرة، لكـن لـم أسـتطع أن أمـدّ يـدي لأسـتعطي مـن النـاس طعامًـا ودواءً. ثـم صمتـت قليـلًا لتسـأل: أخـبرني، كيـف سـتكون علاقتنـا؟
- ليـس هنـاك مـن علاقـة خاصّـة بيننـا. فقـط موظّفـة تعمـل في متجـرٍ مـع امتيـازاتٍ قليلـة لأنـه لا منزل لهـا في المدينـة.
- قبلـت عرضـك. دلّـني أيـن آتي بعـد أسـبوعٍ حيـث أكـون قـد أنهيـت ارتباطـي بالملهـى.

دلّهـا مـازن عـلى المحـل بعـد خروجهمـا مـن المقهـى، وأتـت كمـا وعـدت، فقدّمهـا للموظّفـين، وشرح لهـا مسـؤوليتها في العمـل أمامهـم.

أبو سحر

في الطابق العلوي لشقّة أمّ فريال تسكن عائلةٌ صغيرة مؤلّفة من رجلٍ وزوجته وابنته. يعمل الرجل في حفر الخشب، وهي مهنة تعلّمها منذ كان طفلًا. وبما أن والده توفّي وهو في التاسعة من عمره، فقد ترك المدرسة ليتردّد إلى محل المعلّم أبو فريد حيث كان يعطف عليه الأخير بأن يدعه يؤدّي بعض الأعمال داخل المحل، ويعطيه أجرًا متواضعًا يعيش بواسطته. وعندما شبّ «شفّوقة» كما كانوا يغنّجونه، أصبح محترفًا في الحفر، فاتكلّ عليه أبو فريد في الكثير من الأعمال، وأصبح يحصل على راتبٍ ثابت وكافٍ ليعيش ووالدته بشكلٍ مقبول.

بعد أن توفيت والدته، شجعّه الأقارب والأصحاب على أن يتزوّج إحدى فتيات قريته كي لا يعيش وحيدًا. وبعد سنة رزق وزوجته بِابنة جميلة أسمياها «سَحَر»، وأصبحت مركز اهتمامهما حيث أمّنا لها ما يستطيعه الوالدان في حالتهما. وكان والدها يفتخر بأن ينادى «بأبو سحر» وليس بِاسمه «شفيق».

عندما أصبحت سحر مراهقة، ظهرت علامات الأنوثة في مكوّناتها الجسدية والروحية. فقامتها معتدلة، وعيناها زرقاوان كوالدها، لكنها أخذت عن أمّها استدارة الوجه والأنف الصغير، وسرعة البديهة. فهي جميلة وقريبة من قلوب الناس بدلال حركاتها، وبصوتها الذي يحمل بحّة خفيفة تزيدها رقّة وجاذبية. وكم من مرّةٍ أطرى عليها الشباب

الذيـن صـدف وكلّموهـا بالهاتـف قبـل أن يلتقوهـا، بالقـول: «والأذن تعشـق قبـل العـين أحيانًـا». أنهـت المرحلـة الثانويـة بامتيـاز، وتـمّ قبولهـا في الجامعـة بعـد نجاحهـا بتفـوّقٍ في امتحـان الدخـول، حـتى أنهـا أُعفيـت مـن ثلـثي رسـوم التسـجيل السـنوي. وهـذا كان دعمًـا ماليًّـا مهمًّـا لدراسـتها، وعـنى الكثـير لوالديهـا.

في البدايـة كانـت سـحر تخبرهمـا بمـا يحصـل معهـا في الجامعـة، أكان ذلـك مـع الزمـلاء أو الأسـاتذة. لكـن أمـرًا مـا بـدأ يلفـت نظرهـا، وهـو مـا يتداولـه زملاؤهـا بشـكلٍ عـرضي خـلال حديثهـم عـن أهلهـم ومهنهـم ومسـتواهم الفكـري. وهـي تـدرك أن والديهـا أمّيـان، لذلـك كانـت تتجنّـب الإجابـة عندمـا تطـرح عليهـا إحداهـن أيّ سـؤال عـن أمّهـا. إذ كانـت تكتفـي بالقـول: إن والـدتي تزوّجـت صغـيرة، وهـي «سـتّ بيـت» لا تعمـل. لكـن أُميّـة والديهـا جعلتهـا تفكّـر في أمـورٍ كثـيرة ليصبحـا في المسـتوى الـذي تريـده لهمـا، خصوصًـا المسـتوى التعليمـي ليسـتطيعا القـراءة والكتابـة. إذ تجنّبـت اصطحـاب أيّ زميلـة إلى منزلهـا، كي لا تكتشـف أن أمّهـا أو والدهـا لا يحسـنان القـراءة. فأتتهمـا يومًـا باقـتراحٍ فاجأهمـا:

- مـا رأيكمـا لـو تولّيـت مسـاعدتكما عـلى تخطّـي عقبـة الأمّيـة الـتي تعانيـان منهـا؟

- أنـا لا أعـاني ممـا تصفينـه بالأمّيـة، وكذلـك والـدك. إذ مـرّ عـشرون عامًـا عـلى زواجنـا، وهـا نحـن نعيـش بهنـاء، ولا يهمّنـا مـا يحصـل خـارج منزلنـا. أيـام كنـا صغـارًا لـم تتوافـر المـدارس مثـل اليـوم، والجميـع يعـرف ذلـك ويقبـل بهـذا الواقـع.

- أنـا لا ألومكمـا، وأفهـم واقعكمـا السـابق. لكـن لا يسـتغني الإنسـان عـن تعلّـم لغتـه ولـو بشـكلٍ بسـيط. أن يصبـح يقـرأ ويكتـب بهـا. هـذا المطلـوب، ولا يتعـارض ذلـك مـع هناءكمـا وطريقـة عيشـكما.
- الوالـد: أنـا تعلّمـت مبـادئ الحسـاب لأنـني أحتاجهـا في عمـلي، وفعـلًا أجـد أن مـا قمـتُ بـه لـه قيمـة كبـيرة. فيـا ليـت ظـروفي سـاعدتني وتعلّمـت كبـاقي أبنـاء جيـلي.
- الوقـت ليـس متأخـرًا عـلى ذلـك. سـأكرّس لكمـا سـاعة أو سـاعة ونصـف مـن وقـتي مسـاء كلّ يـوم. نحـن نمـضي هـذا الوقـت معًـا، فلـمَ لا نسـتخدمه في شيء تسـتفيد منـه أنـت وأمّـي؟
- فكرة جيدة يا ابنتي. متى تريديننا أن...
- (الأم مقاطعـة) هـل تريـد فعـلًا أن تفعـل مـا تريـده سـحر؟ أن نجلـس خلـف الطاولـة وبيـد كلّ منـا قلـم، ونكتـب الحـروف والأرقـام عـلى دفـترٍ لـلأولاد؟ مـاذا سـيقول عنـا الأقـارب إذا علمـوا مـا نفعلـه؟
- نحـن لا نـؤذي الأقـارب إذا تعلّمنـا القـراءة والكتابـة. أيـن الخطـأ؟ عـلى الأقـلّ يصبـح بإمـكاني اصطحـاب صحيفـة أو مجلّـة إلى المـنزل وأتصفّحهـا بعـد عمـلي.

وبعـد نقـاشٍ اسـتمر أكـثر مـن نصـف سـاعة، اقتنعـت أمّ سـحر، وفي اليـوم التـالي بـدأ النشـاط التعليمـي.

بضعـة أيـام مـرّت وسـحر تكتشـف بـأن التعلّـم في هـذه السـنّ ليـس سـهلًا كمـا تصـوّرت. لكنهـا لـم تتراجـع عـن وعدهـا لوالديهـا، وأقنعـت نفسـها بأنهمـا سـيصلان إلى مرحلـةٍ يسـتطيعان فيهـا تجـاوز أميّتهمـا حـتى ولـو

استثمرت وقت فراغها كلّه، إذ كانت تتوتّر أعصابها أحيانًا جرّاء تكرار شيء بسيط بنظرها، لكنه كان صعبًا بالنسبة إليهما. كما اشترت لهما كتبًا للمطالعة، وهي كناية عن قصص للأطفال نظرًا لبساطة كلمات النصوص ليستطيعا قراءتها بسهولة.

إصطحبت سحر مرّة زميلة لتناول الغداء معها، وانهمكت أمّها بتحضير الطعام. دخلت الإثنتان إلى غرفة الجلوس، ونادت سحر أمّها لتأتي وتتعرّف إلى سلمى التي لاحظت كتابًا موضوعًا على حافة «الصوفا»، وعليه صورة ديك وشمس ساطعة، وخلفية الصورة جبل عال. فتوجّهت إلى سحر: لم تذكري لي أن لديك إخوة صغارًا. يظهر أنها قصّة ممتعة كما يوحي الغلاف. وقبل أن تنهي سلمى سؤالها كانت الوالدة تمدّ يدها مصافحة ومرحّبة، ولم تعطِ سحر مجالًا للإجابة، بل سارعت بالقول: أنا ووالدها هما «الإخوة الصغار». إننا نقرأ في هذا الكتاب الذي جلبته سحر. فتحت سلمى عينيها بدهشةٍ وكأنها ضاعت في جواب الوالدة: أسأل عن أخوة لسحر، و...

عندما تكتشف سلمى الحقيقة، تطلب إلى سحر بألّا تخجل من ذلك لأن والديها عاشا ظروفًا صعبة وفي زمنٍ مختلف، ويكفي أنهما كرّسا حياتهما لها، وقامت لاحقًا بتعريفها بوالدتها التي تعمل متطوّعة في إحدى جمعيّات المجتمع المدني التي تهتمّ بمحو الأمّية.

في بداية فصل الصيف حيث لا دروس في الجامعة، تطوّعت سحر في هذه الجمعيّة، فأفادت واستفادت من خبرةٍ مع كبار السنّ الذين انضمّوا إلى برنامج محو الأمّية. وكرّرت ذلك لسنتين متتاليتين. وقد استدعتها والدة سلمى مرّة لتخبرها بأن مجلس إدارة الجمعيّة يحتاج

لتوظيـف شـخصٍ مـا ليكـون صلـة الوصـل بـين الجمعيّـة والمؤسّسـات الأجنبيّـة المانحـة، ومـع النـاس الذيـن بحاجـة لهـذه الخدمـة. وأضافـت: «إذا كنـت تريديـن العمـل هنـا، فهـي فرصـة لتقديـم طلـب توظيـف، وحظّـك كبـير كونـك لديـك خـبرة، وأنـت تتخصّصـين في حقـل العلاقـات العامـة». قامـت سـحر بمـا نصحتهـا بـه أمّ صديقتهـا، وتـمّ التعاقـد معهـا بـدوامٍ كامـل، وبراتـبٍ لا بـأس بـه. وقـد صـادف ذلـك مـع وقـت تخرّجهـا مـن الجامعـة.

عائلةُ إبراهيم

في المبنى الذي يقع خلف مقهى «الفينيق» تسكن عائلة إبراهيم المؤلّفة من الوالدين وصبي وفتاة. لقد اتّفق وزوجته رانيا بألّا ينجبا أكثر من ولدين كي يقدّما لهما تعليمًا ذا مستوى جيد، ما يساعدهما لاحقًا في الحصول على وظائف رفيعة. وهذه حال معظم الناس من الطبقة الوسطى بحيث تحدّد المدرسة والجامعة بواسطة أقساطها النسلَ لدى أفراد هذه الطبقة، حتى ولو كانوا يرغبون بمزيد من الأطفال.

فرح إبراهيم كثيرًا عندما حظي بفرصة عملٍ في إحدى الدول المجاورة براتبٍ جيد. فعلّق أمام رانيا بأن الله يسَّرَ الأمر بمصادفة حصوله على هذا العمل مع بلوغ شادي نهاية المرحلة الثانويّة، وهكذا تتأمّن كلفة دراسته الجامعيّة في جامعة خاصة أيضًا. ثلاث سنوات، وأصبح شادي في السنة الأخيرة من تخصّصه، بينما ثناء في الصف الثالث الثانوي. والمدرسة التي ترتادها تتمتّع بسمعةٍ تعليميّة جيّدة، وطلبتها يسجّلون نسبة عالية في النجاح بالامتحانات الرسميّة، لكن متطلّباتها كثيرة ومكلفة، كأنها تقول للمهتّمين بتسجيل أبنائهم فيها إنها للنخبة الميسورة، وليس لأيٍّ كان.

إمتلكت الدهشة إبراهيم عندما وضع سمّاعة الهاتف من يده. فابنته التي طلبته من المنزل قالت: «هاي بابا» ثم أردفت: «إن المدرسة تنظّم رحلة إلى إيطاليا، وسجّلتُ اسمي معهم، فمتى ترسل لي ألفَي

دولار لأدفـع مـا يتوجّـب عـليّ؟» أجابهـا: هـل أنـت بخـير؟ كيـف كانـت نتائـج الامتحانـات التجريبيـة للشـهادة؟... كان يسـأل وهـي تجيـب بنعـم أو لا، كأنهـا في امتحـانٍ متعـدّد الخيـارات، وليسـت فتـاة تتحـادث مـع والدهـا الـذي يعيـش عـلى بعـد آلاف الكيلومـترات منهـا ومـن أمّهـا وأخيهـا.

دُهـش مـن الابنـة الـتي رعاهـا بالخـوف والحنـان، والهدايـا والزيـارات والرحـلات، وهـي لا تفكّـر بـه إلّا إذا كانـت بحاجـة إلى بعـض المـال كي تنفقـه عـلى أمـورٍ ترفيهيّـة. تسـاءل هـل أبنـاء هـذا الجيـل جميعهـم هكـذا؟ هـل تأثّـروا بالأفـلام الأميركيـة الـتي تشـجّع عـلى تدمـير الروابـط الأسريّـة، وتدفع الأطفـال لاتّخـاذ مواقـف ضـدّ أهلهـم إذا لـم يلبّـوا لهـم أدنى طلـب؟ هـل ذاك المشـهد الـذي بـات مألوفًـا في الأفـلام بـأن يـصرخ الولـد بوجـه والـده، ويغـادر طاولـة الطعـام إلى غرفتـه، ثـم يغلـق البـاب وراءه بعنـف رافضًـا أن يفتحـه لوالدتـه الـتي تتبعـه لتسـترضيه، أو أن ينطلـق إلى خـارج المـنزل، ولا يعـود إلّا بعـد اللحـاق بـه واسـتعطافه؟ هـل هـذا التـصرّف بـات يطبـع سـلوكيات جيـل أولادنـا؟

إسـترجع تلـك الأيـام الـتي كان فيهـا ولـدًا ومراهقًـا، وكيـف كان يصغـي لمـا يقولـه لـه والـداه، كمـا كان يخـشى والـدَه إذا تفـوّه هـو بكلمـةٍ تنـمّ عـن تحـدّ أو رفـض. لكـن أبنـاء هـذا الجيـل لا يحسـبون لأهلهـم أيّ حسـاب سـوى الإلحـاح عـلى تأمـين مـا يريـدون. جيـلٌ لا مـكان في قلـوب أبنائـه لأهلهـم، ولا وقـت لديهـم يخصّصونـه لهـم. كلّ وقتهـم لأصحابهـم، كأن الأهـل أنـاس متخلّفـون لا يمكنهـم أن يفهمـوا تفكـير هـؤلاء المراهقـين الذيـن فرغـت أفكارهـم إلّا مـن ألعـاب إلكترونيـة بواسـطة الهاتـف، وزيـارات متواصلـة لصـالات السـينما والمقاهـي والمطاعـم، والتحـدّث عـن الـ «Boyfriend» أو الـ«Girlfriend».

أتى إبراهيـم إلى البلـد لحضـور حفـلَي تخـرّج ولديـه حيـث صـادف تاريخهمـا متقاربًـا. كان تخـرّج ثنـاء أولًا، وقـد تمـيّز بالمباهـج مـن فرقـة موسـيقيّة، وتوزيـع جوائـز، وكلمـاتٍ رنّانـة في المناسـبة. وبعـد الاحتفـال، أخـذت ثنـاء تتنقّـل بـين مجموعـاتٍ مـن الزمـلاء والزميـلات حيـث يتبادلـون التهـاني والتعليقـات والضحـك بصـوتٍ عـال. إنتظـر إبراهيـم أن تـأتي ابنتـه لتنضـمّ إلى الأسرة، لكـن عبثًـا. تنبّهـت رانيـا لذلـك، فأشـارت إلى شـادي أن يذهـب ويصطحـب شـقيقته، فعـاد ومعـه ثنـاء الـتي اعتـذرت لوجودهـا مـع زملائهـا، والآن سـتأخذ صـورة تذكاريّـة مـع الأسرة، ثـم تعـود إليهـم. فعلّـق الوالـد: أرى معظـم زملائـك مـع أهاليهـم، فلمـاذا أنـت وثلّـة منهـم تغـرّدون بمفردكـم في هـذه المناسبة؟ لقـد كنتـم معًـا عـدة سـنوات، ونحن هنـا لسـاعتين عـلى الأكـثر، أليـس لنـا وقـت خـاص بهـذه المناسـبة؟ أجابـت بأنهـا وعدتهـم بالعـودة بسرعـة، وسـترى الأسرة بعـد الانتهـاء مـن عشـاء التخـرّج. إلتقـط مصـوّر الاحتفـال صـورة للعائلـة، وعـادت ثنـاء إلى شـلّتها، بينمـا ركـب إبراهيـم وزوجتـه وابنـه السـيارة وعـادوا إلى المـنزل.

بعـد أسـبوعٍ كان موعـد تخـرّج شـادي. وفي أثنـاء توافـد الأهـالي والمدعوين، كانـت مجموعـةٌ مـن الطـلاب المتطوعـين لهـذه المناسـبة تـوزّع منشـورًا مـن بضـع صفحـات عـن الجامعـة وبرنامـج الاحتفـال، وقـد تصـدّره شـعارها وتحتـه عبـارة: «مؤسّسـة لا تبغـي الربـح». ضحـك إبراهيـم في سرّه وقـال عـلى مسـمع زوجتـه: لا تبغـي الربـح! لقـد اسـتنزفت راتـبي عـلى مـدى أربـع سـنوات، فكيـف إذا كانـت تبغـي الربـح؟ مـاذا كان عـليّ أن أفعـل؟!

جلـس وزوجتـه وابنتـه في المنطقـة الخلفيّـة المخصّصـة للأهـالي، لأن الأماميّـة هـي للضيـوف أصحـاب المواقـع السياسـيّة والدينيـة والاقتصاديّـة والإعلاميّـة. والأهـالي بالـكاد اسـتطاعوا رؤيـة أولادهـم وهـم يمشـون

علـى «البوديـوم»، ويتسـلّمون شـهاداتهم. كانـوا يسـمعون اسـم ابنهـم أو ابنتهـم، فيصفّقـون ويهتفـون بفـرحٍ لثـوان، ليُعلـن اسـمُ طالـبٍ آخـر. وعندمـا اقـترب دور شـادي ليُنـادى باسـمه، ويتقـدّم لتسـلّم الشـهادة مـن راعـي الحفـل، انقطعـت الكهربـاء، فلـم يسـمع حـتى اسـمه يُنـادى بـه مـن قبـل المسـؤول.

لكـن شـادي مـشى بثقـة حـتى وصـل أمـام الرئيـس وراعـي الاحتفـال اللذيـن تصنّعـا بابتسـامةٍ لأجـل الصـورة، وابنتـه وزوجتـه تصرخـان: هـا هو شـادي، انظـروا! وتصفّقـان. صفّـق إبراهيـم معهمـا مـع ابتسـامة صفـراء محتقـرًا مـا يحصـل أمامـه مـن تمثيـلٍ فاشـل. وعندمـا سـألته زوجتـه عـن تعكّـر مزاجـه في هـذه اللحظـة الخاصـة، ردّ عليهـا: لقـد حرمـوني حـتى مـن متعـة سـماع اسـم ابـني، وبالـكاد كـدت أمـيّزه عـن أيّ طالـبٍ آخـر مـن هـذه المسـافة. مـا لهـذه الأمـور والمناسـات تأتيـني بـكلّ سـلبيّة وإزعـاج؟

إنتهـى الحفـل، وراح النـاس يأخـذون الصـور مـع الخرّيجـين، وكذلـك فعـل إبراهيـم الـذي لـم يحـظَ بأكـثر مـن صـورةٍ مـع ابنـه الـذي كان برفقـة صديقتـه يتنقّـلان مـن مجموعـة إلى أخـرى مـن خرّيجـي صفهـم.

شـعر وهـو عائـد إلى المـنزل بـأن الأسرة الـتي حلـم بتكوينهـا غـير موجـودة. لقـد كانـت أسرة «بالقـوّة» كمـا تعلّـم في مـادة الفلسـفة، ولـم تصبـح أسرة «بالفعـل». فهـو الـذي أزهـق سـنوات شـبابه في العمـل في البلـد وخارجـه، ألا يسـتحقّ أن يشـعره أولاده بـأن لـه مسـاحة في قلوبهـم وتفكيرهـم، خصوصًـا في هاتـين المناسـبتَين؟

عنـد وصولـه إلى المبـنى، قـال لزوجتـه وابنتـه إنـه يشـعر بحاجـة إلى وقـت لوحـده. فصعدتـا إلى المـنزل، بينمـا راح يجـول في الشـارع عـلى رجليـه

مستطلعًا بعض التغيّرات التي تحصل فيه. فمرّ بجانب المبنى الذي كان يضمّ المكتبة العامة، والتي كان يتردّد عليها عندما كان طالبًا ليستعير كتابًا، أو يجلس إلى طاولة قديمة يقرأ صحيفة... لقد استُبدل اسم المكتبة كما تدل «الآرمة»، وأصبح «أحذية أجنبية للجنسين». فمجلس البلدية قرّر إلغاء المكتبة، وتوزيع الكتب التي شغلت رفوفها لعشرات السنوات مجّانًا. فلا حاجة لقراءة الكتب بعد اليوم. الناس أزاحوا الكتاب، وأحلّوا محلّه تفاهات يقرأونها على شاشات الهواتف. والمكان الذي شغلته المكتبة تمّ تأجيره ببضع مئات من الدولارات. يبدو أن منظر حذاء على الرف بات أكثر قيمة وجاذبية لزوّار الحيّ وللبلدية من كتاب لـ«فيكتور هيجو»، أو «شكسبير»، أو جبران، أو المنفلوطي. إبراهيم الذي اعتاد على الكلام مع ذاته، يعلّق على إغلاق المكتبة: إنه عصر التصحّر الفكري في بلد «النور» كما يدّعي أبناؤه. المجتمع الذي يرى في الحذاء جمالًا وقيمة أكثر من الكتاب لا يستحق إلّا أن يكون في مزبلة التاريخ.

لفت انتباه إبراهيم وجود بعض ورش البناء ضمن سياج أو أسوار من التنك والأخشاب. فمبنى «أبو جمال» اختفى، ولا يظهر من مبنى «الأحمر» إلّا أعمدة إسمنتيّة تعلوها قضبان من الحديد. وبعد عشرات الأمتار بناء آخر لم يتبقَّ منه سوى الطابق الأرضي لأنه حصل على نصيبه من الهدم، والورشة جاهزة للانقضاض على ما بقي من حيطان. إنه أمام مزيجٍ بشع من أبنية صفراء قد اعتادها، وأخرى لا لون لها إلّا الرمادي الداكن، وهي مختبئة خلف أسوار تحجب الرؤية بشكلٍ فوضوي ومزعج، وتركنُ إلى جانبها رافعة حمراء تناطح

فضـاء المنطقـة بطولهـا الفـاره والبشـع. تغـيّرات ربمـا تترافـق مـع تغـيّر طبـع البـشر وسـلوكياتهم. كلّ شيءٍ يتغـيّر في الشـارع، وحـتى في العاصمـة كلّهـا. إنـه لأمـر محبـط لأسـباب كثـيرة، ولـم يجـد حالـة واحـدة تغـيّر مـن سـوداويته الـتي بـدأت تنمـو في داخلـه.

أسئلةٌ كثـيرة تركهـا معلّقـة، وأراد ألّا يتحمّـل وزر كلّ أمـرٍ سـلبي. لقـد قـام بـكلّ مـا اعتـبره واجبًـا نحـو أسرتـه، ووطنـه الـذي بـات يـراه مكانًـا لتجمّـع أنـاسٍ لا يربـط بينهـم أيّ شيء، كأنهـم كائنـات تعيـش في فضـاءٍ فـارغ وفوضـوي. إنـه الإحبـاط الـذي يـؤذي دواخلـه عندمـا يكتشـف بـأن كلّ مـا حولـه هـو تصنّـع، ولا يمـتّ بصلـةٍ لصدقيـة يتوقّعهـا في النـاس.

في اليـوم التـالي كان في الطائـرة عائـدًا إلى مـكانٍ آخـر يشـعر فيـه بالغربـة واللاإنتمـاء أيضًـا.

جلال الكاتب

مـرّت سـنةٌ كاملـة، وجـلال مـا زال ينتظـر فرصـة عمـل، لكنـه لـم يوفّـق في ذلـك. وبـدأ المـال المتوافـر لديـه ينضـب. أفـكارٌ كثـيرة تـراوده لأن الصحف الـتي قـدّم لهـا سـيرته الذاتيـة لـم تكـترث بهـا، واسـتنتج ذلـك مـن عـدم تلقّيـه أيّ جـواب منهـا. ومـع هـذا فقـد أصرّ عـلى البقـاء في عالـم الصحافـة بالرغـم مـن تخصّصـه في الاقتصـاد. لكـن الكتابـة بشـكلٍ عـام، الاقتصاديـة والأدبيـة، تشـعره بالاكتفـاء النفـسي، وبالسـلطة، وبالقـوّة، لذلـك امتهنهـا ولـم يفكّـر بالعمـل في مؤسّسـةٍ اقتصاديـة. ولمـس أن مـردود الروايتـين لا يؤمّـن لـه سـوى نسـبة لا تذكـر مـن تكاليـف الحيـاة، فكيـف عليـه تدبّـر الموضـوع وإيجـاد حـلّ لوضعـه المـأزوم؟

لـم يفكّـر طويـلًا بالاسـتجابة لطلـب أحـد أقاربـه الـذي يعمـل في صحيفـةٍ في الخـارج بتقديـم طلـب لإدارتهـا لأنهـا بحاجـةٍ لمـن يـشرف عـلى الصفحـة الاقتصاديّـة. تـمّ قبـول طلبـه، فوضّـب حقيبتـه، وسـافر تـاركًا خلفـه الحـيّ الـذي نشـأ فيـه، واعتـاد ناسـه ومشـكلاته وشـوائبه وحسـناته. وهـو الـذي ردّد مـرارًا بأنـه يفضّـل العيـش في هـذا الشـارع عـلى أيّ مـكانٍ آخـر، ولـن يبرحـه مهمـا كانـت الإغـراءات. لكـن للحاجـة منطـق آخـر، وأقـوى مـن «النوسـتالجيا» وكلمـات الوفـاء والحنـين.

كان العمـل جيـدًا، ولـم يعكّـر مزاجـه أيّ مسـؤولٍ في الصحيفـة، كمـا أنـه بقـي بعيـدًا عـن المواضيـع السياسـيّة الحسّاسـة بالرغـم مـن تداخـل

السياسي بالاقتصادي، وحرص على عدم تكرار التجربة التي أدّت إلى فقدانه عمله مرّتين. كانت تعمل معه في القسم مساعدةٌ جميلة لديها خبرة في هذا الحقل، ما جعله يرتاح إلى الانسجام في طريقة العمل، وتقديم المواضيع وتصميمها. كما كان يكتب مقالةً في الحقل الاقتصادي أسبوعيًا، وهذا ما اعتاده في الصحيفتَين اللتين عمل بهما سابقًا. لكن اكتفى بمعالجة مواضيع ترتبط بالاقتصاد العالمي وليس المحلّي.

على الصعيد الاجتماعي، كان جلالٌ عازبًا صامدًا. فهو لم يتطرّق إلى موضوع الزواج ولو مرّة واحدة في كلّ أحاديثه، بالرغم من أنه أصبح في الثلاثينات من عمره. لكن يبقى لكيمياء العيون تأثيرها السحري الذي يهزم الإرادات الصلبة، ويجعلها تعيد النظر في كلّ شيء. وكلّما كان هناك وقت فراغ، كان يتحادث مع مساعدته في أمورٍ عديدة إلى أن بدأ يشعر بانجذابٍ نحوها. فسحر عينيها السوداويتين، وشعرها الشبيه بشلالٍ اقتطع من ليل كانون، وابتسامتها الجميلة الفتّاكة، وصوتها العذب الحامل لأجمل الكلمات، أجبرته كلّها على الاستسلام. حاول تجاوز الشعور بالانجذاب إليها من خلال إيهام نفسه أن هذا نوع من الهلوسة يختبره الرجل إذا كان يعيش بمفرده، ومن دون أنثى في حياته، لكنه فشل.

تطوّرت علاقته بسعادٍ إلى أن وقع في حبّها، وهو في الوقت ذاته لم يشأ أن يرتبط بامرأةٍ لأنه كان يرى حياته في عالم الكتابة، عالم الروايات والمقالات والشعر... ولا يريد أن ينتقل إلى عالمٍ آخر «روتيني» حيث أسرة وأطفال ومدارس وارتباطات اجتماعية تحوّل حياته تدريجيًا، وبشكلٍ أكيد، إلى واحدة تشبه حياة أيّ رجل منزل يلتزم بما تتطلّبه ظروف الحياة الاجتماعيّة. ها هو يعيش ازدواجيّة بين مشاعره من

جهـة، وقناعاتـه مـن جهـة أخـرى. وبينمـا كان في هـذه الحـيرة، تبلّـغ إنـذارًا بعـدم تجديـد عقـده لأن المسـؤولين عـن الصحيفـة وجـدوا حـلًا للأزمـة الماديّـة الـتي يعانـون منهـا. إذ قـرّروا دمـج بعـض الصفحـات والأبـواب فيهـا لتقليـص الكلفـة، خصوصًـا وأن عـدد قـرّاء الطبعـة الورقيـة قـد تقلّـص كثـيرًا لأنهـم باتـوا يعتمـدون عـلى النسـخة الإلكترونيـة.

تقبّـل جـلال الأمـر بهـدوء. فقـد اعتـاد الصدمـات، وبـدأ يفكّـر في البديـل. كان أمامـه خيـارٌ مـن إثنـين: العـودة إلى البلـد، والـتي تعـني العـودة إلى اللاعمـل؛ أو السـفر. تبـنّى الخيـار الثـاني: السـفر إلى أيّ بلـد أوروبي أو كنـدا أو أسـتراليا أو البرازيـل، وحـتى السـفر إلى المجهـول. هـذا مـا يشـعر بـه مـن يصـاب بالإحبـاط جـرّاء تمسّـكه بالعيـش في وطنـه، ويخيـب أملـه. المهـمّ أن يحصـل عـلى «فـيزا هجـرة». سـيجد عمـلًا هنـاك، أو سـيكتب وسـيحظى بمـن يترجـم لـه كتاباتـه مـا يسـاعده عـلى تأمـين دخـل يعيـش بواسـطته. لكـن مـاذا بشـأن علاقتـه بسـعاد؟

في اليـوم التـالي أخبرهـا بمـا حصـل بالنسـبة إلى العمـل، ولخطّتـه بعـد اضطـراره لـترك البلـد، وأنـه سـيحافظ عـلى هـذه العلاقـة الجميلـة معهـا. قـال ذلـك لأنـه لـم يعدهـا بـزواجٍ أو الـتزامٍ مـا، بـل علاقـة قائمـة عـلى المشـاعر فقـط. كان الخـبر صدمـة لهـا إذ لـم تتوقّـع بأنـه سـيغادر بهـذه السرعـة بالرغـم مـن عـدم اطمئنانهـا لاسـتمرارية العلاقـة لأن ناحيـة في شـخصيّته بقيـت غامضـة بالنسـبة إليهـا، ولـم تسـتطع الولـوج إليهـا لتكمـل الصـورة الـتي رسـمتها عنـه في مخيّلتهـا. وبالرغـم مـن ذلـك كانـت سـعيدة بتلـك المشـاعر المتبادلـة بينهمـا، وكانـت تأمـل حـدوث تغيـير مـا يدفعـه للبقـاء بقربهـا.

مـرّ الشـهران اللـذان كانـا الأخيريـن لـه في البلـد، وكان قـد حصـل عـلى «الفـيزا» مـن سـفارة البرازيـل. فبـدأ الاسـتعداد للرحيـل إلى المجهـول، كمـا كان يـردّد. ربـط صـورة البرازيـل الـتي لـم يزرهـا سـابقًا بمجاهـل غابـات الأمـازون. وفي الأيـام المعـدودات الباقيـة لـه في العمـل، كانـت الأمـور تحـدث بشـكلٍ مختلـف وسريـع. فالوقـت بـات عامـلًا ضاغطًـا عليـه، ثـم لقـاء سـعاد بشـكلٍ متواتـر. وفي الأسـبوع الأخـير أحـسّ نفسـه بأنـه يعيـش تحـت ضغـطٍ عمـلي وعاطفـي، فأصبـح تواصلـه معهـا متوتّـرًا أكان هاتفيًـا او وجاهيًـا. وفي اللحظـة الـتي كان يودّعهـا بهـا، ضبـط دمعـة اسـتولدتها كلماتهـا، وأجهشـت بالبـكاء وهـي تغمـره وتطبـع قبلاتهـا عـلى وجهـه ورقبتـه وشـفتيه، وكأنهـا قبـلات الفـراق الأبـدي. كان لديهـا كلام فيه عتـاب وخوْف، لكنهـا لـم تقـل لـه شـيئًا كي لا تحـوّل تلـك الدقائـق إلى جـدال لا طائـل منـه.

في اليـوم التـالي، وقبـل أن يصـل إلى البرازيـل، أرسـلت لـه رسـالة بالبريـد الإلكـتروني تعـبّر فيهـا عـن ولههـا بـه، وكيـف أنـه الحبّ الـذي انتظـرت، و...

بعـد أن قـرأ رسـالتها الـتي ردّتـه بسرعـة إلى مراتـع الذكريـات الجميلـة، والأوقـات الحلـوة التي أمضياهـا معًـا، اعـترف لنفسـه بخطئـه. إعـترف بـأن مـا حصـل بينهمـا كان نتيجـة تسرّعـه، ومـع هـذا فتلـك الحالـة لـن تتكـرّر بجمالاتهـا. كان يعلـم بـأن مشـاعر الحبّ بينهمـا لـن تترجـم لحـن سـعادة أبديّـة يعيشـانها معًـا كمـا تمنّـت هـي. لقـد اقتحـم عالمهـا المحافـظ والرومانـسي والشـفّاف كالبلّـوْر الـذي يجرّحـه الضـوء، وتكـسره اهـتزازات نسـمة خريفيّـة... عـاش في هـذا العالـم الممتـع الـذي أوجـداه، وشرب مـن كـؤوس السـعادة معهـا، لكـن كانـت هنـاك غصّـة دائمـة وهـي أن هـذا الطريـق الـذي بـدآه سـينتهي يومًـا مـا، وعـرف مسـبقًا بأنهـا سـتعاني جـرّاء ذلـك.

فهو لم يكن ليكرّس حياته للحبّ، بل كان هناك أمر آخر له الأفضليّة في حياته وهو عمله الفكري. فانكبّ مجددًا على الكتابة في كلّ لحظة فراغ توفّرت له في بلدٍ لا يعرف إلّا العمل، وأنجز روايته الثالثة. لكنه كان متأكدًا بأنها لن تُقرأ إذا لم تُترجم إلى البرتغالية. وبعد الاستقصاء عن كيفية فعل ذلك، واجه مشكلة ماليّة لأن عليه أن يدفع مبلغًا كبيرًا لمن سيقوم بذلك، خصوصًا وأن ترجمة الكتاب تختلف عن ترجمة نصٍّ عادي نظرًا للمحافظة على الأسلوب والصور البيانية والفكرة وغير ذلك. وعلى المترجم أن يتقن نقلها إلى اللغة الثانية من دون تشويه كي تعكس ما قصده الكاتب.

ساعده أحد أبناء جاليته هناك بأن عرّفه إلى كاتب-مترجم. فاتفقا على أن يأخذ الأخير بدل أتعابه من مبيعات الكتاب. ثم ذهبا معًا إلى دار النشر، ووقّعا العقد الذي تضمّن بندًا يُعطى بموجبه المترجم الحقّ بالاستفادة من ريع الكتاب حتى بلوغ الرقم المتفق عليه، وبعد ذلك يحوّل الريع إلى جلال. وفي بضعة أشهر بيعت آلاف النسخ من الكتاب الذي عالج موضوعًا اجتماعيًا بحسب عادات الشرق وتقاليده. إذ كانت هناك رغبة لدى القراء لاكتشاف ناحية من هذا العالم الساحر أحيانًا، والمخيف أحيانًا أخرى. العالم الشبيه بالإله الروماني «جانوس» ذي الوجه المؤلّف من نصفين متضادين: واحد جميل جذاب، وآخر بشع ومخيف.

وكان جلالٌ قد قدّم كتابه بعبارة وجدانية: أن تكتب، فهذا يعني أنك خطوت خطوة على الطريق إلى عقول الناس، وأن تُقرأ فهذا يعني أنك اجتزت ما تبقى من هذه الطريق.

ما كتبته إحدى الصحف المتخصّصة بحقل الرواية عن الكتاب سبّب الرواج له، وشجّع جلال على وضع روايته الرابعة. وكان محورها علاقة حبّ بين إثنين في مجتمعٍ محافظ، وكم من المجازفات التي اتخذتها الفتاة كي تعيش هذا الحبّ، وكيف تحدّت ذاتها وما نشأت عليه، كما تحدّت تقاليد مجتمعها لتستطيع لقاءه خارج مكان العمل، بينما الشاب لم يعانِ أيّ مشكلة في هذه العلاقة، بل يملي ما بذهنه على حبيبته. كذلك ضمّن النص وصفًا جذّابًا للقاءاتهما التي كان يغمرها جوّ عابق بالمشاعر السامية، كأنهما في فردوسٍ يعيشان اللحظات بعفوية وصدق، والقصائد الغزليّة التي كتبها لها، وغالبًا ما كانت تطلب إليه أن يقرأها على مسمعها كي تشعر بصوته أيضًا، وليس بكلماته فقط. ثم يشرح بالتفصيل ظروف مغادرة الحبيب (الذي كان هو ذاته) فردوسه الجميل مكرهًا ليبحث في صحاري الغربة عن ظروف حياة تؤمّن له الاستقرار. ومن هذا الوضع استنبط عنوان كتابه: فردوس وصحراء.

ختم جلال الكتاب بجزءٍ من الرسالة التي بعثتها إليه الحبيبة في اليوم التالي لمغادرته بلدها. ويقول إنها كتبت في مقدمتها بأن هذه «محاولة لها في الكتابة» تاركة له حرّية وضع عنوان من ثلاثة: «صفحة من مذكراتي»، أو «الحبّ المنتظر»، أو «لا شيء». وبدوره تركها بلا عنوان: «إنتظرت كثيرًا الحبّ الذي سيأخذني إلى عالم الروايات والأحلام، حبًّا أحلّق معه عاليًا، وأداعب معه النجوم.

رسمت صورة حبيبي المجهول بكلّ التفاصيل، وكنت أتساءل كيف سينبض قلبي عند رؤيته. هل سأقع في غرامه من أول نظرة، أم ثاني نظرة؟

كنت واثقة أن حبيبي المجهول حين يراني سيصرخ: «وجدتها»! وسيُعلِم الدنيا بأني أجمل نساء الأرض في عينيه، وأني الحبّ الأول والأخير. وأخذت على نفسي عهدًا أني سأنثر له الأرض وردًّا، وأدخله الجنان بيدي، وأجعل عينيَ فرشًا له وأهدابي غطاءً، وسأسقيه الشهد وأكون له كما يريد.

رسمت بخيالي بيتي الصغير له، واحترت... يا ترى كم طفلًا يريد: واحد، إثنان، أم عشرة؟ وماذا سأفعل إن أراد عشرة وأنا أريد أربعة؟!

كم كانت أحلامي بريئة طاهرة نقيّة، وكم كنت ساذجة ومتيقّنة من تحقّقها!

يا حبًّا انتظرته! كم تساءلت عن موعدك معي كلّ ما رأيت إحداهن ترتدي الأبيض وتُزَفّ؟!

كم عاتبتك على تأخرك، وعلّلت نفسي بأنها الأقدار، وما بأيدينا أن نقدّمها أو نؤخّرها.

كم رجوت ربّي أن تأتي لأباهي بك الأصحاب، وأقول للعالم إن فارسي المقدام أتى! ولم يخب ظنّي كما تزعمون.

آمنتُ بك ورغبتُك، وانتظرتك رغم الآهات والدموع التي رأيتها في عيون من كانوا بك يومًا يتنفسون...

رأيتك... وآآآآآه ليتني ما رأيتك...

لم تكن أنت من انتظرتُ، ولم أعد أنا من كنتُ!

فهل الحبّ كثير الأوجه! أو له وجه واحد؟

أعرف فقط حبًّا واحدًا عشته بالروايات، ولمسته في كلّ بيت شعر، وتنهدّته في كلّ لحنٍ شجيّ... ورأيته في عيون العاشقين...

لماذا أنت من بين كلّ الرجال؟

رأيتك... تقابلت أعيننا، أحسست بتيّارٍ يشدّني إليك...

دقّـات قلـبي ليسـت كمـا عهدتهـا هادئـة منتظمـة... لقـد اخـترق التيّـار قلـبي وأسرع بدقّاتـه...

أتعلم لقد رأيتك قبل لقائنا الأول، ولكن لا أذكر أين!

أفي أحلامـي! أو أن أرواحنـا تلاقـت قبـلًا في أزمنـة أخـرى، وأمكنـة أخـرى؟! أو أنهـا تلاقـت قبـل الخليقـة، لا أعلـم... فهـل تعلـم؟

بادئًـا لـم أظنّـه حبًّـا... رأيتـك ثانيـة، وثالثـة... وشـعرت معـك بذلـك التيّـار، وبازديـاد قوّتـه. أيعقـل أنـه هـذا هـو الحـبّ؟! ولكـن كيـف؟

أنـت لـن تكـون لي. فأنـت ربّـان ليـس لـه قـرار، وتعـودّتَ الرسـوَ في كلّ المـوانئ... وأنـا مرفـأ لا درايـة لـه بالسـفن ولا بربابنتهـا!

آه! لا أدري كيف ولماذا أنت من أحببت!

لا تقل الأقدار!

حاولـتُ مـرارًا وتكـرارًا أن أهـرب مـن هـذا القـدر، ولكـني ازددت تعلّقًـا وجنونًـا بـه. أبتعـد منـك خطـوة أعـود إليـك خطـوات، حـتى استسـلمت لقـدري.

أحببتك لدرجة الألم، وأحبّك وأشتاقك لدرجة البكاء.

أحببتـك مـع الأمـل واليـأس منـك، أتنفّسـك لأعيـش، وأرتـوي منـك لأزداد عطشًـا. كـم أعشـق صوتـك وأذوب مـن لمسـة يـدك! هـل تطرّفـتُ في حبّـك، أو هـذا هـو الحـبّ؟ أهكـذا يكـون الحـبّ الأوّل؟

إمتلأت ذاكرتي باِسمك وكلماتك وضحكاتك وحكاياتك، ولم يعد فيها مكان لأحد غيرك.

ليلة أمس أنهيتَ الكلام لأنه ليس لديك أنت ما تقوله، ولم تنتظر إن كان لديّ أنا ما أقوله، وكان لديّ الكثير لأقوله، لكنّه تبعثَرَ لحظةَ قرّرتَ إنهاء المكالمة.

كم أنك قاسي القلب، أنانيّ!

لم تترفّق بقلب أحبّك، ولم ترغب بقربه وهو المتعطّش دائمًا لحبّك ولقربك، ولم تغدق عليه بالحبّ وأنت راحل...

ولم تراعِ ضعفه وانكساره أمامك وأنت راحل!

ما ضرّك لو تنازلت عن عليائك قليلًا؟ أقلبك هكذا، أم قلوب كلّ الرجال هكذا؟!

لم أعد أجد من أشكي له همّي وقلّة حيلتي إلّا الجدران الصامتة التي احتوت ضحكاتي ولحظات سعادتي، والآن تضمّ آلامي ووحدتي ودموعي».

أضاف جلال على لسان بطل روايته بأنه حاول أن يجعل المعاناة أخفّ وطأة عليها، بأن بدأ يقلّل من كتاباته لها تدريجيًا، وحجّته أنه يرتّب أموره في بلادٍ جديدة وغريبة بالنسبة إليه، لكن لم يكن يعرف بأن لديها ردّات فعل متطرّفة جعلتها تكتب له رسالة أخرى تعبّر فيها عن ندمها على حبّها له، وإقامة تلك العلاقة معه، وبأنها ستنساه وتمزّق ما علق في ذاكرتها من صورٍ وأحداث عاشاها معًا. كما أنه لم يعلّق على رسالتها الأخيرة، إذ ليس لديه شيء يقوله أو يدافع به عن موقفه.

بـل أضـاف في نـصّ روايتـه بـأن المـرأة عندمـا تحـبّ تنقـاد بـكلّ جوارحهـا، ولا تعـود تعـي إلّا هـذا الشـعور الجـارف الـذي تسـعد بـه، والـذي يحملهـا كطائـرٍ في سـماء واسـعة كّلهـا حرّيـة وفـرح، ويحلّـق بهـا عاليًـا لـترى الدنيـا أجمـل بكثـير ممـا هـي. لـذا يصبـح همهـا المحافظـة عـلى هـذا الحـبّ بـأيّ ثمـن، هـذا الحـبّ الـذي يحوّلهـا إلى «تسـونامي»، فتصبـح مسـتعدة لاجتيـاح كلّ مـا يعـترض مشـاعرها وأحاسيسـها، وتدمّـره. وإذا اكتشـفت أن مـن تحـبّ لا يبادلهـا المشـاعر والمواقـف والجنـون عـلى طريقتهـا، فتمقتـه وتتمـنى تدمـيره، وتنـدم عـلى حبّهـا لـه لأنهـا تعتـبره بخيـلًا في مشـاعره، وخائفًـا وجبانًـا في حبّـه، ولـم يكـن ليسـتأهل نظـرة واحـدة منهـا.

تقـرأ هنـاء، صديقـة سـعاد الكتـاب، وتكتشـف أنـه بـوح لجـلال بعلاقتـه مـع سـعاد بالرغـم مـن أنـه أعطاهـا اسـمًا وهميًـا في الروايـة. فهنـاء كانـت كاتمـة أسرار سـعاد لأنهمـا صديقتـان منـذ أيـام المراهقـة، ومقرّبتـان جـدًا. وكانـت سـعاد بحاجـةٍ إلى مـن تخـبره مـا يحصـل معهـا. ربمـا هـذه هـي طبيعـة المـرأة! إذ ترغـب دائمًـا بـأن تشـارك امـرأةٌ أخـرى بمـا لديهـا مـن أسرار، فـروَتْ لصديقتهـا الـتي صـادف أنهـا انتقلـت للعيـش في البرازيـل، تفاصيـل علاقتهـا بجـلال منـذ اللحظـة الأولى الـتي بـدأت تشـعر بـأن هنـاك إحساسًـا مـا نحـوه إلى يـوم مغادرتـه، إذ كانـت تلتقيهـا في زياراتهـا المتكـررة للبلـد، وتكتـب لهـا غالبًـا، أو تتصـل بهـا بالهاتـف أحيانًـا.

عندمـا أتـت هنـاء لزيـارة البلـد، كانـت هديتهـا لسـعاد نسـخة مـن كتـاب جـلال الأخـير. تفاجـأت الثانيـة بالهديـة حيـث اسـتطاعت قـراءة الاسـم فقـط، ولكنهـا طلبـت مـن صديقتهـا أن تتقبّـل إعادتـه إليهـا. فعلّقـت هذه:

- كيف ترفضين هديتي، وهي هدية مزدوجة؟

- ما تعنين بالمزدوجة؟

- إنها من صديقتك ومن حبيبك في الوقت نفسه!

- ليس لدي حبيب، وهذا ما دفعني لإرجاع الهدية مع الشكر.

- لا تكوني كالمراهقة في ردّ فعلك. لقد تكلّمنا في الموضوع كثيرًا. إذ ليس كلّ علاقة حب تستمرّ إلى الأبد. الجميل في العلاقة هو ما نعيشه في أثنائها من فرح وسعادة وجنون....

- لقد تألّمت كفاية، ولم أكن أتصوّر أنني سأمرّ بهكذا حال. فلما تريدين إحياء الماضي؟ ليبكيَني الحاضر؟

- ستفاجئين إذا قرأتِ الكتاب مترجمًا يومًا ما، لكنه بالبرتغالية كما ترين، وأنا مستعدة كي أترجمه لك جملة جملة.

- لا داعي لذلك. لقد نسيتُه، ومزّقتُ ما علق بذاكرتي منه.

تقبّلت هناء استرجاع الكتاب، لكنها كانت تعلم في داخلها بأن صديقتها ستغيّر موقفها. وبعد أيامٍ أعادت الموضوع إلى حديثهما، فلم تجد تلك المعارضة القويّة لدى سعاد، ففتحت الكتاب وراحت تقرأ بعض الجمل التي ترتبط بها وتترجمها لها. كانت تصغي لهناء، تاركة الحرّية لدموعها تنهمر عندما يفصح جلال عما اعتمل في داخله من مشاعر رقيقة نحوها، وقد صوّرها بالشفّافة والصادقة في حبّها الذي وصفه كالعاصفة التي لا تترك مجالًا لأن ينبت الشوك في حقولها، أو أن يعترض شيء سبيلها، بل تقتلعه لتعود أزهار الربيع وتنبت بعد أن تكون العاصفة قد طهّرت أديمَ الأرض من كل الأشواك...

ظهـر جـلال في الروايـة كمـا وصفتـه في رسـالتها: «ربّـان ليـس لـه قـرار، تعـوّد الرسـو في كلّ المـرافئ». فهـو لـم يشـأ أن يسـجن نفسـه في قفـص حـبٍّ حـتى ولـو مـع أجمـل امـرأةٍ كمـا كان يسـمّيها، بـل فضّـل الاحتفـاظ بحرّيتـه في التنقّـل والطـيران والاستكشـاف حيـث أغنـت التجـارب الكثـيرة حياتَـه، وتعلّـم الكثـير ليضيفـه إلى خزائـن معارفـه ومهاراتـه الكتابيـة، ما سـاعده إلى أن يشـقّ طريقًـا لامعًـا في عالـم الروايـة. لكـن سـعاد لـم تسـتطع أن تحـلّ لغـز الجملـة الأخـيرة الـتي ختـم بهـا روايتـه باقتبـاس مـن «أرسـطو»: «إن حبًّـا يمـرّ عليـه الزمـن ويمحـوه ليـس حبّـا». فهـل عـنى أن حبّهـا لـم يُمـحَ، أو العكـس؟

تطوراتٌ في الشارع الخلفي

بالعودة إلى الشارع الخلفي، الحيّ الذي نشأ فيه جلال وسحر وسليم وأمين وأسامة وإبراهيم... ثمّة أمور كثيرة استجدّت، فقد استقطب الشارع المستثمرين العقاريين الذي كانت أبنيته قد صنّفت «تراثيّة»، فسهّل أحد المسؤولين أعمالهم لشراء المباني القديمة بعد أن أزاح التصنيف من ملف ملكيتها الذي كان يمنع هدمها أو تغيير ملامحها الخارجيّة. فبدأ المستثمرون يشترون المبنى بسعرٍ زهيد نسبيًا، ثم يهدمونه ويشيّدون عمارة عالية مكانه، ويبيعونها شققًا سكنية ومكاتب تجارية بأسعار مرتفعة.

إستعرّت حمى التسابق فيما بينهم، وهذا ما شجّع أصحاب المباني القديمة على بيعها في ظلّ الفوضى التي تعيشها البلاد، وقد فضّلوا ذلك على ترك البناء تحت سمة «تراثي» حيث لا يجني صاحبه من هذا «اللقب» أيّ فائدة. وكان المالكون يردّدون علنًا أمام أيّ سائل أو محتجّ على ما يقومون به بأن نيّة الحكومة لم تكن يومًا المحافظة على التراث، خصوصًا وأن رموزها قد اشتهروا بالاستيلاء على الآثار لتزيين قصورهم بها، أو ليبيعوها من الأجانب من دون أيّ خشية من مخالفتهم للقانون جرّاء تفريطهم بقطع نادرة ليست ملكًا لهم.

رافقت عمليّة البيع أزمة شاغلي هذه الأبنية بعقود إيجار قديمة، فباشر المستثمرون الاتفاق معهم بواسطة دفع «بدل إخلاء» ما يتيح

لهـم اسـتئجار مـكانٍ بديـل. وهكـذا يفـرغ البنـاء مـن قاطنيـه، وترحـل ذكريـات الجـيرة الحلـوة وحسـن المعـشر الـذي اعتـادوه في ذلـك الشـارع. فيتحـوّل البنـاء إلى هيـكلٍ مهشّـم بضربـات الآلات الضخمـة، ولا يلبـث أن يخـرّ سـاجدًا أمـام جـبروت آلات الفـولاذ. ثـم تُنقـل الحيطـان المحطّمـة الـتي حضنـت طفولـة الكثيريـن، والشـبابيك المكسَّرة الـتي وقفـت بجانبهـا الصبايـا تختلسـن نظـرات إعجـاب إلى ابـن الجـيران، والشرفـات الفسـيحة الـتي احتضنـت الصبحيـات الربيعيـة مـع رائحـة الكاردينيـا... كلّ هـذا أصبـح مصـيره في مكـبّ للردميـات.

هكـذا تُـزال الأبنيـة، ويُمحـى جـزءٌ مـن تاريـخ العاصمـة الحديـث، ومـن ذاكـرة الأجيـال. وحـتى تاريخهـا القديـم لـم يرحمـه المسـتثمرون. فعندمـا تظهـر بعـض معالمـه في أثنـاء حفـر الأساسـات العميقـة للبنـاء العـالي الذي سيشـيَّد، يتـمّ تجاهـل ذلـك بطمـر مـا بـان مـن آثـارٍ قديمـة بالإسـمنت خوفًـا مـن مطالبـة بعـض مؤسّسـات المجتمـع المـدني بالحفـاظ عـلى مـا اكتشـف، فتتعرقـل عمليـة إتمـام البنـاء.

عندمـا اشـترى أحدهـم المبـنى الـذي تسـكنه أسرة سـحر، رفـض والدهـا إخـلاء الشـقّة الـتي سـكنها مـذ كان طفـلًا، وتـزوّج وعـاش وعائلتـه فيهـا، واقـترب الآن مـن مرحلـة التقاعـد، ولا يـرى نفسـه ينتقـل إلى مبـنى آخـر لا يعـرف ناسـه، ولا طرقاتـه، ولا الدكاكـين الـتي اعتـاد التبضّـع منهـا. كلّ شيء سـيكون مختلفًـا، وهـذا مـا لا يرغـب فيـه.

تـردّد المسـتثمر عـلى مـنزل «أبـو سـحر» ليقنعـه بالموافقـة عـلى الإخـلاء. «فهـذه أمّ فريـال قـد قبلـت بالبـدل المـالي، وسـتنتقل قريبًـا إلى مـنزل آخـر، وأبـو طـارق اتفـق معـه عـلى المبلـغ، وسـجعان ومنصـور وافقـا

أيضًا على الإخلاء، فلماذا ما زلت ترفض عرضي يا أخي؟» هكذا حاول المستثمر إقناع «أبو سحر»، لكن الأخير بقي مصرًّا على الرفض. وفي إحدى زياراته له، لفتت نظره صورة فتاة جميلة بثوبٍ جامعي، فسأل الوالدَ عنها، وأجابه بأنها وحيدته، وهي تدير مؤسّسة لمكافحة الأميّة. فاستطرد:

- هل هي متزوجة؟
- لا.
- تفرح منها إنشاء الله.
- شكرًا.

تعمّد المستثمر أن يكرّر زيارته في «الويك آند» حيث توقّع أن تكون سحر في المنزل، وتكون فرصة للقائها. وهذا ما حصل. لكن سحر لم تبدِ اهتمامًا به، بل اكتفت بمحاولة التقريب بين وجهة نظره من إخلاء الشقّة، وموقف والدها العنيد. كانت أمّها تراقب ما يجري في هذه الأثناء، وعرفت بحسّ الأنثى ما يحصل أمام ناظريها. وبعد أن غادر ذاك الرجل، سألتها أمّها عن عدم اكتراثها به بالرغم من أنه أعطاها اهتمامه معظم الوقت. إكتفت سحر بالإجابة بأنها لا تفكّر بشخصٍ مثله، وعندما تقرّر أمرًا بالنسبة إلى حياتها الشخصية ستخبرها ووالدها بذلك.

خمس سنوات مرّت، وسحر تثابر في عملها، وتقدّم أفكارًا وأنشطة لكيفية تعليم الأمّيين. كما كانت تدعى إلى مؤتمراتٍ من تنظيم مؤسّسات دوليّة حول مكافحة الأمّية، وتعرّفت إلى العديد من المسؤولين في دول أخرى حيث كان المشاركون يتبادلون البطاقات الشخصيّة، ويتمنّون

اللقـاء في مؤتمـرات أخـرى. وفي أحـد الاجتماعـات الإقليميّـة، أُعجـب بهـا هـاني، منـدوب مـن بلـد آخـر، فـراح يتواصـل معهـا معـبّرًا عـن تقديـره لموهبتهـا وجمالهـا، وللكياسـة الـتي تتحـلّى بهـا. ولـم تكـن سـحر لترفـض كلماتـه الإطرائيـة لأنهـا وجـدت فيـه الرجـل الوسـيم و«الجنتلمـان» الـذي تتمـنّى الكثـيرات التقـرّب منـه. وهـي مـا زالـت تذكـر لحظـة تطلّـع إليهـا في ردهـة الفنـدق، وابتسـم لهـا بشـكلٍ معـبّر، مـا جعلهـا تسـائل نفسـها عـن مغـزى هـذه الابتسـامة، ومعـنى مـا شـعرت بـه لاحقًـا. ومـع الوقـت، ازداد تواصلهمـا، وازدادت الصراحـة في مـا يكنّـه كلّ منهمـا للآخـر مـن تقديـر واحـترام ومـوَدّة.

لـم يكتـفِ هـاني بلقائهـا في اجتمـاعٍ أو مؤتمـر، بـل تعمّـد أن يـزور بلدهـا ليراهـا عـلى انفـراد، ويتعـرّف إليهـا أكـثر عـن قـرب، ليس كمسـؤولة وناشـطة في مكافحــة أمّيــة الكبــار، بــل كامــرأةٍ ذات شــخصيّة جذبتــه لدرجــة أنــه صمّـم الارتبـاط بهـا. وصارحهـا في أحـد لقاءاتهمـا بأنـه معجـبٌ بهـا، وأنهـا تعـني لـه الكثـير بخـلافٍ أيّ امـرأة تعـرّف إليهـا سـابقًا، فعـبّرت بدورهـا عـن مشـاعرها نحـوه، وبأنـه يعجبهـا أيضًـا، وإلّا لمـا قبلـت أن تلتقيـه خـارج إطـار العمـل، أو تفسـح لـه المجـال للـكلام عـن أمـور شـخصيّة.

مسـاء يـوم ربيعـي دافئ، زار هـاني مـنزل سـحر، حيـث اسـتقبله الوالـدان بالترحـاب، وقُدّمـت الضيافـة كمـا هـي العـادة. ودار حديـثٌ حـول أمـورٍ عـدّة بـدءًا بالطقـس الجميـل، وحـال المنطقـة المتوتّـرة، وطبيعـة العمـل الـذي يقـوم بـه وسـحر لمسـاعدة مـن فاتتهـم فرصـة التعلّـم وهـم صغـار... كان لقـاءً اجتماعيًّـا جميـلًا لـولا مـا جـرى بعـده مـن نقاشـات بـين سـحر وأمّهـا. إذ سـألت سـحر والديهـا عـن رأيهمـا بهـاني، وهـو مهتّـم بهـا، ويريـد علاقـة جدّيـة معهـا. فأجـاب الوالـد فـورًا بأنـه رجـل مهـذّب

ومثقّف، ويفرض احترامه لدى من يجالسه. لكن كان لأمّها رأي آخر، إذ ردّت عليها بأنه يتحلّى بصفات كثيرة، لكنه «كبير» بالنسبة إليك. فسألتها سحر:

- هل لديك سبب آخر للاعتراض؟

- لا. كما قال والدك، فهو رجل محترم ووسيم، لكنه كبير في السنّ مقارنة مع عمرك.

- لا أجد هذا العامل عائقًا في علاقتي به. فهو منفتح في تفكيره وآرائه، خصوصًا بالنسبة إلى المرأة وإمكانياتها ودورها، وصاحب موقع عالٍ في عمله. وهو يضعني في رأس أولوياته. فما تتوّقعه الفتاة أكثر من ذلك ؟

- كلّ ما ذكرتِه أضعه في كفة، وأضع عمره في كفة أخرى حيث ترجح كما أظنّ.

- أمي! إنك تعلّقين على الظواهر فقط. لديه روح الشباب أكثر من الذين التقيتهم. إنه مرحٌ وكريم وفهيم، ويحبّ الحياة. سمّي لي أحد زملائي الذين سبق وعرّفتك إليهم يتمتّع بهذه الصفات!

- هذا ليس دوري، إذ عليك أن تنتظري فرصة الالتقاء برجلٍ آخر يجاورك في السنّ، ويمكن عندها الحديث عن علاقة جدّية.

إكتفت سحر بتعداد الصفات التي يحبّ الأهل أن يستقصوا عنها، لكنها لم تحدّث والدتها عن ذاك الشعور الرقيق والحميم الذي تكنّه لهاني، وكيف أنه يخلق لها عالمًا مختلفًا كلّما التقى بها أو تحدّث إليها. تشعر بأنه يحملها بكلماته وأحاسيسه إلى عوالم سحرية دافئة

وجميلـة حيـث لا تريـد العـودة إلى واقـع يضـع حـدودًا ومعايـير لعلاقـة رجـل بامـرأة... فهـي ملكـة في عالمـه، لا بـل هـي الملكـة.

بالمقابـل، هـل تخـبر أمّهـا مـا شـعرت بـه بعـد أن أمضـت وقتًـا طويـلًا مـع سـامر في الجامعـة «كصديقهـا المفضّـل»؟ لـم يجعلهـا تحـسّ أنـه مهتّـم بهـا، وأنهـا الأولى في كلّ شيء لديـه. هـذا مـا تريـد أن تشـعره وتعيشـه الفتـاة عندمـا تحـبّ. حـتى أنهـا سـاومت مـرّات عـدّة عـلى إهمالـه لهـا في مناسـبات عنـتْ لهـا الكثـير، وفي النهايـة اسـتنتجتْ أنـه لـن يكـون فـارس أحلامهـا لأن المسـتقبل معـه سـيحمل لهـا الكثـير مـن المشـكلات.

أو تخـبر والدتهـا عـن علاقتهـا مـع أحـد الضبّـاط الـذي أبـدى اهتمامـه بهـا، لكنـه تـصرّف معهـا بفوقيّـة، كأنـه يذكّرهـا بـأن بإمرتـه عـددًا مـن الجنـود، وهـو معتـاد عـلى إصـدار الأوامـر... مـا جعلهـا تقـرّر الانسـحاب بسرعـة من هـذه العلاقـة الـتي كانـت صديقاتهـا يشـجعنها عليهـا، لكنهـن لـم يعلمـن مـا كانـت تعانيـه مـن عقليـة صديقهـا البعيـدة عـن العشـق والذوبـان ولهًـا في الآخـر في جنـون الحـبّ الـذي تحلـم بـه.

لقـد أكـدّت لأمّهـا أنهـا ترتـاح لهـاني وتتقـارب معـه نفسـيًا وفكريًـا، وهـذا يولّـد الانسـجام بينهمـا ويزيـل احتمـالات المشـكلات المسـتقبلية. أليـس هـذا أمـرًا أساسـيًا في الحيـاة العائليّـة السـعيدة الـتي يحلـم بهـا كلّ إنسـان؟

خواتمٌ

من جملة الأبنية التي تمّ بيعها في الشارع الخلفي ذاك الذي يضمّ شقّة جلال، والتي كان والده قد استأجرها منذ تزوّج وقرّر الانتقال من قريته للعمل والعيش في المدينة. إتصل به أحد جيرانه يخبره بالمستجدّات في الحيّ، وخصوصًا في المبنى. فعاد جلال إلى الحيّ لينهي ما يتعلّق بالشقّة التي عاش فيها وورث عقد استئجارها. إذ قبِل بالمبلغ الذي دفعه المشتري لكلّ مستأجر، وقام بزيارة الجيران الذين ردّدوا على مسمعه بأنهم سيفتقدونه كرجلٍ طموح وخلوق قلّما صادفوا مثله، وكيف أن هجرته هي خسارة للبلد. فعلّق بعبارة لـ«أوريليوس»[٣]: «لا مجد لنحلةٍ في قفيرٍ مدمَّر»، إذ ظلّ يشعر بالمرارة لأنه وأمثاله فشلوا في المساهمة في تحويل شبه الوطن الذي عاشوا فيه فترة شبابهم إلى وطن. وبعد يومين حزم حقيبته عائدًا إلى البرازيل التي أصبحت وطنه.

عبدالله، زوج جملو، أصيب بمرض السرطان، وهو يخضع للعلاج المكلف جدًا، إذ لم يعد لهذا المرض الوقع المخيف بين الناس كما يظن المرء، فنسبة المصابين به ازدادت بشكلٍ كبير جرّاء تلوث المياه التي تروى بها المزروعات، والمأكولات الضارة التي يغيّر التجّار تاريخ

٣- الإمبراطور والفيلسوف الروماني ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، وكان من فلاسفة المدرسة الرواقية.

صلاحيتها. فلا الحكومة تحاول معالجة هذه الأمور، ولا المصابون بهذا المرض المرعب وباقي المواطنين يكترثون لما يحصل. إنه مجتمعٌ اتكالي بامتياز، يسير كمجموعةٍ من العميان التي سلّمت أمرها للصٍ ينقلها من مطبٍّ إلى آخر كي يبقى مسيطرًا عليها، ويسلبها ما لديها.

أسامة الذي يئس من إمكانية يقظة هذا الشعب من سباته العميق الذي ضاهى به أهل الكهف، استنتج أن الشارع الخلفي سيؤول إلى التفكّك والانهيار، فرمى رايات نضاله معلنًا الهزيمة، وهاجر. وقبيل سفره دأب في ترداد امتعاضه مما وصلت إليه أحوال البلد المادية والمعنوية عندما كان بعض أصدقائه يحاولون إقناعه بالعدول عن قراره: وطنٌ يضع مواطنٌ حذاءً في وسط علمه بدلًا من رمزه وشعاره، ولم يُساءَل على فعلته؛ وآخر يعتبر الوطن كلّه مساوٍ لـ«صرماية» لاجئ، ولا أحد يلومه بكلمة، بل أصبح نجمًا تجرى معه المقابلات الإعلامية! هل نعيش فعلًا في وطنٍ قيمته «صرماية»؟! ما مصير هذا المجتمع المتخلّف والمتزلّف سوى الضياع والفوضى؟ يصاب أفراده بالسرطان جرّاء التلوث والغش، ولا يبالون لأنهم ينتظرون الحكومة المصابة بالـ«كوما» أن تسترجع وعيها لتحميهم من هذا المرض!

سحرٌ تركت البلد إلى باريس بعد أن تقاعد أحد المسؤولين في المؤسّسة الدوليّة ذات الصلة بعملها، فتقدّمت إلى هذا الموقع حيث تمّ تعيينها فيه. ووالدها وافق أخيرًا على ترك الشقّة ليستأجر أخرى في ضواحي العاصمة حيث ساعدته في قيمة الإيجار. وفي إحدى زياراتها للبلد، أخبرت سحر والديها بأنها وهاني قرّرا الزواج بعد ستة أشهر، وطمأنت والدتها بأنها اتخذت هذا القرار بعد تمحيصٍ وتفكير عميق بكلّ ما يرتبط بحياتها، هذا بالإضافة إلى حبّها له.

سليمٌ بدأ «معاملة» السفر إلى كندا حيث أخواه. إذ دأب في ترداد «أن الأبنية والأحياء بناسها، وليست بالإسمنت والواجهات الزجاجية. وبما أن الناس بدأوا بالرحيل، فلم يعد للبقاء في الحيّ من نكهة، وربما طعم الغربة في كندا أقلّ مرارة مما هو هنا». وشلّة الجارات اللواتي اعتدن الصبحيّة يوميًا، تفرّقن مع رحيل أمّ فريال المفاجئ قبيل انتقالها إلى شقةٍ أخرى استأجرتها، كما أن معظمهن انتقلن إلى أحياءٍ متفرقة في العاصمة، وخلّفن وراءهن ذكريات جيرة استمتعن بها لسنوات.

بالنسبة إلى مصير سليمان، فحكم عليه بالسجن بضع سنوات بتهمة قتل زوجته سميرة من غير تعمّد. فقد كان «يؤدّبها» بحسب وجهة نظر المحكمة، ومن الطبيعي أنه لم يبغِ إنهاء حياتها. وخرج لاحقًا من السجن وتزوّج بعد ثلاثة أشهر.

كاملٌ الذي قتل جواد، استحصل له محاميه على تقريرٍ طبي «يثبت» بأنه مجنون ليأتي من بلده إلى الشارع الخلفي، ويخطّط لقتل من ساعده على تحصيل عيش له ولأسرته. وخرج من السجن بعد خمس سنوات.

«تاجر الموت» عاد! لقد اشترى أحد المباني القديمة في الشارع ليحولّه إلى بناءٍ حديث، بينما معظم ضحاياه يقبعون في السجن، أو في المقابر. شاركه في عملية الشراء زميله صاحب الخبرة في كيفية بيع الشقق مرّتين، والنصب على المشترين. أما الشريك الثالث الخفي، فكان من قدّم لهما الحماية طوال مسيرتهما «المهنيّة المشرّفة».

مازنٌ اضطر أن يدفع عشرين ألف دولارًا بتهمة «التهرّب من الضريبة»، و«باميلا» جلبت ابنتها «سيلفا» لتعيش معها بعد أن توفيت والدتها،

وكرّست حياتها لها باهتمامها بتعليمها وتربيتها تربية صالحة كي لا تضطر يومًا إلى التفكير باتّباع خطوات أمّها. ولم تبح «باميلا» يومًا لابنتها عما كانت تفعله عندما أتت إلى البلد، بل حافظت على روايتها القديمة بأنها عملت في متجرٍ للذهب.

إبراهيمٌ ما زال يعمل في الخارج، ويزور الشارع بإحساس السائح، وليس كعنصرٍ من مكوّناته المجتمعيّة. ورانيا تخشى السنوات التي تخطّ معالم التقدّم في السنّ على وجهها، لذا تتردّد بشكل دائم على إحدى عيادات التجميل، وتمضي باقي الوقت بالتنقّل في «الجيب» لزيارة صديقاتها أو الالتقاء بهن في مقاهي «المولات» التي انتشرت في شارع الواجهة. أما شادي وثناء فيحضّران الوثائق الضرورية للحصول على الجنسية الأسترالية بعد أن هاجرا إلى هناك نظرًا لانعدام فرص العمل في البلد، إضافة إلى الحال الأمنية التي تنذر بخطرٍ دائم.

أمينٌ يتنقّل بين أحياء العاصمة، يتطلّع في وجوه الناس، ولا يرى ما يجمعه بهم، فيعود إلى «الروف» ليجالس وحدته حيث يأنس للفراغ الممل. وبقي يدرّس بدوامٍ جزئي لأنه لم ينحنِ لمسؤولٍ حزبي، ويضع على أقدامه شهاداته كي يدعمه ليتفرّغ في الجامعة. كذلك تابع كتابة مقالة من وقت لآخر في إحدى الصحف اليومية. وهذا بعض ما ضمّنه في مقالته الأخيرة: لقد تسطّحت أفكار الناس حيث لا يُقدَّم لهم شيء خارج الإطار الطربي والفساد. فبات المجتمع طربيًا بامتياز: أغانٍ ومغنّون، رقّاصات ورقّاصون، شبّيحة وفاسدون. هذه هي النماذج السائدة في البلد. لهم تُفتح الأبواب على مصراعيها، ولهم تُقدَّم المنابر، فيعتلونها ليضخّوا في المجتمع تفاهاتهم...»

بقية ساكني الشارع لا يختلف وضعهم ومصيرهم كثيرًا عن أوضاع أبو سحر وأبو نجيب وسليم وإبراهيم وأسامة وجلال وأمين...

أما سكّان شارع الواجهة فيبدّلون الأقنعة بشكلٍ مستمر لتنسجم مع كلّ حالة ومناسبة.

«مجلس الزعماء» أعيد انتخابه كالعادة، ومع كلّ واحد منهم لائحة من المرشّحين ليمثّلوا الشعب الذي انتخبهم من دون أن يعرفهم أو يلتقيهم سابقًا. يكفي أن الزعيم اختارهم من أخلص أتباعه. وصوّت المجلس بالإجماع على مشروع قانونٍ لإلغاء وزارتي التربية والثقافة لعدم أهميتهما، على ذمة المستوزرين، وهم محقّون في ذلك. فالتربية في نظرهم ليست سوى ذهاب الأولاد صباحًا إلى المدرسة، وعودتهم بـ«الأوتوكار» بعد الظهر. وهذا بات يحصل تلقائيًا، فلمَ تخصيص وزارة لهذا الأمر السخيف؟! وبالنسبة إلى وزارة الثقافة، فالأفكار الفلسفية والأدبية والأعمال الفنية والمعالم التراثية لا تُصرف في أيّ «بنك» باعتقادهم. وهل هم «هبل»[٤] ليبقوا هكذا وزارات أو يقبلوا بها؟! هذه أحدث بدعة حصلت في «جمهورية الموز».

أما الأبنية القديمة المتبقية في الشارع الخلفي، فتنتظر من يشتريها ويهدمها لإنشاء مبانٍ حديثة بدلًا منها.

٤- بسطاء في تفكيرهم وتصرفاتهم.



البرفسور نمر فريحه،

حائز شهادة "ماجيستر" في العلوم السياسية، ودكتوراه في التربية في حقل المناهج والتربية المواطنية من جامعة "ستانفورد" في الولايات المتحدة الأميركية. مارس التدريس الجامعي، وشغل موقع العمادة لكلية العلوم الانسانية مرة، وعميد لكلية الآداب والعلوم مرة أخرى في جامعتين خاصتين. كما رئس المركز التربوي للبحوث والإنماء في بيروت لثلاث سنوات، وشغل مراكز استشارية أبرزها في وزارة التربية والتعليم في سلطنة عُمان.

في رصيده خمسة عشر إصدارًا في المجالات التربوية والأدبية آخرها "المواطنة العالمية والمواطنة الرقمية، وما بينهما" (٢٠١٧) الصادر عن دار سائر المشرق ودار الورّاق، إضافة إلى العديد من الدراسات والأبحاث المتخصّصة المنشورة في كتب أجنبية في لندن ونيويورك.

ثرثراتٌ في الشارع الخلفي

رواية جريئة ترسم واقع الحياة اليومية في أحد أحياء العاصمة الشعبية، وعاكسة برمزيتها الخيبة في المجتمعات العربية حيث تسود اللامبالاة والشخصانية والضحالة الفكرية، ومبيّنة في الوقت ذاته تطلّعات النخبة الثقافية المستفرَدَة في أكثر من دائرة وموضع، إذ تحرّك هذه النخبةَ روحٌ نهضوية كامنة لدى البعض، ومراهنة على إسماع حيّ لا يزال موجودًا في مكان ما في زمن تراجع الثقافة في الوطن والعالم العربي.

فالرواية تابلوهات مترابطة محبوكة بخيط سردي مشوّق، وبأسلوب شيّق بعيد عن الوعظ، ينفذ الكاتب من خلالها إلى عمق المشكلات تاركًا للقارئ الحرية التامة كي يحدّد موقفه الخاص من كلّ واحدة منها، ثم خياراته، وما بإمكانه أن يفعل لتغيير هذا الواقع.

"ثرثرات في الشارع الخلفي" رواية المثقفين الملتزمين الرافضين لأنماط الحياة التسطيحية والاستهلاكية، وللتزلّم والتبعية العمياء التي باتت تطبع الشارع وناسه.


ISBN 978 - 614 - 451 - 111 - 4
9 786144 511114